الموريسكيون الإسبان ووقائع طردهم


بسم الله الرحمن الرحيم



الموريسكيون الإسبان ووقائع طردهم

لكاتبه الأسقف دون باسكوال بورونات إي برَّاتشينا

(بلنسية 1901م)

الكتاب الأول من الجزء الأول

ترجمة

الدكتورة كنزة الغالي



إشراف الدكتور محمد بن عبد الرحمن البشر



الكتـــاب	**: الموريسكيون الإسبان ووقائع طردهم**
الكاتب	: الأسقف دون باسكوال بورونات إي برَّاتشينا
الترجمة	: الدكتورة كنزة الغالي
المراجعة	: اللجنة العلمية التابعة للمركز برئاسة الدكتور أحمد بنبين
الطباعــة	: طبع في مطابع دار الكتب العلمية - بيروت
الإخراج الفني	: يونس عبدوس
قياس الصفحات	: 17×24 cm
سنة الطباعــة	: 2012م - 1433هـ
الطبعــة	: الأولــى



مركز "**العمودي لترجمة ونشر التراث المخطوط**" مركز متخصص في التراث العربي المخطوط، وتم تأسيسه بالمملكة المغربية، يقوم عليه مجلس إداري يتكون من:

الشيخ محمد حسين العمودي	: رئيس المركز
الدكتور محمد بن عبد الرحمن البشر	: المشرف العام على المركز
الدكتور أحمد شوقي بنبين	: رئيس اللجنة العلمية
الأستاذ جمال با عامر	: رئيس اللجنة المالية
الدكتورة كنزة الغالي	: عضوة اللجنة العلمية
الدكتور عبد القادر سعود	: عضو اللجنة العلمية
الكتور عبد المجيد خِيَّالي	: عضو اللجنة العلمية
الأستاذ يونس عبدوس	: سكرتير المركز



إهداء

إلى السيد الفاضل الشيخ محمد حسين العمودي..

إلى الدكتور محمد بن عبد الرحمان البشر، سفير فوق العادة للملكة العربية السعودية بالمغرب، الذي كلما سنحت لي فرصة لقائه وجدت عنده فكرة، أو مشروعا أو كتابا عن الأندلس يبهرني بتنقيبه عن الجديد والأصيل في هذه الحقبة التاريخية من الوجود الإسلامي بشبه الجزيرة الإيبيرية ويشجع كل بحث وعمل يسبر أغوار ثمانية قرون من الحضارة الاسلامية في الأندلس..

إلى الدكتور محمد أجديرة (Cadera) المهووس بالبحث والتنقيب عن جذوره الموريسكية التي ما فتئ يحدثني عنها منذ أول لقائي به في جنوب إفريقيا خلال المنتدى العالمي للشباب..

إلى محمد انفيسي، أبو ياسر، إلياس، مريم وأيوب، رفيق الدرب الذي تحملني بكل صبر وأناة وأنا منكبة على ترجمة الكتاب، يسعى بكل جهده كي يوفر لي ظروف العمل الهادئة ويصحح أخطائي اللغوية.



شكر

إلى أساتذتي الأجلاء في وحدة البحث والتكوين: الأندلس، دراسة متعددة الاختصاصات، بجامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط- أكدال، الذين كان لهم الفضل، خلال العشرية السالفة من القرن المنصرم، في تحريك الفضول بداخلي وتشجيعي على النهل من معين أمهات الكتب والمصادر حول الأندلس.

إلى أمامة عواد، عبد الواحد أكمير، محمد يعلى، فتيحة بلباح وأحمد الطاهري.



مقدمة المترجمة

قبل الشروع في ترجمة هذا الكتاب المكون من جزأين، بكل واحد منهما أزيد من ستمائة صفحة، قررت أن أجعل هذا العمل أهم مشروع أكاديمي علمي في مرحلة مساري الآنية والمستقبلية إن يسر لي الله عز وجل ذلك. لم يكن سهلا اختيار الكتاب أو الوثيقة التي يجب أن أنكب عليها بالترجمة بعد الاجتماع الأول كعضو ضمن اللجنة العلمية بمركز العمودي للترجمة ونشر التراث المخطوط. كان من بين الشروط الأساسية للعمل ألا يكون الكتاب من المؤلفات المعاصرة الحديثة وألا يكون قد ترجم من قبل. لذا عمدت إلى الاتصال بالإخوة في المجلس الأعلى للثقافة والمركز القومى للترجمة فى مصر ومؤسسة التميمي للدراسات الموريسكية في تونس لأتأكد من عدم وجود ترجمة سابقة للكتاب، فثبت لي أن المؤلف الذي استطعت الحصول عليه من طرف رئيس «لاكاسا سيفاراد بقرطبة» (البيت السفردي) السيد سيباستيان دي لا أبرا لم يترجم من قبل وأنه قد تم تأليفه سنة 1901 من طرف رجل كنيسة اطلع عن كثب على الوثائق المتعلقة بالموريسكيين ومعاناتهم في إحدى القلع الهامة التي سجلت مصيرهم المؤلم: مملكة بلنسية وعبر مراحل مختلفة.

في العشرية الأخيرة من القرن المنصرم وبالضبط سنة 1992 للميلاد بمناسبة مرور خمسة قرون على طرد اليهود من الأندلس، أقدم ملك إسبانيا خوان كارلوس على الاعتذار لهم، وسنة 2009 خلال ذكرى مرور أربعة قرون على طرد الموريسكيين من شبه الجزيرة الإيبيرية صرح ملك إسبانيا في قوله بأن الاسلام يشكل جزءا من الهوية الثقافية لإسبانيا و هذا بدوره يمكن اعتباره ذا دلالة كبيرة لأن مساهمة إسبانيا في النهضة الأوروبية، إنما تمت من خلال الحضارة الأندلسية الاسلامية. وخلال الذكرى

المائوية الرابعة لطرد الموريسكيين سنة 2010 أصدر البرلمان الاسباني بيانا يعتذر فيه لكل الموريسكيين عن التعسفات التي عانوها جراء طردهم وترحيلهم القسري من الأندلس، وهم في الواقع لايسمون أنفسهم بالموريسكيين وإنما يتشبثون بلقب أهل الأندلس أو أهل غرناطة. ويعتبر هذا الأمر في الواقع إعادة اعتبار للذاكرة التاريخية الاسبانية، ولكن الأهم من كل هذا، ليست التعويضات المادية التي يطالب بها بعض أحفاد الموريسكيين، ولا الحصول على الجنسية الاسبانية واستعادة دورهم التي مازال بعضهم يحتفظ بمفاتحها، فالأهم هو الاعتراف بالاسلام كمكون أساسي ليس للثقافة الإسبانية فحسب بل للبلاد ككل في جميع تجلياتها من ممارسات إدارية واجتماعية ومعاملات تجارية وعلاقات أسرية نظرا للتمازج العميق والتام الذي تم بين تزاوج الجنسين، المسلم والمسيحي بالأندلس. ومازالت وثائق هامة تزخر بالمعلومات عن تلك الفترة التاريخية من تواجد البربر والعرب والمسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية بقصر الاسكوريال والأرشيف العام بسيمنكاس، وبعض الكنائس. لابد من التنقيب عنها ودراستها وإعادة الاعتبار التاريخي لأولئك الذين قال عنهم مؤلف الكتاب الذي نحن بصدد ترجمته: «ولد الموريسكيون داخل المجتمع المسيحي الإسباني إلا أنهم لم يفقدوا ولم ينسوا يوما قط انتماءهم لمحمد ولا حادوا عن ممارسة شعائر دينهم وعاداتهم...أصدر دو بوربون مرسوما ملكيا في شتنبر 1712 يأمر بالطرد الكامل للموريسكيين، وأكد أن بذورهم ونواتهم قد زرعت الإسلام إلى الأبد وتعمقت جذورها في بلادنا».

أسأله تعالى العون وما توفيقي إلى بالله.

كنزة الغالي

فاس في 21 دجنبر 2011

تقديم الترجمة

بعد سقوط غرناطة الإسلامية عام 1492، ظلت غالبية مسلمى الأندلس تقيم فى بلادها وتمارس شعائر دينها، بمقتضى معاهدة[1] لم يدرس مؤرخونا بنودها دراسة متأنية حتى الآن، بل اكتفوا بإدانة أبى عبد الله الصغير، وهكذا أصبح الرجل فى كتبنا هو المسؤول عن ضياع الأندلس كلها، مع أن من يتأمل نصوص المعاهدة يدرك أن المفاوض المسلم كان صلبا، وأنه لم يفرط أبدا فى حقوق المسلمين الإسبان، بل ولم يفته كذلك أن يدافع عن حقوق رعايا الدولة الإسلامية من اليهود، وأنه أجبر فيرناندو على توقيع معاهدة أراها لا تعبّر أبدا عن تفاوت القوى والإمكانيات بين الطرفين[2]. أريد أن أسجل هنا أن المؤرخ الإسبانى كان أكثر إنصافا لأبى عبد الله الذى وضعه القدر فى موضع لا يحسد عليه، فقد تولى الملك فى فترة كان الأندلس فيها قد انهار بالفعل، ولم يكن ينتظر سوى إعلان الوفاة بشكل رسمي.

بعد عشر سنوا ت من توقيع المعاهدة، أي فى عام 1502، تنكّر فيرناندو الكاثوليكي لوعوده، وقرر أن إسبانيا لم تعد تتسع لغير الكاثوليك، وأن على المسلمين أن يتحولوا إلى الكاثوليكية أو أن يغادروا وطنهم إلى العدوة الأخرى. لم يكن من السهل أن يغادر

(1) ترجمنا نص المعاهدة عن الإسبانية، انظر«الموريسكيون الأندلسيون» تأليف غارثيا أرينال، ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003.

(2) أشرنا إلى هذه النقطة فى مقدمة كتاب «الموريسكيون الأندلسيون» المذكور. هناك كتاب آخر –«المنظرى الغرناطى مؤسس تطوان»، تأليف غوثالبيس بوستو، ترجمة ممدوح البستاوى، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005– يثير قضية مهمة إلى أقصى حد. إن أصحاب النفوذ فى المغرب العربى –طبقا لرواية المؤلف– قد تعاونوا مع الملك فيرناندو، مما أسهم فى التعجيل بسقوط غرناطة، والأمر هنا شديد الوطأة على النفس، ويبقى أن يتسلح مؤرخونا بالوثائق لدحض هذا الرأى أو الاعتراف بصحته وإعادة كتابة تاريخ سقوط غرناطة. (إن صدق ما يرويه المؤلف فسيكون لدى مؤرخينا سبب آخر لكيلا يتحدثوا عن خيانة أبى عبد الله الصغير. يحضرنى هنا أن صديقنا الراحل غوثالبيس بوستو كان يرى أن الكتابات التأريخية العربية ظلمت آخر ملوك غرناطة ظلما واضحا، فقد حمّلته مسئولية ضياع غرناطة، فى حين أن سقوط المملكة الإسلامية لم يكن سوى محصلة لعقود طويلة من الضعف والتهاون من جانب أسلافه.

المسلمون وطنهم الذى ولدوا وعاشوا فيه، ولم يكونوا يريدون كذلك ترك دين لم يقتنعوا بغيره. إزاء هذه المعضلة توجهوا إلى علماء المغرب الإسلامى يطلبون منهم الفتوى، وكان أن وجه إليهم أحمد بو جمعة الوهرانى الفتوى الشهيرة التى تبيح لهم قبول المسيحية ظاهرا، وممارسة شعائر الإسلام فى الخفاء. اعتبارا من ذلك العام بدأ ما يمكن أن نطلق عليه «التاريخ الموريسكى»، أي تاريخ الأندلسيين الذين فضلوا البقاء فى بلدهم، ومارسوا شعائر الإسلام سرا بعد أن تظاهروا باتباع المسيحية. تعرض الموريسكيون للتنكيل من قبل محاكم التفتيش، ثم انتهى بهم المطاف إلى طردهم في الفترة بين عامي 1609 – 1614.

مجمل القول إن الفترة الموريسكية، التى تمثل امتدادا حضاريا للأندلس، قد حظيت باهتمام العديد من مراكز البحث الأوروبية، أما فى عالمنا العربى فلم ينل هذا الموضع –على أهميته– اهتماما يذكر إلا فى السنوات الأخيرة. صحيح أن الدكتور عبد الجليل التميمى أنشأ مركزا للدراسات الموريسكية فى تونس، لكن مركزا بحثيا واحدا لا يكفى لدراسة قضية عربية إسلامية معقدة مثل القضية الموريسكية. أسباب غياب هذا النوع من الدراسات لا تخفى على أحد: إن من يتصدى لدراسة قضية الموريسكيين عليه أن يكون ملما باللغة الإسبانية –التى حررت بها معظم الوثائق– وعليه أن يكون على دراية بأدوات البحث التأريخى فى آن واحد. لذلك ابتعد مؤرخونا عامة عن خوض غمار هذا الموضوع، واكتفى غير المتخصصين بالإشارة إلى الموضوع بغير علم، وأطلقوا أحكاما لا تثبت أمام المنهج العلمى السليم.

في محاولة لسد الفجوة التى تحدثت عنها يجئ مشروع المكتبة الموريسكية الذى تمكنا من خلاله من نشر ما يربو على عشرين كتابا حتى الآن ضمن إصدارات المجلس الأعلى للثقافة والمركز القومى للترجمة فى مصر، تتناول جوانب مختلفة من جوانب القضية الموريسكية. من الطبيعى أن يتكامل دور الباحثين في العالم العربى، فالتنسيق بين مراكز البحث والعمل الثقافي في العالم العربي يعود بالفائدة على الجميع. لهذا سعدت كثيرا عندما

حدثتني الزميلة الكريمة الدكتورة كنزة الغالي عن اعتزامها ترجمة بعض كتب التاريخ الموريسكى، وأنها لا ترغب فى ترجمة كتب تمت ترجمتها من قبل. أعتقد أن الدكتورة كنزة الغالي قد وفقت في اختيار هذا الكتاب الذي يحتل مكانا مهما في كتب التاريخ الموريسكي، ولا غنى عنه لمن يريد تسجيل تطور البحث التأريخي الإسباني للقضية الموريسكية.

لكي تتبين أهمية هذا الكتاب علينا أن نضعه داخل إطار البحث التأريخي للقضية فى إسبانيا. لم تتوقف محاولات الموريسكيين للتمسك بالإسلام، ووصل الأمر إلى أن أعلنوا الثورة الشاملة، وخاضوا حربا ضروسا استمرت لأكثر من عامين، وكانت السلطات الإسبانية حريصة على أن تكون الدولة كاثوليكية لا تتسع لأصحاب الديانات الأخرى، بل لا تتسع للمسيحيين من أصحاب المذاهب الأخرى. كان أصحاب السلطة يفضلون أن تكون إسبانيا كاثوليكية خالصة، لكن النبلاء كانوا يؤيدون بقاء الموريسكيين في إسبانيا لأنهم صناع مهرة وزراع متميزون. تم حسم الصراع واتخذ الملك فيليبي الثالث فى النهاية قرارا بطرد الموريسكيين، مما أدى إلى عواقب وخيمة على الاقتصاد. عندما بدأ المؤلفون يتناولون موضوع الطرد كانت إسبانيا لا تزال تخوض حروبا بحرية ضد العثمانيين، وبالتالي فقد أدى الجو العام المناهض للموريسكيين إلى أن نستمع إلى صوت واحد فقط، هو صوت المتعصبين، أما الصوت المتعاطف مع الموريسكيين فقد لزم الصمت طوعا أو كرها، وهكذا كانت المؤلفات كلها تسير فى طريق تبرير القرار الذي اتخذه فيليبي الثالث. استمر هذا الجو المشحون حتى نهاية القرن الثامن عشر.

أما في القرن التاسع عشر فقد انقسم المؤرخون الإسبان الذين عالجوا القضية إلى فريقين:

- فريق يؤيد عملية الطرد بشكل واضح ويسوق لها المبررات، ويعتمد فى ذلك على دراسات سابقة لا تتضمن وثائق.

- فريق اعتمد على وثائق، مثل ليا، ودانفيلا، وبرونات إي باتراتشينا، وخانير، وقد

تراوحت مواقف هذا الفريق بين التأييد والمعارضة لقرار الطرد.

من حيث الاتجاه الفكري للمؤلفين يمكن أن نقسم هؤلاء إلى: محافظين يدافعون عن الوحدة الدينية ، ومن ثم يجدون مبررات لطرد الموريسكيين (دانفيلا ، برونات، منينديث بلايو)، ومتحررين يتعاطفون مع الموريسكيين ويوجهون الانتقادات للسلطة (خانير ، أمادور دى لوس ريوس ، ليا، موديستو لافوينتى).

من المهم هنا أن نشير إلى أن الاتجاه التحررى قد عززته حركة الاستعراب التى قادت إلى دراسة الموريسكيين باعتبارهم آخر من يمثل مسلمي إسبانيا. نضيف كذلك أن الحملة الإسبانية ضد المغرب كانت تجعل من الضروري دراسة الشخصية المغربية، ومن الطبيعى أن يؤدي ذلك إلى مقارنة المواطن المغربى بالموريسكي.

للأسف الشديد أدى هوس بورونات بمعاداة الموريسكيين إلى الانتقاص من قيمة العمل. فالركنان الأساسيان للكتاب -كما يؤكد بونيس إيبارا[1]- هما التبرير المستميت للطرد والدفاع عن البطريرك ريبيرا. يرى المؤلف الموريسكيين على أنهم جماعة كثيرة العدد من الملحدين والمارقين، ويصورهم كخونة غرضهم النهائي هو زعزعة استقرار الملكية الإسبانية. من ناحية أخرى يوجه المؤلف انتقادا حادا إلى النبلاء الفالنسيين، فهم المسؤولون عن بقاء «العنصر المسلم» في أرض الوطن. حتى الجوانب الإيجابية عند الموريسكيين يصورها برونات إى باراتشينا على أنها سلبية، لكي يبدو قرار طردهم فى النهاية قرارا صائبا تماما. أريد أن أشير هنا إلى أن كتابا وضعه ماركيث بيانويبا يرى الأمور من منظور آخر[2].

إذن فالكتاب الذي نقدم له يتضمن العديد من الوثائق المهمة، ويتخذ موقفا معاديا

(1) انظر كتابه «الموريسكيون فى الفكر التاريخى»، ترجمة وسام محمد جزر، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

(2) انظر «القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى»، ترجمة عائشة سويلم، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

لمسلمي الأندلس، وهذا ما يؤكد أهمية ترجمته إلى اللغة العربية، فللمؤلف تلاميذ يسيرون على نهجه حتى الآن، وإن كانوا قلائل، ومن ثم فإن ترجمة الكتاب من شأنها أن تضع أمام الباحث العربي الذى لا يجيد اللغة الإسبانية. قاعدة بيانات ومادة ثرية تمكنه من المشاركة فى الحوار الحضاري بين الشرق والغرب خلال انعقاد المؤتمرات حول القضية الموريسكية.

نضع بين يدي القارئ الآن هذا الكتاب المهم، ونأمل فى أن يلقي مزيدا من الضوء على قضية مسلمي الأندلس، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

جمال عبد الرحمن

القاهرة فى 5 صفر 1433

الموافق 30 ديسمبر 2011



إهداء المؤلف

إلى أعضاء الهيئة العليا بالمعهد الكنسي كربوس كريستي..

مرت علي سنوات طويلة وأنا أعمل جادا لكي أضع بين يديكم منوغرافية موثقة عن تاريخ وأحداث طرد المورسكيين. عملت جادا على اتباع الموضوعية ونسيان مشاعري ومعتقداتي التي زرعها والدي في كياني. لقد تجرأت كذلك على مناقشة وسرد آراء بعض المؤرخين الذين يخلطون بين مواقف الكنيسة الكاثوليكية ومؤسسات أخرى، يبرئون طرفا ويدينون آخر لأنهم وضعوا على المقصلة أعناقا ساهمت في حل مشكلة الموريسكيين بإسبانيا. كان هدفي بعيدا عن التنميق في التعبير والسجع في الكلام وصببت جم انشغالي على الإتيان بالبراهين والحجج الدالة على الحقائق الواقعية والروايات الموضوعية لحرب طاحنة ضد غالب ومغلوب، ضد الموريسكيين الذين أثبتت كل الحقائق التاريخية استحالة انصهار وتمازج شعبين متنافسين ومتناحرين.

عرفت المسألة الموريسكية حدتها خلال حكم الملكين كارلوس الأول وفيليبي الثاني مما استوجب حلا عاجلا وقاطعا. اختلف التعامل معهم حسب المواقف، تأرجحت بين الهدنة والمرونة وإصدار مراسيم وقوانين. وفي محطات أخرى كانت الصرامة والقسوة هي الحل أمام استحالة أية استجابة من طرفهم لدمجهم وانصهارهم في المجتمع. استنفذ المجلس الأعلى للدولة، الملوك المتعاقبون والغيورون على الوطن كل السبل لحل المسألة الموريسكية، فلم يبق من مناص إلا طرد ذلك الجنس الذي تنصر في الظاهر ولم يحد قلبه وباطنه أبدا عن الإسلام. تحمل مسؤولية تنفيذ ذلك القرار كل من الملك فيليب الثالث، وإلى جانبه الدوق دي ليرما والبطريرك ريبيرا. تعرضوا لعدة اتهامات نظرا لمناصبهم الحساسة التي كانوا يشغلونها. عملت على إثبات حقائق ومواقف متعددة انطلاقا من

مصادر و وثائق تاريخية دون تحامل أو تقصير.

أتوجه بالشكر الخالص لدون مانويل دانفيلا الذي مكنني من النهل بنهم من معين وثائق ومصادر لم تنشر قط من قبل ذات صلة وطيدة بموضوع كتابنا هذا، وشكري موصول لكل الذين ساندوني لإخراج هذه الحقائق التاريخية إلى الوجود. وإليكم جميعا أهدي هذا العمل.

خادمكم الوفي الذي يقبل يديكم

الأسقف باسكوال بورونات إي برَّاتشينا

بلنسية 6 يونيو 1901

تـقـديـم

لقد أحسست بعجز ومشقة كبيرين وأنا أدون بعض الأحرف حول هذا الكتاب الذي ألفه القسيس دون باسكوال بورنات حول الموريسكيين الاسبان وطردهم. اعتمد على وثائق ومصادر بالغة الأهمية لم تتأت لكثير من قبله، تطرق إلى أحداث حركت الكتاب والمؤرخين ودوخت السياسيين وهزت أركان محاكم التفتيش. الموضوع نفسه تطرقت إليه بدوري في خطاب استقبال بالأكاديمية الملكية للتاريخ سنة 1884، وقلت بأن الموريسكيين قاتلوا في صفوف جيوش الملوك، واستخدموا ضد العصابات وتطرقت إلى كيفية تنصيرهم معتمدا في ذلك على وثائق لمحاكم التفتيش ببلنسية التي لازال يحتفظ بها في الأرشيف التاريخي الوطني. أدى تنصر مورو بلنسية إلى إبراز عداء شديد بين جنسين يتصارعان حول المسألة الدينية، التي تعتبر مقدسة في دولة كاثوليكية، الأمر الذي أدى إلى عدة مواقف وتأرجح رأي حول هذه المسألة من جهات متعددة. وعن أمر طرد الموريسكيين قلت بالحرف: «لقد كان الطرد حتميا وضروريا وعن حيثياتها وحدها المؤسسة الدينية ببلنسية يمكنها توضيح الأسباب التاريخية لذلك. ابتدأت بالتنصير القصري للموريسكيين، الأمر الذي تسبب في تمرد إسباذان وبرنية في البادية ثم الثورات التي تلتها وأدت إلى قرار طردهم النهائي سنة 1609، لم يكن الأمر في الواقع إلا تفعيلا لقراري 1525 و1545 من أجل استقرار البلاد واستتباب الأمن بها».

للقيام بهذا البحث كان لابد من الرجوع إلى بيوت النبلاء والأعيان ببلنسية واختراق أرشيف مكتباتهم الخاصة التي كانت تزخر بوثائق هامة عن هذه الحقبة، نذكر منها كنيسة كربوس كريسيتي التي أنشأها واهتم بها البطريرك خوان دي ريبيرا والذي كانت له صلة مباشرة بطرد الموريسكيين الإسبان. أتيحت لي الفرصة أن أطلع أيضا على وثائق أرشيف

المكتبة الوطنية بباريس والمتحف البريطاني.

رغم صغر سنه، استطاع هذا الكاتب المرموق أن يكتب عن مرحلة حرجة في تاريخ وطنه، سعيا منه لخدمة الرب ودينه والكنيسة الكاثوليكية التي لا يمكنها إلا أن تفتخر بخصاله واجتهاده.

يتكون الجزء الأول من أربعة عشر فصلا، تحدث فيها صاحبها عن حالة ووضع تاريخي لم يعشه موريسكيو بلنسية فحسب بل يكمن اعتباره فصلا في مسرح أحداث صاغ فصول ملاحمها الموريسكيون الأسبان الذين مكثوا بها في رعاية قوانينها وحمايتها الإنسانية. تتبع اثر تلك النعرات ونقب في أسباب التمرد الدائم المتكرر لقرون عاش خلالها جنسان مختلفان في الدين والعادات والتقاليد، جنس قوطي اسباني وفي المقابل جنس عرب إفريقية. تطرق الكاتب في الفصلين الأولين إلى الخطوط العريضة لدخول العرب إلى إسبانيا معتمدا في ذلك على المصادر العربية ووثائق فرنانديث-غيرا، الإخوة أوليفيرا، فرنانديث وغونثاليث دي ساآبيدرا التي لخصها دون ليون ثيو سيد في كتابه بعنوان «احتلال إسبانيا من طرف العرب 1894». تعرض كذلك إلى هروب القوط واحتمائهم بجبال أشتريش، للحروب والصراعات التي تأججت على امتداد سبعة قرون روت دماؤها تربة إسبانيا لتحقق هذه الأخيرة انتصارا في النهاية بوقعة العقاب، وتسترجع إشبيلية في أواسط القرن الثالث عشر. استنتج في نهاية بحثه أن الغالب والمغلوب لم يتوصلوا قط إلى التكتل والانصهار لأن لكل واحد منهم معتقداته ودينه. لقد اكتسى الصراع منذ البداية صبغة دينية، وحاول كل خصم القضاء على الآخر لخدمة مصالح خاصة.

وبينما كان فرناندو الثالث يقوم باسترداد أقاليم في الأندلس ظهر في أراغون دون خايمي الأول المسمى بالفاتح و الذي استطاع استرجاع مايوركا، بلنسية ومرسية معتبرا ذلك نصرا وعلامة رضى من عند الرب. تم فتح بلنسية في 28 شتنبر من 1238 ودخلها الجيش المسيحي في 9 أكتوبر الموالي فكان ذلك بداية الفتوحات المتتالية أمام الفاتح دون

خايمي. منحت مهلة عشرين يوما للموريسكيين الذين فضلوا الخروج من المدينة محملين بأمتعتهم رفقة ذويهم بينما بقي من اختار المكوث في أمان بالمدينة في حماية أسياد لهم واستمرت الهدنة لمدة سبع سنين. بالنسبة لليهود فقد تم تجميعهم بحي في الخارج بينما قطن الموريسكيون الذين فضلوا البقاء في حي شاسع تقع عليه الآن الكنيسة المقدسة سان ميغيل. وجد حي المسلمين هذا سنة 1370 دون أن ينفر المسيحيون من معاشرة المورو أو التعايش معهم إلى حدود بداية يونيو 1455 إلى أن هاجموها وحاصروها حسب الأوامر التي أصدرتها هيئة التحكيم العليا وعمل على تنفيذها موسين بيدرو ميركادير، مستشار وخازن الملك، ولازال أرشيف بلدية بلنسية يحتفظ بتلك المراسلات المكثفة.

مكث خايمي الأول في بلنسية إلى غاية مايو 1239 وفي فبراير 1240 استأنف حملته من جديد ليبدأ في فتح مرسية ويبسط نفوذه على جزيرة شقر ويرسي نموذجا للتعامل لمسلمي إسليدا وأهين سنة 1242 ولإعمار مدينة مقفرة شاسعة بحشود مسلمة ويهودية كان يتطلب منه الأمر إرساء سياسة تسامح وتعايش، وقد كان ذلك من أعظم منجزات خايمي الفاتح. احتفظ المدجنون الذين مكثوا في بلنسية بكل ممتلكاتهم واستفادوا من امتيازات أخرى، سمح لهم بممارسة عاداتهم وحفلاتهم وطقوسهم وتم إصدار أوامر بعدم إزعاجهم أو التعرض لهم وقد منحهم استقلالا تاما بموجب رسالة مؤرخة في يونيو 1242، الأمر نفسه تم مع ساكنة جزيرة شقر. وسيتم التطرق لاحقا إلى هذه الوقائع في الفصل الثالث الذي وردت فيه هذه الكلمات: «الحقيقة تسمح بارتكاب الخطإ ولكن لا تتساهل معه، قد يستطيع المورو التعايش والتأقلم والانصهار وسط المسيحيين لكنهم لن يستطيعوا أبدا أن يكونوا شعبا واحدا»، عمل هذا الكتاب على توضيح هذه الحقيقة خلال قرنين مرت بين موت الفاتح والملوك الكاثوليكيين. وبكل إعجاب وتبجيل تحدث المؤلف في الفصل الرابع عن إنجازات هؤلاء الملوك وإرسائهم لنظام حكم جديد في إسبانيا وإذكائهم للروح الوطنية، فبعد نافرا استرجعوا غرناطة. ومن أجل استئصال المشعوذين والسحرة والخارجين عن القانون بإشبيلية تم إرساء محاكم

التحقيق سنة 1479 ليس من أجل إرضاء طمع وشجع فرناندو الخامس، كما يذهب إلى ذلك بعض المؤرخين، ولكن لغاية إرساء مبدإ السلطة الذي عرف تراخيا كبيرا في الفترات السابقة وتسبب في تسيب اليهود والمسلمين وساهموا في عدم استقرار المنطقة. وفي عقود الزواج لثربيرا في 7 يونيو 1469 تم تقرير الحرب ولا شيئ غير الحرب ضد المورو لاستئصال المسلمين. تم تعميم القرار بعد ذلك في بلاط مادريغال سنة 1576 وفي طليطلة سنة 1480، كان موقفا ساذجا للجانب المسيحي اتجاه سياسة التسامح التي انتهجها خايمي والفاتح والتي لم تطبق كما كان مفروضا أن تكون. بقي الهدف من القضاء عليهم واستئصالهم هو تطهير الأرض منهم حتى لا يمتزجوا بالمسيحيين وفي 1482 تم خلق المجلس الأعلى لمحاكم التفتيش وبذلك تكون قد تمت مهمة الملوك الكاثوليكيين، الذين رفعوا لتوهم راية الحرب ضد المورو واحتلوا الحمراء والزهراء وصولا إلى غرناطة سنة 1492 مكملين بذلك الوحدة الوطنية. تم طرد المسلمين واليهود ومحاصرتهم وتعاقبت أحداث البيازين الدامية، هويخار ولانخارون وتم استبدال سياسة التسامح بنهج الاستئصال و الطرد وعممت بكل مدن البشرات «البوخاراس»، آخر ملجا للموريسكيين الثوار. تم إصدار قرار ملكي لطردهم وذلك في 14 من فبراير 1502.

اتبع الملوك الكاثوليكيون الوحدة الترابية بالوحدة الدينية بدء بطرد اليهود من كل مجالات الحياة بإسبانيا، كما يفرض ذلك الرأي العام لكل طبقات المجتمع متبوعين بالمورو. لقد كان هذا القرار حكيما ومعقولا نظرا للطاقة التي بذلها وأهدرها القسيس تلابيرا وثسنيروس في تنصير المدجنين لكن دون جدوى. على العكس، كان وراء أحداث البيازين الدامية نعرات المسلمين الذين تظاهروا بالتنصر. وحينما اشتد الخناق عليهم، هاجر بعضهم نحو إفريقية بينما لم يجد الباقي مناصا من اعتناق سلم وسلام المسيح. وفي رأي القسيس بورونات، يمكن أن نتكلم في هذه الفترة عن المسالة الموريسكية، إذ في 20 يوليوز سنة 1501 صدر الأمر بطرد المورو الذين لم يعتنقوا المسيحية ورفضوا أن يتنصروا وتم بموجب قرار آخر سنة 1502. يمكن للملوك أن يصدروا أوامر ويسنوا

قوانين بشأن طرد الموريسكيين ولكن لا يمكنهم أن يفعلوا ذلك من أجل إجبارهم على اعتناق الدين المسيحي، لكن ذلك لا يمنع من أن مدجنين وموريسكيين اعتنقوا المسيحية وانخرطوا في الخدمة الكنسية و برَّزوا في مجال التأليف الديني ولقبوا بالمسيحيين الجدد. قبل موت الملوك الكاثوليكيين أوصوا بالاستئصال النهائي للجنس المسلم من فوق تراب وطنهم. لقد تأخر المسؤولون قرنا كاملا من أجل تطبيقها ونتصور أنه كان يجب التعجيل بهذه الوصية مباشرة بعد استرجاع غرناطة وفتحها. على فراش موتها، سنة 1504، استحلفت الملكة دونيا إسابيل الأمير والأميرة، نظرا لإيمانهما القوي بدينهم، أن يحفظوا الرب في السر والعلن وأن يدافعوا عن الكنيسة المقدسة ويسحقوا أتباع محمد أينما حلوا وارتحلوا ويمسحوا أثرهم من فوق تراب مملكتهم. بدوره الملك الكاثوليكي قبل وفاته سنة 1516، جمع أولاده حول فراشه وهو يحتضر وقال لهم: «يجب عليكم سحق الجنس المحمدي (المسلمين)». لقد كانت القرارات كلها تصب في طرد واستئصال المسلمين إلا أن الملك دون فرناندو خلال فترة حكمه شرع في تعديل بعض البنود في القانون الذي وجه إلى محاكم التفتيش، وأعطى ليون العاشر للأمر نفسه دفعة هامة حينما طلب من المحقق العام لمحاكم التفتيش التعامل بمرونة مع المتنصرين الجدد وعدم الشدة عليهم ومعاملتهم بلطف لعل ذلك ينفع في تليين قلوبهم واستمالة أهوائهم وتطييب خاطرهم من أجل الاعتناق الصحيح للدين الكاثوليكي. ولقد توصل بلاط برشلونة سنة 1503 بأوامر الملك التي تقتضي عدم مضايقة المورو أو طردهم، وفي مونثون صدر أمر سنة 1510 بعدم تنصير المورو قسرا. دونت كل هذه الأحداث في السجل الأصلي للقصر ببلنسية، وقد ورد في البند الثاني والعشرين ما يلي: «يجب على المورو أن يعتنقوا المسيحية برضاهم ولا يكرهوا على ذلك»[1]، ولا يطردوا ولا يرغموا على الخروج من بلنسية أو المناطق التابعة لنفوذها، ويمكنهم الاختلاط بالمسيحيين والتعامل معهم. وإذا كان الملوك الكاثوليكيون في قشتالة قد انتهجوا سياسة التقتيل والتنكيل والصرامة

(1) قامت المترجمة بنقل هذه الجملة من اللاتينية، كما بدت في النص الأصلي، إلى اللغة العربية.

ضد الموريسكيين فقد انتهج تابعوهم تعاملا مخالفا خصوصا في قتلونية، مملكة بلنسية و أراغون التي كانت تعرف أكبر تجمع لهم. انتصرت من جديد سياسة التسامح على صليل السيوف والقوانين الصارمة لمحاكم التفتيش. في هذا الكتاب القيم وضع الكاتب يده على وثائق مهمة عن القرن الثامن عشر، كانت ممنوعة على الباحثين وتعتبر ذات صبغة سياسية لا يجب أن يطلع عليها العموم. وفي بلنسية اقترح بعض النبلاء أن يتم تنصير الموريسكيين بالصرامة حتى ينخرطوا في أسلاك جيش الملك. إلا أن هذا في الواقع كان من بين الأسباب التي عقدت المسألة الموريسكية ودفعت بها إلى النفق المسدود وجعلت المورو يعودون إلى مناوراتهم القديمة ويقابلون العنف بالعنف. وقد كان موقف الكنيسة في القرن السادس عشر واضحا من هذا التصرف، ومن الإجبار على التنصير.

وحينما طرد كارلوس الأول الموريسكيين من المملكة، خلف الحدث استياء داخل أوساط الأعيان والنبلاء لأنهم كانوا لهم خداما في السلم والحرب. وبدأ التساؤل عن وضع أولئك الذين تنصروا في المحاكم الدينية ببلنسية: هل هم مسيحيون حقا وإذا عادوا إلى ممارسة شعائر دينهم الإسلامي هل يعتبرون مرتدين؟ بصدد هذا الموضوع كان رأي أسقف كنيسة سيغوربي، دون خوان بواتيستا بيريث كالتالي: «لندع جانبا الأمر الديني ولنكن واقعيين، إذا أخذنا بعين الاعتبار الظروف التي دخل فيها هؤلاء المسلمون إلى المسيحية، سنكتشف أنها لم تكن طواعية ولا عن طيب خاطر ومن الطبيعي أن يعودوا إلى دينهم ودين آبائهم أو سيلجؤون إلى مساعدة القراصنة الأتراك والأفارقة، الأمر الذي دفع بالإمبراطور إلى اتخاذ مواقف وأحكام أكثر صرامة وضراوة». اشتعل فتيل محاكم التفتيش من جديد ليميز بين الملحدين، والمشعوذين السحرة المهرطقين والمرتدين. وقد أمر الإمبراطور بتشكيل لجنة مختصة في طقوس التنصير لتبتَّ في أمر هؤلاء، وفي 28 ابريل من سنة 1524 بعث مطران إشبيلية رسالة وجهها إلى كل محاكم التفتيش يطلب منها استعمال العفو والرحمة اتجاه المتنصرين الجدد. نصح البابا كليمينتي السابع في عقد البراءة المؤرخ ب 15 مايو من السنة نفسها بوضع سقف محدد من الزمن

لاعتناق المسيحية لكل من يرغب في ذلك، وفي حالة رفضهم يطردون ويتابعون ويتحلل الملك من قسم أو عهد قطعه على نفسه في هذا الموقف. في الثالث من نونبر الموالي كتب كارلوس الأول إلى محقق التفتيش رسالة يقول فيها بتطبيق قرار البابا. اجتمع مجلس الحكماء بمدريد وأصدر قرار الوثيقة الملكية يوم 4 أبريل 1525 بأن المورو الذين تم تنصيرهم بتلك الطريقة يعتبرون مسيحيين، لأنهم خلال تلك العملية لم يكونوا فاقدين للوعي ولا حمقى وتم الأمر برضاهم وهم في كامل قواهم العقلية. وقد لعب النبلاء دورا كبيرا في هذه العملية ضمن مجالس المحاكم في بلنسية: « لقد تبين أن الرأي السائد والشعبي يتعامل بمرونة وتفهم تجاه سلوك جنس المدجنين الذين يتحاشون في إسبانيا الامتثال لقوانينها ويتذرعون بالتمسك باتباع عاداتهم وممارساتهم وشعائرهم ولغتهم وطقوس أفراحهم وأحزانهم، وهم بهذا يكرهون كل ما هو مسيحي والأمر يعني بالنسبة لنا في شبه الجزيرة الإيبيرية كل ما هو إسباني». لكن الظروف أثبتت أن نعرة الموريسكيين لا تهدأ، وبعد أن تم إخماد تمرد البيازين بدأت تنبعث روائح الثورة والفتن من أماكن أخرى كانوا يتحصنون بداخلها. لم يحترموا القوانين الملكية وفر كل من رفض التنصير متجهين نحو جبال بيرنيا وهم يضمرون التمرد. من أجل احتواء هذه الثورات، تم عام 1525 تطبيق عمليات تنصير سلمية. استعان الملك بالوجهاء والنبلاء وقرر ألا يسود في الوطن إلا دين واحد ألا وهو الدين الكاثوليكي. وبما أن المورو لم يهتموا بالأمر ولا ألقوا بالا للتعليمات الملكية، بعثت الجهات العليا بالقسيس أنطونيو دي غيفارا إلى بلنسية في الثامن من أكتوبر ليستعطف ويطلب من الموريسكيين اعتناق الدين الكاثوليكي بكل تسامح ورضا ممهلا إياهم ثمانية أيام من أجل القيام بذلك، وفي حالة عدم الامتثال سيطبق الأمر الذي حمله إياه الملك. في اليوم الموالي صدر حكم عدم خروج الموريسكيين من مساكنهم وفي حالة الاعتراض يصبحون عبيدا لمن يلقي عليهم القبض بالخارج. في 16 من شهر نونبر صدر قرار ملكي آخر مكملٌ للسابق يهدد الذين لم يعتنقوا المسيحية بأنه في يوم الثامن من دجنبر سيتعرض لغضب الملك كل من رفض

الدخول في النصرانية، والذي سيقرر بنفسه تاريخ الطرد والجلاء. باتفاق مع الكنيسة المقدسة حدد تاريخ خروج موريسكيي بلنسية يوم 31 دجنبر وباقي بقاع المملكة في 31 يناير من سنة 1526. كشرت ثورة الموريسكيين عن أنيابها في بني الوزير ومن لم يحتم في جبال إسبادان ، اتجه نحو كورونيا وآخرون ذهبوا في اتجاه فرنسا انطلاقا من بثكايا. وبقي خيار العفو واردا في حق المختبئين في اسبادان وبيرنية إن هم عدلوا عن موقفهم. قد توصل المورسكيون البلنسيون والسلطة الملكية إلى اتفاق بموافقة مؤقتة من طرف محاكم التفتيش في السابع عشر من سنة 1528 (الوثيقة رقم 5 من المجموعة الدبلوماسية) على ألا تتم متابعتهم من طرف هذه المحاكم لمدة أربعين يوما ويمكنهم عدم ارتداء الملابس المسيحية لمدة عشرة سنوات وفي الفترة نفسها لا يجبرون على تكلم اللغة القشتالية أو البلنسية بل يمكنهم التحدث بالعربية و اتخاذ مقابر خاصة قرب مساجدهم التي حولت إلى كنائس، ولا تتم التفرقة بينهم وبين المسيحيين في حالات الزواج التي سبقت لذلك التاريخ، كما يمكن للكنيسة أن تحتفظ بكل الممتلكات ويعطى القليل منها للفقهاء الذين دخلوا في الدين الجديد وتنصروا، ويمكنهم أيضا حمل السلاح، والمساواة في الضريبة مع المسيحيين، وتغيير مسكنهم والتصرف بكل حرية في أحيائهم الخاصة بهم في بلنسة، شاطبة، الجزيرة، كاستليون دي لابلانا و أماكن أخرى. ويمكن القول إن الذين دافعوا عن الموريسكيين سنة 1528 استفادوا من ولائهم وخدماتهم، إلا أن الكنيسة لم تستطع إثناءهم عن ممارسة عاداتهم ولا قدرت على أن تنزع منهم وعدا بذلك. لم يدم هذا الاتفاق طويلا وذلك بسبب التعديلات التي أدخلتها إسبانيا على قوانينها وظهور التيار البروتستانتي، مما دفع بالملوك الكاثوليكيين والكاردينال ثسنيروس إلى إلغاء وضرورة مراجعة قوانين الكنسية التي أصبحت هشة، في نظرهم، خلال فترات التمرد والصراعات الداخلية. لكن ذلك لم يمنع مرة أخرى من اتخاذ تدابير إضافية تدعو للترغيب والرحمة تلافيا لكل رعب وترهيب، وقد جسد هذه الرغبة تعيين الراهب برطلومي دي لوس آنخيليس ليتصل بالموريسكيين ويعلمهم الدين الجديد، إلا أن الحل لم ينفع واستمر

تصعيدهم وأصبحت عمليات القراصنة أكثر دموية وشراسة، فطلب البابا كليمينتي السابع من الإمبراطور بألا يسمح قطعيا بتواجد المورو فوق ترابه ومملكته، إلا لمن تنصر منهم. و خلال سنة 1525، حينما كان يتم التجهيز لحملة القضاء على عمليات القراصنة في باربا روخا صدر قانون آخر يقضي بعقد دورات تكوينية وتربوية لفائدة الموريسكيين الذين اعتنقوا الدين الجديد، وتزامن ذلك مع سياسة الرعب والعنف وباءت بالفشل كل المحاولات السلمية لاستمالتهم والقوانين التي سنت لصالحهم. إلا أن مؤرخين عديدين مثل دون دييغو اثنار دي كاردونا الذي قال بأن بلنسية ازدهرت بفضل عادات وممارسات الموريسكيين، اعترفوا بأن لهم كذلك خصالا هامة لكن أوضاع المملكة في العقد الثاني من القرن السادس عشر كانت سيئة للغاية ورغم تنصرهم استمر المورو على دينهم ربما أكثر مما كانوا عليه في السابق.

وفي سنة 1551 طلبت الكنيسة من الملك تجريدهم من سلاحهم، الأمر الذي تحقق سنوات بعد ذلك، وسارت وتيرة التنصير ببطء السلحفاة دون نتائج هامة تذكر. وفي غرناطة اجتمع مجلس ترأسه مطران إشبيلية والمحقق العام لمحاكم التفتيش وأصدروا قرارا بمنعهم من مزاولة عاداتهم أو بعض مظاهر حياتهم اليومية إلا أنه تم إلغاؤها فيما بعد، حتى قبل تفعيلها. وبعد وفاة الراهب توماس فيلا نويبا سنة 1555 خلفه فرانسيسكو دي نابارا، ورغم عمله على تطبيق أوامر دون خورخي بأشتريش كان يطغى على الوضع السائد المهادنة وغضّ الطرف وعدم استعمال العنف للحفاظ على الاستقرار العام في ظل الأوضاع السائدة. كان من المفروض على عهد ملك كفيليب الثاني بقوته وصلابته المعروف بتعصبه لدينه أن يسجل التاريخ نهاية الموريسكيين وطي صفحتهم إلا أن الأمر كان غير ذلك وكلما أصدر ملك قرارا بطردهم ترك المجال لمن يليه لتطبيقه أو تعديله أو إلغائه إن اقتضت ذلك ظروف ما لفترة معينة.

كان الترقب والحيطة سيديْ الموقف وقد طالب الأب پيو الخامس بتطبيق عقاب صارم ضد الملحدين، المشعوذين والمرتدين، وطلب الملك فيليبي الثاني من أخته حاكمة

إسبانيا أن تعدل محاكم التفتيش عن العقاب لمجرد الشك وأن يعمم ذلك في كل مدن المملكة. وفي الثامن من أكتوبر 1559 خلال مراسيم حرق الملحدين والمرتدين تم إطلاع الحاضرين على ممارسات الموريسكيين لعاداتهم ومعتقداتهم بكل من غرناطة، أراغون، قتلونية، بلنسية، وأنهم يشكلون تهديدا مستمرا للوحدة الدينية للبلاد. وبموجب قرار صدر سنة 1561 تم منع تداول اللغة العربية كما تم تجهيز أربع وعشرين وحدة في برشلونة لمنع عمليات القراصنة الأفارقة، و أعطيت أوامر بتجريد الموريسكيين البلنسيين من السلاح، ودخل حيز التنفيذ في الثامن من فبراير 1563 إذ بموجبه تم نزع خمس وعشرين ألف قطعة سلاح منهم وأحرق العديد لكي يعتبر الباقي.

وقد قرر مجلس محكمة التفتيش ببلنسية أن يحضر ويستمع المتنصرون الجدد وذويهم إلى مراسيم القداس ويحفظوا الترانيم الدينية ويرددونها. وقد خصت قوانين مانثون هذا الموضوع بأن أفردت له ستة عشر فصلا كلها متعلقة بالمسألة الموريسكية. ومنذ تجريدهم من سلاحهم غادر موريسكيو غرناطة إلى مدن البشارات وتم اتخاذ قرار بتشديد الخناق عليهم خاصة أكثر من غيرهم بعد اجتماع المجلس بمدريد سنة 1566. في السادس والعشرين من شهر أبريل 1568 دق ناقوس خطر التمرد في الحمراء لينتقل في نهاية دجنبر إلى أكثر من 182 موقعا بالبشارات.

استطاع دون خوان بأشتريش أن يخمد حريق هذه الثورة لكن الموريسكيين لم يتنصروا ولم يندموا ولا عدلوا عما يفعلون. بعد محاصرتهم وإجلائهم انتشر موريسكيو غرناطة في جميع أنحاء المملكة وزرعوا معهم بذور الفتنة ومقاومة السلطة الملكية أينما حلوا وارتحلوا، ولا أدل على ذلك من أن موريسكيي بلنسية وباقي إسبانيا لازالت الثورة تحركهم والتمرد يسكنهم بصفة دائمة. عمد الملك فيليب الثاني إلى سياسة التدرج معهم رغم قناعته الراسخة بأن الحل الناجع والنهائي والجذري هو طرد جنس المورو كما تم طرد اليهود من قبلهم. وقع اتفاق الصلح سنة 1571 لصالح المورسكيين وغلبت سياسة اللين والتسامح على العنف والاستدراج لاعتناق الدين الجديد، وقد التزم الموريسكيون

بإعطاء 50 ألف نقد بلنسي من أجل المساهمة في مصاريف محاكم التفتيش، إلا أن هذا لا يعني أنهم طيبون و ذاكرتهم تنسى الإساءة بسرعة. على العكس من ذلك، استمرت حملات القراصنة وأصدروا منشورات ووثائق تنتقد الأساقفة وتشتمهم، الأمر الذي استدعى نزع السلاح منهم مرة أخرى بقرار صدر في 28 يونيو سنة 1575.

اكتشفت محاكم التفتيش مؤامرة ضدها تقودها فرنسا والأتراك مما جعلها تخفف من وتيرة التصعيد لأجل الحفاظ على استقرار المجتمع. كما أنعقد مجلس الدولة في السادس من مارس 1577 وقرر وضع البلاد في حالة تأهب للحرب واجتمع المجلس الكهنوتي لتدارس سبل تنصير الموريسكيين لكنه لم يفلح في ذلك. فتقرر ترحيل موريسكيي بلنسية نحو قشتالة لرميهم في عرض البحر وطردهم تجاهه في أقرب فرصة تتاح. اجتمع مجلس الدولة في التاسع من يونيو بشأن طردهم وتتبع تنفيذ القرار الذي تم تعديله في اجتماع آخر يوم 13 شتنبر. وبين 19 و 23 من الشهر نفسه سنة 1582 وتم التوصل إلى حل، لم يعمر، حول إيقاف حملة طردهم.

تكمن قيمة الكتاب في عرضه وثائق وملفات لم تنشر من قبل تتعلق باتفاقيات ومواثيق اعتمدتها الدولة سنة 1582. اضطر فيليبي الثاني لنقض عهود الهدنة وانتهاج مواقف الصرامة والعقاب، كانت عفوية وضرورية، خصوصا لمواجهة نفوذ القوة الخارجية التي كانت تحميهم وتشجعهم. لم تفلح معهم نداءات البطريرك الدينية ودعوتهم للدخول في الدين المسيحي السمح. سنة 1583 تم السماح من جديد لموريسكيي غرناطة بالعودة إلى مساكنهم ليتم نزع سلاحهم سنة 1584. ورغم نداءات التسامح المتكررة التي كانت تصدرها الكنيسة والسلطات لم تكن لتتراجع مشاعر الحقد و أعمال الشغب التي كان يثيرها الموريسكيون بدعم من سلطات الجزائر. وفي سنة 1585 تم الانتقام من مورو غرناطة حتى يكونوا عبرة لكل من يعتبر ويتراجع الآخرون عن نهج نفس المسلك والمنحى. برحاب مانثون تم إقامة قداس تنصير للذين استجابوا لدعوات الدين المسيحي السمح، حضره الملك فيليبي الثاني كما أقيم آخر بدعوة منه بمدريد في

17 يونيو 1587 ترأسه أسقف طليطلة، العنصر الرئيسي في محاكم التفتيش، بعدما تقرر تكوينهم وتخصيص حملات مكثفة لتلقينهم تعاليم دينهم الجديد، وذلك بتدبير وتوجيه من القسيس ريبيرا في 12 من نفس الشهر، الذي رفع مذكرة لملك إسبانيا يشرح له فيها الوضع ويطلعه على مجريات الأمور، مبتغيا بذلك وجه الرب وشفاعته. بارك الملك تلك المبادرة ودعاه لعقد القداس نفسه ببلنسية في 28 من يونيو والمواظبة على ذلك: مرتان في الأسبوع على الأقل، كما تم الاتفاق على عقد اجتماع لتدارس المستجدات وتحديد أولى جلساته بتاريخ 13 أكتوبر. لكن في الحقيقة لم يكن الأمر بالهين ولا بالممكن اليسير كما تصوره الملك وخططت له الكنيسة، لعبت الاتصالات الخارجية للموريسكيين بالجزائر دورا هاما في إفشال مهمة الكنيسة وتعسير تنفيذ برامجها تجاههم، الأمر الذي أدى إلى صدور قرار سنة 1589 يمنع ويلغي كل تعامل تجاري مع الجزائر، خصوصا بعد اكتشاف مؤامرة جديدة أدت إلى قيام تمرد في شيَا سنة 1590.

بعد مراجعة الملك لأسقف سيغوربي دون مارتين دي سالباتييرا صدر قرار طرد الموريسكيين في 30 يوليوز من سنة 1587، تبعه قرار آخر في السياق نفسه يوم 30 نونبر يدعو لاجتثاثهم ومطاردتهم بعد طردهم، كما طلب دون برناردينو دابيلا من الملك في 29 دجنبر أن يتخذ أقسى التدابير في حقهم ويلحق بهم أشد العقوبات. تعالت أصوات الشعب تنادي بتطبيق تلك القرارات وانتهج المجلس الأعلى للدولة تدابير صارمة وحاسمة في شأن الذين لم يعتنقوا المسيحية. ومن الأوجه البارزة التي اقترحت خططا وطرقا للقضاء عليهم نجد الكاتب الخاص للملك فيليبي الثاني. في 25 من شهر فبراير 1595عقد الملك مجلسا آخر لمواصلة تطبيق سياسة استئصال الموريسكيين والقضاء عليهم في بلنسية أراغون. ساهمت أحداث هذه الأخيرة في تسهيل مأمورية الملك حيث تم تشكيل لجنة أخرى في 12 مارس 1595 والتي قدمت تقريرها الأولي في 5 يناير 1600. وقد شكل ذلك الموقف الحل الحقيقي الذي كان يجب أن يتخذ ضد الموريسكيين، حسب تصريحات الباطريرك ريبيرا في الثامن من أبريل. وبين 12 شتنبر و 4 نونبر صدر قرار

بشأن تعليم المورو المتنصرين تعاليم دينهم الجديد وترسيخ مفاهيمه لمحاربة الشعوذة الراسخة لديهم من جراء ممارسة دينهم القديم. إلا أنه لا يمكننا أن نغفل موقف الملك فيليبي الثاني، الذي رغم قساوته ومواقفه كان يتحاشى إصدار قرارات الطرد والمتابعة وكان يرغب أكثر في الحل السلمي وتنصيرهم وتلقينهم مبادئ الدين المسيحي والروح الكاثوليكية، وقد طلب من البابا أن يصدر قرار عفو في حق الموريسكيين الذين لازالوا على دين محمد ولكنهم يرغبون في اعتناق الدين الجديد. كان نفسه طويلا ورغبته حثيثة لحل المسالة الموريسكية بطريقة سلمية عن طريق الدعوة المستمرة للكاثوليكية والتي لا تكل ولا تمل، وقد كتبت وثائق كثيرة ومتعددة وتعالت دعوات تشجع على طرق سلمية تجعلهم يدخلون في المسيحية عن طيب خاطر دون إكراه والتجاوز عن بعض أخطائهم. لم ينفع الترغيب و لا الترهيب مع الموريسكيين وباءت كل محاولات الملك والكنيسة بالفشل تجاه جنس المورو الجاحد المتنكر الذي لا يؤتمن. تولى الحكم فيليبي الثالث بعد وفاة والده الذي لم يجد مناصا من تصعيد وتيرة الانتقام والعنف اتجاه القضية الموريسكية والتي لم ترس على بر ولا قبلت بأي حل سلمي تم اقتراحه وانتهاجه. أسباب متعددة أدت إلى مثل هذه الحلول، التمرد الدائم للموريسكيين والمكائد التي يحيكونها ضد النظام، لم يهدأ لهم بال ولا استقروا على حال وتتالت مشاهد مشابهة لما حصل في البشارات سنة 1568. منذ حرب الاسترداد سنة 1238 وبلنسية تتخبط في نعرات وثورات يومية رغم الموقف المسالم والسلمي الذي انتهجه الفاتح الأول دون خايمي اتجاه الجنس المغلوب المهزوم. السياسة نفسها اتبعها ملوك أراغون أولا وكل ملوك إسبانيا بعدهم خلال 362 سنة دون أن يتمكنوا قط من تحقيق السلم المنشود والاندماج الفعلي والحقيقي للجنسين كما حصل بين القوط والروم. كان المانع الأول والرئيسي هو الدين والحقد الدفين الذي يفرزه أتباع محمد ويعميهم عن إتباع تعاليم الإنجيل. قرار استئصالهم دعت به ضرورة تحقيق الوحدة السياسية والدينية، الأمر الذي عمل على تفعيله الملوك الكاثوليكيون. لأزيد من ثلاثة قرون حاول الملوك و الحكام تغليب السلم

على الحرب لكن لم ينفعهم إلا السيف و القوة لتحقيق ذلك. ولد الموريسكيون داخل المجتمع المسيحي الإسباني إلا أنهم لم يفقدوا ولم ينسوا يوما قط انتماءهم لمحمد ولا حادوا عن ممارسة شعائر دينهم وعاداتهم. كان شعارهم الدائم هو المكيدة والكيد ضد السلطة الملكية وتفكيك الوحدة الوطنية ودحض التعاليم الكنسية. وكانوا يواجهون الإحسان واليد الممدودة إليهم بالخيانة والكيد والكراهية وعدم الاعتراف بالجميل. رغم محاولة عدد من الوجهاء البلنسيين حمايتهم دقت ساعة الحسم وتم اتخاذ قرار الطرد النهائي في حق الذين لم يعتنقوا النصرانية دينا وعقيدة.

ساهم هذا الكتاب القيم في ترسيخ حقيقة تاريخية، تسليط الضوء على أمجاد أسقف الأساقفة ببلنسية الذي عمل بكل تفان وإخلاص لتطبيق التعاليم الكنسية ونشرها، يتعلق الأمر بالمتعبد رجل الدين المؤمن المتواضع الفعال، خوان ريبيرا الذي حاول -بكل الطرق- تنصير الموريسكيين لكنهم برفضهم وتعنتهم جعلوا أمر طردهم قرارا لا رجعة فيه ولا يستوجب أي لوم أو عتاب أو إدانة.

رغم صدور ذلك الأمر خلال فترة حكم فيليبي الثاني لم يحصل لابنه، الذي خلفه، شرف تطبيقه وإنجازه وإشباع رغبة الشعب الاسباني المتعطش لمعاينة عملية طرد الموريسكيين وهي تتحقق تحت أنظارهم وبمباركتهم، من أجل استكمال وحدتهم الوطنية والدينية ونهج نموذج السياسة المتبعة في غرناطة.

وردت في الكتاب وقائع هامة عن السياسة الإسبانية، عن استحالة خلق مجتمع متمازج بين جنس المورو والمسيحيين من أجل حماية الشعب الإسباني والحفاظ على أمنه وسلامته.

عاشت إسبانيا ظروفا قاهرة وفي أوج مشاكلها ومتاعبها الاقتصادية والاجتماعية، كانت شرذمة من الأشرار تسير غالبية من الناس الطيبين لكن لا حول ولا قوة لهم، مجموعة تتفرد بالحكم والسلطة وتستغل الطهر الديني للملك. عادت للظهورمن

جديد في تلك الحقبة مسألة الموريسكيين وقد جرى تحديدها كأولوية مرة أخرى بتاريخ 1582. وتمت العودة إلى قرارات مجلس الدولة لسنة 1599 والذي قال في 30 من يناير بأنه سيحكم على الموريسكيين الذين تتراوح سنهم بين 15 و 60 سنة بالترحيل وحجز ممتلكاتهم، أما الذين تفوق أعمارهم الستين إلى جانب النساء سيرسلون إلى الأراضي البربرية ويحتفظ بالأطفال في الجزيرة الإيبيرية لتعليمهم وتلقينهم. الأمر نفسه اتخذه ماركيز دانية في دورة الثاني من فبراير، إلا أن الجهاز الأعلى للكنيسة لم يشاطرهم الرأي خلال مجلسهم الإقليمي التابع لنفوذ البطريرك ريبيرا.

كان الرجل يولي اهتماما أكبر لعملية تنصير المورو بطريقة إنسانية من أجل تقوية الدين المسيحي. وقد أصدر المفتش العام في 6 من غشت قرار عفو جديد في حق الموريسكيين الذين قبلوا باعتناق الدين الجديد ودخلوا في الكاثوليكية، والصفح عن أخطائهم السالفة ونشر ذلك فيما اصطلح عليه بقرار أيالة ضمن دورية 1599 من طرف أسقف بلنسية.

وفي السياق نفسه شرح صاحب الكتاب أسباب سفر الملك إلى دانية ،ودخوله بلنسية، وزواجه من دونيا مارغاريتا، ابنة دوقة أوسترية، والانطباع الذي تركه عنده المشكل الموريسكي. قرر اتخاذ جميع الحلول والتدابير التي تسهل حله قبل الاضطرار لتطبيق قرار مجلس الدولة. بعث بدوره البطريرك رسائل إلى المؤسسات الدينية التابعة لنفوذه والمتواجدة في قرى الموريسكيين تخبرهم بالزيارة الشخصية للملك لتلك المواقع. وقع أسقف بلنسية على رسالة جاء فيها: «في حالة عدم تجاوب الموريسكيين مع هذا الأمر بالشكل اللائق سنقطع دابرهم من كل تراب المملكة. لقد اعتمدنا في البداية على اللين والتسامح ولكن إذا لم تجد تلك الطرق والسبل سنعمد إلى الشدة والغلظة».

ومن أجل تدارس كل تلك الأوضاع اجتمع مجلس الدولة في 19 من فبراير 1600، وقد لخص الكاردينال غيفارا كل تلك الآراء فيما يلي:

« لقد انصرمت سنة التسامح والتساهل نظرا للظروف المعلن عنها وشملت جميع

مراحل الحياة وأشطر السن واشترط ألا يتم تنصير الأطفال إلى أن يبلغوا السن القانوني الذي يسمح لهم بذلك». لكن الأب خوسي غريسويلو كان يعارضه الرأي ويرى بضرورة تنصير الجميع كانوا أطفالا أو شبابا أو كهولا. وقد كتب دون خوان بويل دي أريناس رسالة إلى الملك يذكر فيها بالخطر الذي يترصده جراء مسألة الموريسكيين، ويقول بتطبيق رأي الراهب إسكودير الذي كان يوصي برميهم جماعة بالبحر في سفن كثيرة الثقوب، وبدون مجاذف، ولا دفات ولا أشرعة، وتوجيههم نحو إفريقية. الأمر نفسه دعا إليه في لشبونة سنة 1582. كل هذه العوامل أدت بحكومة الملك فيليبي الثالث إلى تنظيم رحلة إلى سنة 1601 بقيادة خوان أدريس دوريا لكن دون تحقيق أي ثمار تذكر ولا بلوغ الأهداف المتوخاة منها. ساهم كل هذا في الشعور بالخيبة اتجاه كل التدابير المتخذة وضرورة إيجاد حل جذري للمشكلة، كما جاء على لسان بينابنتي، نائب ملك بلنسية في 12 نونبر من السنة نفسها وأضاف تدابير أخرى تمكن من استتباب السلم والطمأنينة والتسيير الإداري الجيد والعادل. ولن يتأتى ذلك إلا بالقضاء النهائي على جنس المورو الذي ما فتئ يهدد شعبنا وبلدنا.

وجه البطريرك ريبيرا نهاية سنة 1601 تقريرا إلى فيليبي الثالث حول الموريسكيين وحول مقاومتهم وعدم استغلالهم لفرصة العفو عنهم باعتناقهم للدين الجديد وبتماديهم في ممارسة طقوسهم ومعتقداتهم، وأنهى خطابه يطلب منه تدابير مناسبة للوضع. أمر الملك البطريرك أن يوضح رأيه ويستفيض في تحليله وتعليقة، وفي سنة 1602 صدر قرار الطرد من إسبانيا. إلا أنه أمر أن يتم قبل ذلك اختبار سلوكهم وترصد كل ممارسة المروق الديني والشعوذة والردة لديهم، وفي حالة ثبوتها يطرد كل من يمارسها نهائيا من تراب الوطن في أجل قصير وعاجل. وقد ورد في وثيقة أصدرها ووجهها مطران بلنسية في 9 من فبراير 1602 إلى الملك، لازالت محفوظة لحد الآن في المجمع الكنسي، ما يلي: «لقد فتح الملك عينيه بوضوح لمشاهدة عما يجري حوله طالبا من الله أن يلهمه هذه المرة أيضا الصواب كي يطبق الحل المناسب اتجاه هذا الجنس ويطردهم دون رجعة». فأجاب الملك:

«لقد أعطينا أوامرنا لتطبيق ذلك بالنسبة لمملكة بلنسية فيما يتعلق بالشأن الموريسكي».

توفي الكونت بينافنتي و خلفه دون خوان دي ريبيرا الذي أدى القسم في منصبه الجديد يوم 3 دجنبر 1602، والذي جمع بين مهمتين: بدأ في استتباب أمن وسلام المملكة، إلا أنه واجهته مقاومة النبلاء والأسياد ولم يتمكن من تنفيذ مخططه مما اضطره للاستقالة في يناير 1604. وعمل البلاط في بلنسية في تلك الآونة على اتباع طرق مرنة وسلمية من أجل القيام وإتمام عملية التنصير إلا أنه سنة 1605 قاد الموريسكيون مؤامرة بدعم من فرنسا وأنجلترا؛ الأمر الذي استدعى اتخاذ تدابير أكثر صرامة طبقها المركيز فلياميثار يوم 23 يونيو من العام نفسه.

بالإضافة إلى إعفاء المجلس، كان بجانب الملك مجموعة تتكون من ثلاثة أفراد: الأب المجاهر بالإيمان ورئيس أديرة ليون و الكونت ميراندا، وكان يستشيرهم في الشؤون الهامة والخطيرة للبلاد. كانوا يسمون بمجموعة الثلاثة، اجتمعوا في 29 أكتوبر من أجل مراجعة الأوامر الصادرة بشأن الموريسكيين وإثبات عدم نجاعة تلك المتعلقة بمبدإ التسامح معهم، الصادرة منذ 4 دجنبر 1581 و ألح الملقن المجاهر بالأيمان على تطبيق قرار البطريرك الذي يدعو إلى طردهم وتهجيرهم. وفي 30 من يناير 1608 صدر عن مجلس الدولة تذكير بقرار طردهم النهائي من إسبانيا، ومن أجل اكتساب دعم وثقة النبلاء والأسياد تمت الدعوة إلى تمكينهم من ممتلكات عبيدهم وخدمهم الموريسكيين الذين تم وسيتم طردهم لكي لا يعترضوا على الأمر. ولم ينثنوا عن ممارساتهم ولا طأطؤوا رؤسهم، بل تمادوا في تعنتهم وعنادهم. وقبل تفعيل قرار طردهم دعا الملك فيليبي الثالث أساقفة بلنسية للاطلاع عن وضعهم الحالي فوجدوا أنهم لم يتركوا عقيدتهم لا من بعيد ولا من قريب، الأمر الذي أدى به إلى إصدار أوامره النهائية بطرد الموريسكيين. إلا أن طرد وترحيل أطفالهم لاقى متاعب ومصاعب كثيرة وموقفا خاصا من طرف دوق ليرما. بقي الملك في سيغوبيا من 2 يوليوز إلى 3 شتنبر وكان قلقا جدا اتجاه مآل الرضع والأطفال الموريسكيين وقد عبر عن ذلك في رسالة بتاريخ 4 غشت لم

تنشر لحد الآن، وكلف البابا بإيجاد الحل الناجع لذلك المشكل.

فرح المسيحيون بانتصارعقيدتهم ودينهم وطرد الموريسكيين من فوق ترابهم، بينما واجه هذا الأمر بالرفض بعض النبلاء والأسياد ولم يقبلوا بتخليهم عن خدمهم وتابعيهم. أول حملة طرد وترحيل للموريسكيين كانت في 28 شتنبر 1609 وتعقبتها بعد ذلك الرحلات والحملات المعروفة. لقد حصلت بعض التجاوزات خلال عمليات الطرد هذه إلا أنه سرعان ما كان يتم قمعها وعقاب أصحابها، لكن لم يكن ممكنا تفاديها لتفاقم اليأس وسيطرته على الموريسكيين الذين قاموا ورفضوا الإبحار وأسلحتهم في أيديهم. ويتجلى من خلال الاتفاق المبرم بين مركيز كراثينا والبطريرك ريبيرا بأن موريسكيي البركة قد حاولوا التمرد وشجعوا على ذلك أيضا جيرانهم في الخميسي، واجتمع آخرون في وادي أيورة يوم 20 أكتوبر وقرروا تقوية صفوفهم والتحصن في مويلا دي كورطيس وتوجهوا مصحوبين بنسائهم و قطعان مواشيهم وأمتعتهم وألبستهم، وبقيادة بابلييو أوبيكار، حاملين معهم أيضا 6 صناديق ولواءيين . انضم المسيحيون إلى ساكنة دي لا مويلا ووَلوا الفقيه عامر ملكا عليهم وآخر بعده، واجهته القوات الملكية وقضت عليه. تزامن وهذه الثورة تمرد آخر في أغواي ووادي القصر حيث جرت أحداث دامية ومواجهات شرسة وقاتلة، استطاع إخمادها والسيطرة عليها أغوستين ميخيليا، الذي هنأه الملك وعينه قائدا عاما للرهبانية العسكرية. استسلم المتمردون في كورطيس دي لا مويلا يوم 20 نونبر؛ تم القبض على قائدهم داخل كهف وترحيل ثلاث مائة منهم على متن باخرة غراو دي بلنسية. أصدر ماركيز كراثينا قرارين اثنين في 5 دجنبر، أحدهم ألا يتم اتخاذ الموريسكيين عبيدا وتمكينهم من حمل السلاح في رحلتهم والآخر يقضي بمنع بيعهم، خصوصا الذين اختبؤوا في الجبال بعد صدور قرار طردهم.

رحل وطرد أزيد من 150 ألف موريسكيا من مملكة بلنسية وقد حملوا معهم نقودهم وأمتعتهم تاركين وراءهم فراغا ومساكن وحقولا شاغرة، لم يعرف البارونات والسادة النبلاء سبيلا لاستخدامها ورفع مردوديتها. كان لعملية طردهم هذه نتائج سلبية

على النسيج الاقتصادي بالمملكة .واصلت محاكم التفتيش عملها بحثا بين الأسياد والبارونات عن اختباء محتمل لبعض الموريسكيين، وقبلوا اتفاق 1614 الذي يحدد الخسائر المادية التي تكبدها الأسياد النبلاء من جراء ترحيل خدمهم وتابعيهم في بلد أو منطقة فلاحية مثل بلنسية.

خلف ترحيل 150 ألف موريسكي كارثة اقتصادية وطبيعية، رغم أن بعضهم مكث فيها مختبئا، محميا أو يدعي التنصير في الظاهر. قامت السلطات العمومية ببحثها وتتبعها من أجل استتباب السلم في المجتمع الإسباني المسيحي. إلا أن مصير الرضع والأطفال الموريسكيين كان يقض مضجع البطريرك والمؤسسة الملكية وطرحت مشاكل ومتاعب مجهول سببها لحد الآن ولم تلق حلا آنذاك. تم سرق بعضهم، إذ جمع حوالي 900 أو 1000 وبقي عدد قليل منهم تحت حماية ماركيزة كاراثينا، زوجة نائب الملك. تأسف رجال الدين على مصير هؤلاء الأبرياء إلا أنه أمام التعليمات الصارمة لمجلس الدولة وجد البطريرك نفسه مجبرا على إصدار قرار آخر في الثالث من غشت 1610، يقول بإعادة عملية التنصير من أجل التأكد من الصحة الروحية لأولئك الأشقياء.

تم إحصاء الأطفال الموريسكيين إذ وجد في نواحي بلنسية حوالي ألفي طفل، وأربعمائة في المملكة نفسها وثمانمائة وثمانية عشر في العاصمة ، إلا أن دون خوان دي ريبيرا مات في 6 يناير 1611 دون أن يتمكن من تحقيق أحد أحلامه الملحة ورغبته المتقدة.

تدهورت الأوضاع الاقتصادية في المملكة وشحت العملة السليمة وتدوولت أخرى مزورة حتى بين المسيحين القدامى أنفسهم. وفي 6 من يناير 1610 تم ترحيل السكان من البرانس لأجل إعادة إعمار القرى الفارغة في بلنسية. طالب بعض البارونات في المملكة بجلب المدجنين لتعويض الموريسكيين المطرودين إلى وادي ريكوطي؛ إلا أنه رغم كل التدابير استمر تواجد الموريسكيين، فتم فرض ضريبية عليهم أحياء أو أمواتا حتى بعد موت البطريرك. وبهذا تم القضاء النهائي على التمرد الموريسكي في مملكة بلنسية. المصير نفسه عرفه موريسكيو أندلسيا، مرسية و وادي أرناتشوس على يد دون خوان دي مندوثا،

ماركيز سان خرمان، الذي نشر قرار الطرد في 12 يناير 1610 .تم إبعاد أزيد من عشرين ألف موريسكي مع استثناء النساء المتزوجات من المسيحيين القدامى الذين بلغ عددهم في المدينة وحدها حوالي 978 بيتا. طرد القشتاليون كذلك في 28 من دجنبر 1609، كما عرف المصير نفسه موريسكييو أراغون بقيادة مركيز أيطونا الذي بعث بخطاب في 29 مايو 1610 دعا فيه إلى إخراجهم ومرافقتهم إلى الموانئ لترحيلهم؛ حيث طرد أزيد من خمسمائة ألف من قشتالة وحدها. وعرفت سنوات 1612 – 1614 – 1615 – 1623 – 1625 أحداثا دامية تعرض لها الموريسكييون الذين بقوا في المملكة على دين محمد، يمارسون عقائدهم وشعائرهم الإسلامية. وفي أوستريا انتهج السلوك نفسه ضدهم حيث أصدر دي بوربون مرسوما ملكيا في شتنبر 1712 يأمر بالطرد الكامل للموريسكيين. وأكد على أن بذورهم ونواتهم قد زرعت الإسلام إلى الأبد وتعمقت جذورها في بلادنا، إلا أن بعض المؤرخين المستعربين قللوا من التأثير الموريسكي في إسبانيا وقالوا بأنهم تركوا في الواقع فقط بصمات في حضارة المدجنين، ولولا المسيحيون والسكان الأصليون ماكانوا ليطوروا الحضارة والثقافة العربية في إسبانيا، لأن واقعهم كمغلوبين كان يحتم عليهم مزاولة المهن التي عزف عنها المسيحييون القدامى الذين رحلوا إلى إيطاليا وفنلندا وأمريكا ودول المحيط، بحثا عن المجد والشهرة. لذا وجد الموريسكييون أنفسهم مجبرين على مزاولة الزراعة والفلاحة وبعض الفنون والتجارة. خلال نهاية حكم الملك كارلوس الخامس استمرت احتجاجات النبلاء والأسياد والبارونات ضد الوضع الاقتصادي والخسارة التي تسببها ترحيل الموريسكيين إلى غاية 1645، حيث صدر مقطع منها في الجريدة الرسمية للأكاديمية الملكية للتاريخ.

وحول وضع الغزاة الذين دخلوا إلى إسبانيا تم طرح التساؤل الآتي: ماذا حمل معهم إلى إسبانيا هؤلاء القادمون من إفريقية؟ وماذا رجعوا به من جديد وما هو التأثير الذي مارسوه هناك؟ بالتأكيد لم يحملوا معهم شيئا لأن الازدهار الذي عرف في مملكتنا إنما كان باحتكاك مع شعبنا الذي طور وتفاعل مع القادمين الجدد وعاداتهم، وفي الكتاب نفسه

تعرض المؤرخ لمعطى مهم هو «الخميادو» وعدم شهرته لضعف أصحابه.

استمر الصراع بين الخير والشر، بين الحقيقة والكذب، والهداية والضلال وتعرضت الكنيسة للنقد والتأييد، وقد ساهم وعمل دون خوان ريبيرا على توحيد روح إسبانيا المسيحية وقدم كل خدماته للكنيسة من أجل تحقيق ذلك. رغم كل المحاولات شكل المورو دائما مصدر قلق وعدم استقرار بالنسبة لبلادنا وحتى سنة 1492 تعالت الأصوات بطردهم والقضاء عليهم. إلا أن المسؤولين الإسبان كانوا يحاولون دائما تحقيق الوحدة الدينية والترابية للبلاد خلال فترات ملك فيليبي الثاني وكارلوس الخامس، وحينما تولى خوان دي ريبيرا مسؤولية تسيير الكنيسة في مملكة بلنسية كان قد صدر قرار سابق يقضي بطرد الموريسكيين، أما هو فلم يفعل إلا على تطبيقه. وقد أحق الحق كاتب المؤلف الذي بين أيدينا وأظهر الدور الفاعل والإيجابي الذي عملت على تحقيقه مؤسستنا الدينية وكنيستنا المقدسة في إسبانيا وبلنسية والتي يجب أن تكون في الحقيقة انطلاقة ازدهار في تاريخنا.

في بداية تقديمي لهذا الكتاب، حمدت الرب الذي يسر لي الاحتكاك المباشر بالأكاديمية الملكية للتاريخ منذ 1884 حيث تمكنت من الاطلاع المباشر بدوري على الكنوز التي خلفها الموريسكيون الإسبان والتي مازالت محفوظة في أرشيف شانت مانكش، الأرشيف العام المركزي في القلعة (ألكالا) والأرشيف الوطني وقد ساهمت، في تنوير فكري وروحي، القرارات الصادرة عن المجلس الأعلى للدولة بخصوص محاكم التفتيش و المحققين. ونعترف بأن المؤرخ، مؤلف هذا الكتاب العظيم والفخم الزاخر بالوثائق والحقائق التاريخية الفريدة، قد ترك بين أيدينا وأيدي القارئ فصولا هامة عن تاريخ بلادنا من صفحات بلنسية ينجلي فيها بوضوح الدور الريادي الذي لعبته الكنيسة والذي كان فيه الأثر البالغ والهام لمطران وبطريرك بلنسية دون خوان دي ريبيرا.

مانويل دانبيلا



الفصل الأول

اكتساح العرب لتراب إسبانيا / بيلايو / مفهوم الاسترداد / المستعربون والمدجنون / طباع الغزاة / استحالة التمازج بين الغالب والمغلوب / العرب والمسيحيون إلى غاية القرن العاشر.



تجد الأرواح والأجساد والأشخاص والشعوب نفسها محكومة، خاضعة لقوانين ثابتة وهذا يؤكد لنا أن الثبوت في قانون وناموس الخلق أمر لا وجود له ولا يستطيع ذلك إلا خالق الكون ورب العباد. كل العلوم تؤمن بالتغيير النسبي أو المطلق الكلي. المؤرخ بدوره يجد نفسه أمام تحديات اقتفاء أثر الأمم والشعوب والأشخاص في سكونهم وحركتهم لسرد وقائعهم، قد يعايش بعضها وقد يلتقط بالسماع رواية بعض فصولها إلى أن يصل المشهد إلى مثواه الأخير: القارئ. ترى، كم كان المؤرخ صادقا ودقيقا فيما حكاه، رواه ووصفه؟ لا يمكن الجزم بأي جواب وتبقى العناية الربانية هي التي تحيط بكل هذا وتحميه من التلف والاندثار. لا يسلم أي مؤرخ من هذا الأمر، وقد عمل مؤرخونا في إسبانيا على احترام الدقة والمنهج العلمي في وصف وتحليل الأحداث ما استطاعوا بموضوعية في حالات كثيرة وذاتية في بعضها أو القليل منها. وما يمكننا تأكيده والوقوف عنده هو أنه إذا كان مؤرخو بلدنا قد أغفلوا أو جهلوا أمورا لم يدققوا فيها، عن مرحلة ما قبل التاريخ بالنسبة لمسار إسبانيا، فما يمكننا تأكيده هو أن فترة تواجد العرب بإسبانيا قد حضي باهتمام بالغ ودقة لا متناهية وسرد محكم لوقائع تلك الحقبة التاريخية من حياة البلاد.

في السنة السبعين من مرحلتنا التاريخية أراد الإمبراطور أوطون أن يلحق بمدينة بتيكا أقاليم موريتانية أخرى أو بلدان بحوزة المورو بينما أغدق على افريقية امتيازات هامة. رغم كل ذلك لم تكن العلاقة جيدة بين القطرين. وفي سنة 166 انطلقت شرارة الحملة التي كلفت البلاد ثمانية قرون من الحروب الطاحنة الساحقة. خرج أبناء هؤلاء الأقوام واجتازوا مضيق جبل طارق. دخلوا بالنار والحديد وسفكوا الدماء مرورا بجبال مالقة ومنخفضات استجة وقرمونة . استولوا على القلع واحتلوا المساكن والقصور، ولولا قوة قبطان شجاع باسل كان في سلك خدمة الإمبراطورين ماركو أوريليو ولوسيو فيرو،

لهلكت البلاد. تبعهم إلى غاية القضاء عليهم وذبح الباقين فوق تراب اشبيلية[1].

حينما توفي غيطشة لم تكن إسبانيا على أحسن حال. نصب أصغر أبنائه وهو طريح الفراش مما أثار حفيظة الكبار والأعيان. كما أن الناس لم يعودوا يطيقون وجود أبناء إسرائيل، بدورها الكنيسة لم تكن راضية عن ذلك الوضع. ارتفعت أصوات الرأي العام بطرد اليهود لا لأسباب دينية كما كان عليه الوضع في القرن الخامس عشر ولكن لأسباب سياسية[2].

تعالت أصوات رفض الملك الصبي ومعارضته، عمت الفوضى وكثر اللغط، الأمر الذي اعتبر مؤشرا قويا على سقوط ملكهم وانتهائهم. انتقاما للوضع ومن سلطة أتباع غيطشة، تسلم دون ردريغو مقاليد السلطة سنة 710 وفر أتباع وأنصار الملك القاصر المرفوض إلى صحراء اليمن. في الفترة نفسها كان الكونت دون خوليان حاكما على سبتة التي كانت تقاوم الهجوم ضدها وتحفظ حدودها بفضل الإمدادات التي كانت تصلها من إسبانيا: «لكن الكونت خوليان بعد رصد كل حساباته فكر في بيع ما سيسلب منه لاحقا لا محالة، فعمد إلى تسليم القلع والقصور للعرب مقابل امتيازات لصالحه ولأفراد عائلته وذويه. قرر تنفيذ مخططاته فبعث إلى موسى يعرض عليه اقتراحه. طلب طارق من الكونت ابنتيه كرهينتين وأن يعلن تمرده وانقلابه على سيده الطبيعي. قبل العرض، وفي خريف 709 عبر المضيق ليعود لاحقا لاجتياز البحر محملا بالغنائم والأسرى»[3].

كان أبناء غيطشة يعرفون جشع الكونت خوليان ورغبته في الاستيلاء على الحكم بعد موت أبيهم. وفي سنة 710 عاود العرب كرة العبور إلى إسبانيا مستغلين خيانة الكونت دون خوليان. في 28 من يوليوز سنة 711 دخلوها فاتحين ليمكثوا بها ثمانية

(1) فرنانديث غيرا، سقوط واضمحلال الإمبراطورية القوطية الإسبانية، مدريد، طبع الكتاب مانويل هرنانديث، 1883، ص. 63.

(2) دون إدواردو سآبيدرا، دراسة حول الغزو العربي لإسبانيا. مدريد، ط. إلبرغريسو إديتوريال، 1892، الفصل الثاني. كتب الأب سان بيدرو دي ألقنطرة إلى مايانس حول الأمر نفسه، رسائل قشتالية، مج.56.

(3) فرنانديث غيرا، سبق ذكره، ص. 72.

قرون متتالية[1] . «حينما علم موسى بانتصارات طارق قاد قواته ليرسو بالخزيرات في أواخر يونيو وبداية يوليوز سنة 712. كان دون خوليان دليلهم ومرشدهم وصديقهم في السراء والضراء ونصحهم عند الشدائد ومواقف العقاب[2]. سهل لهم الانتصار تلو الآخر في مدن متعددة مثل قرمونة، إشبيلية ولاردة. قادوا كذلك حملة شرسة في تالابيرا دي لا رينا وذبحوا إخوة غيطشة ومسؤولين في البلاط موالين لدون ردريغو. لم ينس الكونت الأحداث الدامية التي حصلت في سرقسطة ولا أحداث الحرائق والتخريب التي طالت المدن الأخرى، وتقتيل الشيوخ والأطفال وهم ينزعون من صدور وأثداء أمهاتهم[3]. وأمام اكتساح كتائب طارق وموسى وتراجع قوات ردريغو إلى حدود ليون، صوب المسلمون الضربة القاضية للجيوش القوطية التي تراجعت إلى الحدود البحرية وجبال أشتريش. اقتفى العدو أثر جنوده إلى غاية حدود نافارا[4] حيث اختفى مع الباقين من قواده، بينما عزز طارق قواته على امتداد ميناء الخزيرات لتقوية جبهته البحرية تحسبا لأي هجوم. توجهه ردريغو نحو الأراضي الأندلسة التي كانت تشكل في الواقع خطرا كبيرا عليه[5] نظرا لأعداد المسلمين الهائلة المرابطة بها. دخل قرطبة حيث اتصلت به مجموعة مشبوهة من الرجال، قد تكون تابعة لسيسبيرتو، أخ غيطشة، حسب بعض المؤرخين، وفضل الإقامة بربض الشقندة. تفاجأ الفاتح فطلب الدعم من موسى الذي أمده ب 5000 رجلا فوصل عدد أفراد جيشه إلى 25 ألف مقاتلا ومكثوا في الخزيرات متربصين بقوات ردريغو. انطلقت شرارة المواجهات بين المعسكرين في 19 يوليوز 711. حينما شعر ردريغو بخطورة المواجهة في تلك المنطقة حاول جرهم إلى سهول برباتي الجافة، حيث يمكنه توجيه خيالته القوطية التي كانت تتفوق على فرقة المورو.

(1) نفسه.

(2) نفسه.

(3) فرنانديث غيرا، سبق ذكره.

(4) دون لوكاس دي توي، الكتاب الثالث، ص. 70.

(5) إدواردو سآبيدرا، سبق ذكره، ص. 65.

وحينما حمي وطيس المعركة انتصرت الخيانة على الثورة[1].

كان على ميمنة الجيش القوطي الفارس سيسبيرتو الذين كان يؤكد وسط جيشه شرعية دون ردريغو، الأمر الذي أثار عليه غضب الملك وجعل أتباعه يتسللون ليلا لمعسكر الأعداء[2]. في الآن نفسه عمل القائد القوطي على ملء الفراغ برجال من الجيش الاحتياطي[3] الذين تكبدوا بدورهم خسائر بسبب الخونة الفارين[4]. وجد بين القتلى جثة سيسبيرتو بينما انخفض جيش طارق إلى تسعة آلاف مقاتل فقط[5]. استغل هذا الأخير تشتت جيش القوط وخلافهم وفرار الجناح الأيمن منه فحاول التنسيق مع الجنود الخارجين عن طاعتهم[6]، وبذلك تمكن من العبور عبر حوض برباطي إلى وادي تمبول[7]. في يوم مشهود انتصر جيش المورو على القوطي بموقعة اتفق المؤرخون على تسميتها بـ «هزيمة وادي القصر»[8] واختبأ ردريغو، فارا من ساحة المعركة، ليصل إلى مدن بعيدة حيث سكن بمنازلها وقصورها رفقة من بقي معه[9].

استطاع الغزاة الجدد أن يرفعوا هلالهم عاليا بدل الصليب، تقريبا في مجمل تراب شبه الجزيرة الأيبيرية وكافؤوا أبناء غيطشة الثلاثة بمنحهم ألف فدان لكل واحد منهم. عبر دون خوليان إلى الضفة الأخرى محملا بالمال والامتيازات متمتعا بسمعة الفارس المغوار الذي آزر المورو في فتوحاتهم وأطلق عليه لقب «ملك» وعلى حفيده اسم عبد الله، أول

(1) نفسه، ص. 66.

(2) سبق ذكره، اعتمد سآبيدرا على مؤلفين تعرضوا لوصف أحداث تلك المواجهة.

(3) ابن القوطية، تاريخ الأندلس، ج.2، الفصل 3.

(4) سلينسي، عدد 16.

(5) مجهول قرطبة و يلقبه المسيحيون القدامى إسيدرو باثينسي، عدد 34 .

(6) فتح الأندلس، ص. 7 من النص العربي.

(7) المقري، نفح الطيب، ج. 1، ص. 179.

(8) فرنانديث غيرا، سبق ذكره، ص. 49.

(9) سبق ذكره، ص. 69، دون خوسي ودون مانويل أليفير إي هورتادو: معركة بيخير أو بركة خاندا»، غرناطة، 1869.

مارق عن دين أجداده من تلك الأسرة وترك المسيحية وتبع شريعة محمد الخاطئة[1].

وفي أواسط سنة 718 فقدت إسبانيا استقلالها وخضعت لنفوذ المورو الذين حطموا الصليب في طليطلة. في بداية حملتهم لم يتصور قط طارق وموسى ولا حلما بالسيطرة على الشعب الإسباني، إلا أن أسباب الغدر والخيانة فتحت أمامهما أبواب حكم إسبانيا والإسبان، لكن بفضل عناية الرب عاد الصليب لينتصب من جديد فوق الكنائس والمداخل ولو بعد عدة قرون من الهزيمة والاستسلام. فرت مجموعة من الجيش القوطي واختبأت بجبال أشتريش بعدما علموا بمصير ردريغو ومآله[2].

وصلت موسى أوامر الخليفة الوليد بعدما طرقت أسماعه أصداء الشكايات جراء معاملته السيئة لباقي الجنود والأتباع وطلب منه مده بحصيلة الأحداث والوقائع. ظن موسى أن الأمر سيوافق رأي الخليفة، إلا أنه حينما صعد المنبر في المسجد الكبير وشرع في سرد انجازاته وانتصاراته أحس بشرارة التهديد تنطلق صوبه و أجبر على إيداع الكنوز والذخائر التي غنمها[3]. توجه موسى إلى دمشق موليا ابنه عبد العزيز شؤون الحكم في إسبانيا، إلا أن زواجه من إيخيلونا، أرملة ردريغو الملقبة بأم عاصم، جعل السخط يعم محيطه ويتهمونه بتفضيل المسيحيين، خصوصا إذا حاولت تلك السيدة المسكينة التوسط لأحد أبناء دينها وجلدتها، الذين سقطوا بدورهم مثلها في الأسر[4].

عرفت سياسة التسامح نهايتها بموت عبد العزيز وخلفه الحر الذي قاد حملة شعواء ضد المسيحيين وضد بيلايو. جرت معركة كابادونجا أو مغارة دونجا بين المورو والمسيحيين بقيادة بيلايو، انتصر فيها هذا الأخير واعتبرها المؤرخون بذرة أو نواة لحروب الاسترداد.

(1) نفسه، ص. 80.

(2) سآبيردا، سبق ذكره، ص. 138.

(3) نفسه، ص. 124.

(4) نفسه، ص. 134.

هزمت جيوش المسلمين، قتل علقمة وانتصر بيلايو بمساعدة شرذمة من جيوشه عاهدوه على نصرة الدين والوطن ويرجع بعض المؤرخين نصره، بالإضافة إلى الظروف الطبيعية والجغرافية، إلى يقينه واعتماده على الرب وحمله لصورة العذراء القديسة إلى المغارة[1].

استطاعت شرذمة قليلة من الرجال بقيادة بيلايو أن تحيي من داخل مغارة وسط الجبال ملكا كان على وشك الاندثار إلى الأبد. كانت تجري في عروقه دماء إسبانية وقوطية، ذلك الجنس الذي هزم أكثر من مائة شعب وأخضع كذلك الإسبان وأفريقيا وغيرهم. استطاع أن يبذر نواة دولة عظيمة سيكون لها شأن بعد ذلك: إسبانيا. كان في وضعه مثل ذلك الجذع الهائل الذي قصمته حديدة الحطاب، لكن قلبه النابض ونبتته بقيت حية بداخله فاستطاعت أن تنمو من جديد وتترعرع لتصبح شجرة عميقة الجذور، باسقة الأغصان ووافرة الظل تنعش العالم[2].

لم يستطع العرب القضاء على مملكته، كانت تحميها قوة خارقة ومعجزة من السماء، كان بيلايو بدوره يحتاج إلى وقت وأمن وأمان ليتمكن من تنظيم وتقوية مملكته الصغيرة من جديد[3].

عزز ذلك الانتصار الثقة في نفوس أتباع بيلايو الذين بدؤوا ينزلون تدريجيا من الجبال ويستقرون في السهول لحرثها وتوفير القوت الضروري لضمان عيش المقاتلين من أجل الدفاع عن مبادئ مقدسة. رفعوا أديرة ليتوسلوا فيها إلى القديسة ويطلبوا عونها في المعارك. شيدوا المساكن والقلع ليخبئوا الأسلحة التي سيمدون بها لاحقا المجاهدين والمقاتلين ضد المورو. خلال 19 سنة استطاع بيلايو أن يرسي ركائز مملكته الفتية ويرفع الصليب فوق عاصمته فيلا كانغاس حيث دفنت لاحقا رفاته ورفاة زوجته غاوديوسا

---

(1) سبق ذكره، ج. 3، ص. 67.

(2) ص. 66-67.

(3) سبق ذكره، ج 3، ص. 69.

بكنيسة سانتا إيولاليا على بعد فرسخ من مغارة دونجا[1]. دافع أتباعه عن مملكتهم ضد المورو وحصنوها ضد خصومهم وضد المدجنين لاحقا، الذين كانت أوضاعهم متشابهة إلى حد ما[2].

لا توجد في الحقيقة وثائق كثيرة عن الحروب بين المسلمين والمسيحيين إلا أن التي تناولتها بالوصف والدراسة تؤكد على أن المورو اتبعوا الطريقة نفسها لفتح بلدان المشرق[3] في إسبانيا[4]. استغرقت عملية دخولها وإخضاع مناطقها فترات مختلفة تبعا لدرجة المقاومة التي كان يلقاها جيش المورو. لو تبع طارق وموسى نهج عبد العزيز بن موسى بن نصير في «تدمر» ما كانا ليلاقيا مشاكسة ومعارضة قوية من طرف المسيحيين. لقد قال لهم ابن موسى بن نصير ما يلي: «باسم الإله نعدكم أننا لن نجبر أحدا من النبلاء أو القواد على التخلي عن منصبه وامتيازه، لن نجرده من ممتلكاته ونفوذه. لن نقتل أو نأسر أحدا، لن نفرق بينكم وبين أبنائكم وزوجاتكم، لن نضايق أحدا في دينه ومعتقداته، لن نحرق أو نهدم كنيسة ولن نجتث نبتة زرع حرثها عبد من عبيدكم، ونتعهد بتطبيق هذا القانون والتشريع في المدن السبعة التابعة لنفوذنا: أريولة، فلنتيلا، ألكانتي، مولا، بيغاسترو، أنايا و لورقة شريطة ألا تتم حماية الفارين من معسكرنا أو خصومنا، ولا يتم إخفاء المعلومات الرائجة في معسكر أعدائنا والتي تضر بمصلحتنا»[5].

تعتبر هذه الوثيقة والتي سنها موسى كذلك من أقدم الوثائق التي نتوفر عليها فيما يتعلق بالمستعربين بإسبانيا في تلك الفترة. وقد تمتع المسيحيون ببعض الامتيازات والخصوصيات في مالقة، وادي آش، إلبيرة، قلمرية، ألفوينس، طليطلة، سرقسطة،

(1) استغربنا من موقف السيد سيركوت في الجزء الأول، ص. 17 من كتابه : «المورو، المدجنون والموريسكسون» حينما تكلم عن بيلايو وعن سلطته المطلقة.

(2) دون فرناندو إي غنثاليث، سبق ذكره، ص. 13، موديستو لفوينتي، سبق ذكره، ص. 70 وما يليها.

(3) بلادوري، حملات ضد بلادنا.

(4) دوزي، تاريخ المسلمين بإسبانيا ، ج. 2، ص. 38 و ما يليها.

(5) صدرت تلك الوثيقة في شهر أبريل من سنة 713 موافق رجب 94 للهجرة. ذكره سآبيدرا، ص. 28 – 30، سبق ذكره.

برشلونة، بلنسية ودانية. إلا أن ذلك لم يكن انتهاجا لسياسة تسامح وإنما اضطرار حتى لا تتحرك سيوف المسيحيين ضدهم تمردا. الأمر نفسه تبعته الجيوش المسيحية خلال عملية الاسترداد مع المهزومين الملقبين بالمدجنين. كان التعامل بالمثل والتغاضي عن المهزوم، من الأمور التي أدت إلى ظهور المستعربين والمدجنين بإسبانيا.

استمر هذا النوع من التعامل خلال ثمانية قرون، إلا أن بعض الأمراء والخلفاء استغلوا نفوذهم خصوصا في قرطبة. وكانوا يضطهدون الآخر مرة باسم فتاوى الفقهاء و أخرى بحجة ضرورة القضاء على العامة وإخمادهم ومرات باسم مقاومة الكنيسة وفكرها[1].

لقد أعطى المستعربون الأسبان نموذجا من الثبات والدفاع عن عقيدتهم ودينهم وثقافتهم وعلومهم. كان سلوكهم مختلفا تماما عن مواقف المدجنين. والناقد المتتبع لظهور وتتبع مراحل حياة هذين الجنسين المختلفين يقتنع باستحالة تمازج الاسبان والعرب سواء كانوا غالبين أو مغلوبين، مستعربين أو متمسحين بمحض إرادتهم.

كان البعد الديني قائما عند الطرفين في حروبهما، فتوحاتها واستردادهما، ولا أظن أننا نحتاج إلى إثبات سماحة الدين المسيحي والخير الذي يحمله للبشرية. إنه بمثابة طريق الحقيقة والخلاص. لقد تدخلت الكنيسة لتثبته بطرق متعددة، اضطرت في بعض الأحيان لاستعمال القوة ولكن من أجل إرساء الحقيقة والعدل. يعتبر المسيح رحمة لتابعيه ولأعدائه، إنه سبيل الخلاص في مسار الحياة وطريق الحقيقة التي يمكن نقضها ومعارضتها.

تعتبر في الواقع شتيمة مقارنة العقيدة السمحة لأتباع بيلايو بعبارات وآيات القرآن. عبر كل مراحل تواجدهم في إسبانيا أثبت الواقع عدم انصهارهم واندماجهم مع الأسبان، الأمر الذي جعل حظهم يعرف مسارا مختلفا وتحولا جذريا ليس في القرن الخامس عشر فحسب، ولكن كذلك خلال الثلث الأول من القرن السابع عشر. كان

(1) الوضع الاجتماعي والسياسي للمدجنين في قشتالة، ص. 19 .

الانتقام بندا خاصا ومقدسا لدى العرب، يستقونه من تعاليم القرآن والسنة ويتوارثونه أبا عن جد[1]. يظنون أنهم وحدهم يعبدون الرب ويؤمنون به وما دونهم كافر ومارق لعدم اتباعهم دين محمد. يعتبر القرآن كتابا مليئا بالتناقضات، بالظلاميات، باللامعقول، واللامنطق، يقدسه العرب ويتبعون تعاليمه بطريقة عمياء[2].

لو اعتمد مشرع مكة على تأليف كتاب يجعل من أتباعه شعبا محاربا، غازيا ومقاتلا لنجح في مهمته، لكن أن يبلغ درجة الإيمان والقداسة والعناية الربانية والنصر الإلهي، إنما يتجلى تحقيقه في تعاليم الدين المسيحي لا غير. كان يمكن لجيوش المعسكرين أن تتعايش لكن أن تتمازج فهذا أمر مستحيل قطعا وكلية. شعب يقسم باستئصال المسيحيين[3] من فوق تراب ترتفع فيه تراتيل القديسة العذراء، والدة المسيح، لا يمكن أن تنتظر منه ذلك، وقد برهن الرب على دعمه بنصر أتباع بيلايو وهزيمة جيش علقمة. عرفت عملية التمازج لحظات حاسمة وعرفت شأوا كبيرا على عهد عبد العزيز بن موسى، أيوب، الحر، يحيى، الهيثم ومحمد ابن عبد الله، الذين تسامحوا مع المستعربين ومكنوهم من امتيازات خصوصا عندما استقل الحكم في إسبانيا عن خلافة دمشق، إلا أن مذبحة المسيحيين في قرطبة عادت لتؤجج من جديد الصراع بين الجنسين. رد المسيحيون بالحديد والنار على كراهية وانتقام المسلمين.

وفي سنة 737 عبر الأمير عقبة المضيق موفدا من طرف والي إفريقية لإخماد ثورات البربر. مات بيلايو فعين النبلاء المسيحيون ابنه فابيلا خلفا له لمتابعة مسار والده، إلا أن مملكته كانت محاصرة في مساحة ضيقة. لكن في حقيقة الأمر، اتخذ الأمراء والحكام

---

(1) لفوينتي، سبق ذكره، ج. 3، ص. 257.

(2) نفسه، ص. 239.

(3) هذه فقرة من وثيقة تقول بالحرف: « لا يعترف ولا يؤمن المسلمون إلا بأركان الإسلام الخمسة، 1- شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، 2- إقامة الصلاة، 3- إيتاء الزكاة، 4- صوم رمضان، 5- الجهاد ضد النصارى وقتالهم حيثما وجدوا. (ملاحظة المترجمة، أخطأ المؤلف أو أراد أن يتحامل على المسلمين لأن الركن الخامس للإسلام هو حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا وليس قتل المسيحيين الذي يدعيه كاتب الوثيقة).، أرشيف شانت مانكش، مجلس محاكم التفتيش، الكتاب 938، ص. 88.

المسلمون جزءا كبيرا من حرسهم من المسيحيين وقد وصل بعضهم إلى منصب كاتب دولة ومراتب أخرى سامية[1]. لم يكن ذلك ليروق إلى تطلعات وطموح المسيحيين الإسبان لذا لم يستسلموا ولم يطرحوا أسلحتهم رغم محاصرتهم في جبال أشتريش. بعد وفاة ابنه تولى الحكم بعده صهره ألفونسو، ابن بيدرو دوق كلابرياس، كان الرجل المناسب لتلك الفترة بالذات، فارسا مغوارا تتوفر فيه جميع الصفات والشروط لقيادة أتباعه ومملكته نحو النصر. عرف ألفونسو الأول، ملك أشتريش مصاعب متعددة بسبب المسلمين، إلى جانب عقبات أخرى واجهته من ناحية البرانس حيث يوجد كارلوس مارطيل الذي كان يعاديه.

مكث عقبة في إفريقية خوفا من تمرد جديد ضد حكمه، وفي إسبانيا اشتدت المواجهات بين بربر غاليسيا والأمير، الذين انتقلوا بعد ذلك نحو طليطلة وقرطبة حيث حاصروا عبد الملك. طلب هذا الأخير الإمدادات من دمشق و استطاع إخماد ثورة المتمردين البربر في إسبانيا. استفاد بدوره ألفونسو الأول من هذا التمرد والثورات والانقلابات بين المسلمين العرب والبربر في إسبانيا. اقتسم قيادة الجيش مع أخيه فرويلا واجتازا الجبال التي تشطر أشتريش وغاليسيا[2]، وبعد وصوله منتصرا إلى حدود لوغو، تجرأ على الاجتياز رافعا الصليب إلى أرينسي وتووي في براغا، فلافيا، فيسيو، وشافيس كذلك في لديسما، شلمنقة، زمورة، شانت مانكش، آبيلا، سيغوبيا، سيبولفيدا، أوسما، سلدانيا، أوقا، وفي مناطق أخرى مثل كنتابريا، بشكاية إلى غاية حدود أراغون. استطاعت مملكة أشتريش أن تتحكم في ربع تراب شبه الجزيرة الأيبيرية كما تمكن ألفونسو من أن يبسط نفوذه ويبني قلعا، معابد وكنائس ونال بذلك عن جدارة لقب ألفونسو الكاثوليكي. توفي في كانغاس سنة 756 ودفنت رفاته بسانتا ماريا كوفادونغا، حيث يرقد مؤسس المملكة بيلايو. واصلت إسبانيا المسلمة حروبها العاتية إلا أن الخلافات

(1) فرنانديث إي غنثاليث، سبق ذكره، ص. 17.

(2) لفوينتي، سبق ذكره، ج. 3، ص. 80.

بين المسلمين عرقلت مهمة يوسف ابن عبد الرحمان الفهري، وبعد طول انتظار تدخل خليفة دمشق لإخماد المواجهات الضارية بين العباسيين والأمويين، استقل هؤلاء بالخلافة في إسبانيا وعينوا الخليفة الأول عبد الرحمان. في الفترة نفسها عرف المعسكر المسيحي بدوره انقساما ومواجهات، وذلك بسبب رغبة كل منطقة في قيادة الحرب ضد المسلمين بمبادرتها ولحسابها الخاص. لم يجد ملوك أشتريش بدا من التعامل بمرونة مع بعض الأقاليم، خصوصا الباسك وكنتابريا التي كانت تسعى للاستقلال إما طوعا أو كراهية[1]. استطاع فرويلا، خلف ألفونسو أن يخمد تمرد الباسكيين الذين كانوا يطالبون باستقلالهم، إلا أنه قتل على يد ذويه انتقاما من قمعه وصرامته، ونصبوا بعده ابن أخيه أوريليو. حسب بعض المؤرخين، كان ينحدر من أصول عربية نتيجة زواج مختلط. حينما توفي كانغاس سنة 774 خلفة سيليو، صهر ألفونسو الكاثوليكي. لم يخلف الملك الجديد والذين تلوه مثل ماوريغاتو وبرمودو بصمات تذكر في تاريخ مملكتهم، خصوصا فيما يتعلق بعملية الاسترداد. لم يعرفوا استغلال الصراع بين ابن العربي و القاسم بن يوسف ضد عبد الرحمان ولا استفادوا من هزيمة شارلمان في تحديه لخليفة قرطبة، ولم يستطيعوا إيقافه وهو يشيد المسجد الأعظم ولا اقتفوا أثره وهو يتجه نحو بامبلونة وينتصر كما فعل في خيرونة وطرطوشة.

توفي عبد الرحمان وخلفه ابنه هشام، بينما استمر أتباع بيلايو متقوقعين في أشتريش إلى أن دخلها أتباع محمد باسم الجهاد المقدس. لكن شاءت العناية الإلهية أن ينتصر ألفونسو الثاني وبقي جثمان القائد المسلم يوسف ممدا في يوم الحداد. تقوت مملكة أشتريش من جديد، توفي هشام وتولى مقاليد الحكم بعده ابنه الحكم، الذي نازعه على ذلك أبناء أعمامه سليمان وعبد الله و طلبوا دعم وتدخل لوديفيكو يو. استغل هذه المرة ألفونسو الثاني تلك الأوضاع وقام بخطوة جريئة، فمنح ثمرة مجهوده لكارلو ماغنو مقابل صداقته وتعاونه ودعمه لابنه مويس دي أكيتانيا. لكن النبلاء خافوا من تلك العلاقة

(1) سبق ذكره، ج. 3، ص. 119.

الوطيدة بين الرجلين، وتصوروا أنها نذير شؤم على استقلالهم فرموا بالملك في سجن بدير أبيلاميكا. لم يتحرك الحكم لنصرة زيد في برشلونة وفي طليطلة، ميريدا وقرطبة، تواصلت النزاعات المتقدة بين المسلمين، أزهقت أرواح كثيرة وسالت أودية من الدماء. لم يستطع الحكم السيطرة في غاليسيا على المسيحيين الذين استولوا على مناطق تمتد من مينيو إلى نهر دويره[1].

استطاع ألفونسو الثاني أن يرجع الأمن إلى مملكته بعد ثلاث سنوات من الصراع، سار على خطى بيلايو، وفي مرحلة السلم كان يعمد إلى تقوية الدين المسيحي والحكم داخل المملكة[2]. خلال فترته تم اكتشاف ضريح القديس سانتياغو وتم تغيير المحج من إيريا إلى كم وستيلا (شنت ياقب) كما أرسى القانون القوطي في قصوره مثلما كان عليه الأمر في طليطلة قبل دخول المسلمين. وعمد كذلك إلى تدريس الكتب القوطية ونشر قوانين قديمة وعاد بالكنيسة إلى صرامتها وسابق مجدها، وكان ذلك بمثابة إعادة ترتيب أوراق الملك والمجتمع بالنسبة للشعب المسيحي»[3].

سبقت الإشارة إلى الهزيمة النكراء التي تكبدتها جيوش الحكم في غاليسيا وقد حاول ابنه عبد الرحمان الثاني محوها خلال حملاته المتكررة ضد ألفونسو، لكن هذا الأخير لم يخب في تحقيق انتصار تلو الآخر إلى أن لقي ربه.

خلال فترة حكمه انتفض أحد القواد العرب يدعى محمد بن عبد الجبار في ميريدة ضد الحكم المركزي بقرطبة. وخوفا من مطاردة الأمير لجأ طالبا الحماية في غاليسيا حيث استقبله الملك ألفونسو بحفاوة بالغة وأكرم مثواه ومكنه من الإقامة في القصور والمساكن الفاخرة قرب لوغو، حيث أقام مع ذويه في رغد عيش ونعيم مثوى مطمئن البال مرتاح

---

(1) نفسه، ج. 3، ص. 202.
(2) لفوينتي، سبق ذكره، ص. 215.
(3) نفسه، ص. 219.

الخاطر[1]. لكن المسلم الخائن الذي سبق أن طعن أميره في ظهره لم يتوان عن تكرار السلوك نفسه مع الملك ألفونسو الذي أحسن وفادته وآواه وحماه، فعمد بمعونة شرذمة من الرجال إلى الهجوم خلسة على قصر سانتا كريستينا، على بعد فرسخين من تلك المدينة[2]. وبقفزة الفارس الشاب هرع الملك الشيخ المحنك إلى قلعة الخائن ليلقنه درسا في الوفاء فاسترجع القصر وأخرجه منه وأجبره على منازلته ومقارعته مقارعة الأبطال، فهزمه وقتله وثلة كبيرة من أتباعه[3].

كان ذلك آخر حدث شارك فيه المغوار ألفونسو قبل موته. ختم سجل حياته بالانتصار ضد مسلم خائن سنة 842 بعدما مكث على عرش ملك دام لحوالي 52 سنة ثم ووري جثمانه التراب بكنيسة القديسة مريم.

لو لم تكن شجاعة ومواقف هذا الملك الصارمة ضد جشع عبد الرحمان الثاني لتقلصت المملكة إلى ما كانت عليه في عهد بيلايو. ومن المواقف المخزية لهذا الحاكم المسلم التقتيل الجماعي المتوحش الذي مارسه ضد المستعربين، إذ أفنى ما يزيد عن مائتي قسيس ورجل دين في دير كاردانية و أماكن أخرى مشابهة[4].

بعد ألفونسو الثاني أصبح عرش أشتريش محطة إرث يتداول عليه أفراد العائلة من آباء وأبناء وأحفاد وليس كما تنص عليه القوانين القوطية المزدوجة.

وحينما تولى زمام الملك راميرو توالت المؤامرات على عرشه وحاول سلبه إياه الدوق نيبوثيانو الذي استعان بالملك أبييدو. وخلال معركة نشبت بينهم، فر رجاله من حوله، فسقط أسيرا وسملت عيناه ومكث في سجنه المؤبد إلى أن مات[5]. استطاع أن يتغلب

(1) حصل هذا الأمر سنة 733.

(2) وقع ذلك سنة 738.

(3) لفوينتي، سبق ذكره، ج. 3، ص. 219– 220.

(4) دون أنطونيو كبانيليس، تاريخ إسبانيا، ج. 1، ص. 393.

(5) تاريخ إسبانيا، ج. 1، ص. 395.

على مكائد وخصوم آخرين انتصر عليهم كذلك وفروا إلى لوشانة وأندلسيا[1]. وقد قال عنه المؤرخون بأنه رجل ذكي وشجاع استطاع أن يحمي مملكته الصغيرة من جبروت عبد الرحمان الثاني وأتباعه الذين فتحوا أراضي ومدن شاسعة[2]. انتهى ملك راميرو سنة 850 بينما كان قد أشرك ابنه أردونيو في تدبيره ليكون سندا وملاذا وسلوى للمسيحيين الفارين من بطش عبد الرحمان الثاني.

مات الخليفة المتوحش القاسي سنة 852 وخلفه ابنه محمد الأول الذي نهج سياسة أبيه في قرطبة ضد المسيحيين حيث لاقى حتفه مئات المستعربين، نذكر من بينهم الوجه المرموق والشهيد إيولوخيو من طليطلة.

انطلقت من جديد حملة شرسة ضد المسيحيين الأسبان، لم يعهدوها من قبل، رغم الأحداث التي جرت في فترة ملك الحكم ولا خيانات المسلمين المتكررة. لقد تدفقت أودية دماء جارية جراء تقتيلهم، جعلت كل تعايش مستحيلا استحالة قطعية بين المورو والمسيحيين[3]. انتشرت كذلك ممارسات بين الجند تثبط من عزيمتهم و تشوه عقيدتهم وتدعوهم للمعتقدات الإسلامية.

وجد أردونيو نفسه مضطرا لمواجهة المارقين عن دين أجدادهم وردهم لجادة الصواب، حاول إخماد الانتفاضة التي هبت في ألابا ومواجهة جيوش موسى بن زياد إلى غاية سحقها في كلابيخو وقد كبدها خسائر فادحة في الأرواح بلغ عددها 10 آلاف مسلما، كما حظي أردونيو بشرف غرز نبلة في جسم موسى الذي فر جريحا إلى معسكر أبنائه. واصل الملك الاسباني حملته تلك واستولى على البلدة وأوقف زحف الغزاة وهجومهم، كما أشهر سلاحه في وجه زيد بن القاسم، والي لافرونتيرا، دخل كذلك

(1) لفوينتي، سبق ذكره، ج. 3، 291.

(2) نفسه، ص. 292.

(3) منينديث إي بيلايو، تاريخ....الإسبان، ج. 3، ص. 309.

إلى سلامانكا وقورية[1]. دك أسوارها وعبر نهر الدويره لنجدة المسيحيين في إفريقية وغاليسيا وبدوره لم يتأخر الخليفة محمد الأول في الدعوة للجهاد المقدس ضد المسيحيين.

وفي سنة 866 عاد المنذر إلى قرطبة بعدما هزم الثائر ابن حفصون ومات في أبييدو الملك المغوار، أول حاكم يحمل هذا الاسم في سجل ملوك أشتريش.

في اليوم الموالي تولى ابنه ألفونسو الثالث الحكم لكن مؤامرة الكونت فرويلا جعلته يفر ويلجأ إلى قشتالة ينشد حماية حاكم غاليسيا. «وحينما علم المورو بتولي شاب غرٍّ سدة الحكم هاجموه لإزاحته لكن ملك ليون هرع لنجدته وهزم المسلمين شر هزيمة وكبدهم خسائر كبرى»[2].

أدت الخلافات بين ألفونسو الثالث وإخوته إلى تسلل المنذر داخل حظيرة المملكة المقدسة المسيحية، إلا أنه أدى غاليا ثمن هجومه، فقد مجموعة النبلاء المسلمين المحيطين به في قرطبة و اشبيلية وميريدة وطليطلة. منذ ذلك الحين أطلق على ألفونسو لقب الرجل العظيم، كما عزز ذلك مواقف تاريخية شاهدة.

أجبرت الهزائم المتكررة لجيوش المسلمين في لوسيتانيا وثمورة أبا خالد على طلب الهدنة وكسب ود ألفونسو الذي ضمنها لهم لمدة ثلاث سنين. عمد هذا الأخير كذلك إلى تشييد سلسلة قصور على امتداد مملكة أشتريش لحمايتها وتحصينها ضد الدخلاء، ثم قسم العرش بعد ذلك بين أبنائه بعدما افشل محاولات عدة للمسلمين وللمعارضين المنقلبين ضده. وبهذا يتم تقسيم مملكة أشتريش إذ تولى غارسيا السيطرة على أراضي ليون التي أصبحت منذ ذلك الحين عاصمة لتلك المملكة وتسمى باسمها. توجه اردونيو نحو غاليسيا ودخل جزء من لوسيتانيا الذي كان في حوزة المسيحيين، بقي فريويلا في أشتريش وتوجه غنثالو: رجل الدين الزاهد إلى أبييدو بينما بقي بدون مسؤولية الابن

(1) يرجع لفوينتي في كتابه **تاريخ إسبانيا**، هذا الأمر إلى ألفونسو الثالث، ج. 3، ص. 321، وكذلك إلى أردونيو، ص. 311.

(2) كابانيليس، سبق ذكره، ص. 405.

الأصغر راميرو لحداثة سنه لكنه حصل لاحقا على لقب شرفي كملك[1].

احتفظ الملك فقط بمدينة ثمورة، لكن قبل أن يستقر بها زار ضريح سانتياغو، وفي طريق عودته طلب من ابنه غارسيا أن يمكنه من قتال أعداء الدين والمسيح قبل موته. مكنه ابنه من رغبته، كما جاء على لسان بعض المؤرخين، وهزم ابن حفصون في طليطلة، الذي ما فتئ يهاجم الحدود المسيحية انطلاقا من منابع نهر طاخو. اخترق ألفونسو الثالث أراضي المورو كفارس شاب مغوار، أحرق مساكنهم وأسر رجالهم، عاد منتصرا إلى قلعته بثمورة حيث اشتد عليه المرض ووافته المنية في 19 من دجنبر سنة 910 بعدما قضى 44 سنة متربعا على عرش الحكم[2].

حينما تولى عبد الرحمان الثالث الحكم أرسى في قرطبة ما يسمى بالخلافة كما كان عليه الأمر في بغداد، ولقب بأمير المؤمنين، وضربت السكة باسمه، واستعمل لقبه لتهدئة الأوضاع في إسبانيا المسلمة. عمد في البداية إلى إخضاع غالب بن حفصون بعد مواجهات عاتية في طليطلة وجبال كوينكا. قاد بنفسه حملة في اتجاه شواطئ ليبانتي، توقف في بلنسية وأخضع التابعين لابن حفصون، استعاد سرقسطة مزهوا بانتصاراته وتوجه لكسر سلاح المسيحيين.

استطاع غارسيا، ملك ليون في مواجهاته مع العرب تحقيق بعض الانتصارات، وبعد وفاته ضم أخوه أردونيو المملكة لحظيرة نفوذه فصارت بذلك مملكة ليون-غاليسيا وأثبت هذا الملك أنه جدير بأن ينحدر من سلالة ألفونسو العظيم.

استشاط خليفة المسلمين غضبا من انتصارات الملك أردونيو فجهز جيشه لمواجهته، لكن هذا الأخير هزم المسلمين شر هزيمة حيث تناثرت، حسب شهادة القسيس سامبيرو، جثث المسلمين بين أشجار الغابات والخنادق من شنت إستيبن إلى غاية أنيشة،

(1) تم ذلك بهبة، حسب لفوينتي، من راميرو نفسه إلى كنيسة أوبييدو سنة 926.

(2) لفوينتي، سبق ذكره، ص. 353.

ولم تنج إلا شرذمة قليلة حملت خبر الهزيمة إلى الخليفة[1]. حصل هذا سنة 912، وعامان بعد ذلك تكبد المسيحيون ضربة قصمت ظهورهم وجهها لهم المسلمون في موقعة بالخونكيرا. وبعد وفاة أردونيو الثاني تولى الحكم أخوه فرويلا الثاني سنة 921 وجمع تحت سيطرته مملكة ليون-غاليسيا وأشتريش، لكن فترة حكمه كانت قصيرة. في الفترة نفسها تولى مقاليد الحكم في نافارا غارسيا سانشيس بن سانشو غارسيا أباركا وظهرت في عهده المؤسسة المشهورة بـ«قضاة قشتالة». خلف الابن الأكبر لأردونيو فرويلا الثاني وكان يدعى ألفونسو الرابع، لكنه لم يكن مقاتلا كسابقيه بل كان رجل دين أكبر منه رجل دولة.

واصل عبد الرحمان الثالث حملته ليذلل المصاعب ويوحد مملكة إسبانيا المسلمة. استطاع أن يسحق من جديد تمرد سييرا إلبيرا وجيان ثم دخل غرناطة حيث استسلم الثوار الباقون دون قائد، ووجه اهتمامه اتجاه جعفر وريث ابن حفصون، وهاجمه في طليطلة سنة 927 بينما فر جعفر ليعلن خضوعه لملك ليون.

استطاع راميرو الثاني أن يوحد المسحيين تحت رايته ويخرج لقتال المسلمين. توجه شرقا وقد تقلد رئاسة الجيش ليون راميرو، اجتاز سلسلة جبال واد الرماد، أي الحد الفاصل بين المجالين الإسلامي والمسيحي من ناحية قشتالة ودخل مجريط، حطم أسوارها، سحق ساكنتها وبقر شعبها بالسيوف، الأمر نفسه حصل في تلابيرا ثم عاد محملا إلى عاصمته بالغنائم والسبايا و الأسرى دون أن يستطيع والي طليطلة تحريك الساكن[2]. هلع عبد الرحمان وقائده المظفر من الانتصارات التي حققتها الجيوش المسيحية وقررا عقابهم وتلقينهم درسا قاسيا.

أعلنوا الجهاد المقدس وكونوا جيشا بلغ عدد رجاله مائة ألف مقاتلا مسلما، رابضا في شاطئ طورميس. علم عبد الرحمان بخروج راميرو لمواجهته والتقى الجيشان في شانت

(1) سبق ذكره، ص. 409.

(2) لفوينتي، سبق ذكره، ص. 423-424.

مانكش حيث جرت وقائع المعركة. وكاد المسيحيون أن يحققوا النصر لولا تدخل القائد المسلم أبي يحيى الذي ذهل أمام أودية دماء رجالهم. انسحبت جيوش الخليفة إلى ثمورة لاستجماع قوتهم حيث توصلوا بإمدادات بلغت 20 ألف فارسا وعاود الكرة ثانية لمواجهة المسيحيين في 5 من شهر غشت سنة 939 ليستطيعوا رفع هلاهم من جديد[1]. سنة 941 كانت أسوار سنت إشتيبن دي غوميث شاهدة على مواجهة أخرى حيث هلك عدد كبير من جنود كلا المعسكرين، وفي سنة 944 قال لنا الكونت:» أرسل الملك ردمر رسله إلى الخليفة عبد الرحمان يطلب منه هدنة وأقرها معهم وبعث وزيره أحمد بن سعيد مرافقا لرسل غاليسيا ليسلم على الملك ردمر باسمه. استمرت هذه الهدنة مدة خمس سنوات عاش فيها الشعبان في وئام وسلم وسلام»[2]. كانت تلك إذا نتائج موقعة سانت مانكش بين المسلمين والمسيحيين بعد هزيمة «بركة القصر الأبيض»[3]. ساهمت تلك الهدنة في إعمار عدة قرى ومدن مسيحية، لكن الملك راميرو اجتاز نهر دويرة من جديد ليجبر مورو طلبيرة على قبول مواجهات ضارية حيث فقدوا المئات من رجالهم وسقط في الأسر منهم أزيد من سبعة ألف رجلا. مات الملك سنة 950 وخلفه ابنه أردونيو الثالث الذي خرج لمواجهة المورو في لشبونة. غاب عن ساحة الحياة ومات كل من راميرو الثالث، ملك ليون، كونت قشتالة فرنان غنثاليث، غارسيا سانشيس دي نافارا، سانشو الغوردو والحكم الثاني أيضا، آخر خلفاء بني أمية بالأندلس وشاءت العناية الإلهية أن تنتصر الحقيقة المسيحية على تعاليم رسول العرب هذه المرة أيضا[4].

خلال حكم هشام الثاني تراجعت القوات المسيحية وتكبدت خسائر فادحة، أقسم المنصور الجبار المتوحش باستئصال حتى اسم المسيح من فوق تراب إسبانيا. ارتفع

(1) سميت هذه المعركة بخندق ثمورة وحصلت 14 يوما بعد شانت مانكش. حسب المؤرخين المسيحيين، بلغ عدد القتلى المسلمين ما بين 40 ألفا و 50 ألف رجلا، الأمر الذي يوضح جليا مصيبة وخسارة عبد الرحمان في جيشه.

(2) تاريخ الحكم العربي في إسبانيا، فصل، 82، ج. 4، مدريد، 1820.

(3) سبق ذكره، ص. 437.

(4) سبق ذكره، ص. 250.

النواح في كل الأرجاء المسيحية التي حطمت كيانها الهزائم الواحدة تلو الأخرى. استفاد المنصور من هذه الظروف وغزا التراب المسيحي الذي كانت تشطره الصراعات والنزاعات و النعرات بين مختلف الأسر الحاكمة. في رأي قديسة ليون:» نال المسيحيون جزاءهم جراء ذنوبهم، إذ قتلهم المسلمون وأسروا من بقي منهم على قيد الحياة. استباحوا المدن، حطموا القلاع والقصور والمساكن، تساقطت رؤوس الساكنة كأوراق الخريف، وتناثرت الجثث والأشلاء في الأزقة مثل أكوام القمامة ولم تخل قرية أو مدينة من غزو المسلمين وهجومهم[1]. لقد استطاع حاجب هشام الثاني التغلب على كل محاولات تمرد وهجوم المسيحيين الذين خسروا كثيرا من مبادئهم وحسهم الوطني والديني. استطاعت جيوش المنصور أن تتوغل بعيدا في الأراضي المسيحية، رغم أن جيوش الاسبان لم تتراجع ولا جبنت أمام زحف المورو. اتحدت جيوش ألفونسو الخامس وحمل اللواء ميندو غنثاليث، وشكلت فيالق أشتريش، ليون وغاليسيا مجموعة واحدة، ورابطت في قلعة النسور متربصة لحركة المسلمين. انطلقت المعركة بينهم فانقض عليهم المسيحيون كالذئاب الضارية بين قرع الطبول ومزامير الحرب. جرح المنصور لكنه واصل القتال في ساحة الوغى إلى أن تم سحبه إلى خيمته مثخنا و متألما مما ألحقه المسيحيون بفيالقه من أذى. توفي بمدينة سالم في سن تناهز 63 عاما بعدما حقق 25 انتصارا ضد المسيحيين. لم يرث ابنه عبد الملك بطولته وفروسيته مما شجع المسيحيين على النهوض مجددا وتحقيق انتصارات أخرى، وبقي المؤرخون حيارى أمام موقف الملوك المسيحيين إذ كان بإمكانهم بعد موت عبد الملك سنة 1008 طرد المسلمين من إسبانيا نهائيا لكنهم لم يفعلوا ذلك

لجأ الأمراء العرب للملوك المسيحيين الذين كانوا يحاولون الفرار بجلدهم والحفاظ على إمارتهم مهما كلف الثمن مقابل القضاء على إخوانهم المعارضين والطامعين في حكمهم[2].

تقوت المملكة المسيحية حينما انفرطت حبات عقد الخلافة الإسلامية بقرطبة.

(1) لفوينتي، سبق ذكره، ج. 3، ص. 277-278.

(2) نفسه، ص. 125.

استطاعت أن ترسي دعائمها خلال فترة ملوك الطوائف بفضل عمليات الملك فرناندو الأول الذي وصل فاتحا إلى غاية بلنسية وانتصارات راميرو الأول، ملك أراغون، كما استطاع ألفونسو الرابع أن يرسي بصفة نهائية دعائم مملكة مسيحية قوية ويستأصل المسلمين من فوق ترابها لولا الظهور المفاجئ للمرابطين خلال موقعة الزلاقة، الذين أزهقوا الآلاف من أرواح المسيحيين وأضعفوا الحكم المسيحي.

يرجع الفضل مرة أخرى للعناية الإلهية لنصرة الجنود المسيحيين الذين بقيت في أعماقهم روح الدفاع عن الحق والوطن واستطاعوا مواجهة المنصور ويوسف بقيادة ألفونسو السادس والسيد القمبيطور.

الفصل الثاني

سياسة ألفونسو السادس / الفارس السيد القمبيطور / انتصارات ألفونسو السابع ضد الأفارقة / سياسته من أجل عملية الاسترداد/ سياسة الملوك الإسبان لدعم إستراتيجية الاسترداد إلى غاية أواسط القرن الثالث عشر.



نسعى، من خلال هذا الفصل، إلى التركيز على أهم فصول سياسة ألفونسو السادس اتجاه المورو والمدجنين الإسبان. لبس قلنسوة الرهبان في دير ساهاغون فارا من أخيه شنجول متجها نحو قصر المأمون لينزل ضيفا على ملك المورو بطليطلة. حينما قتل أخوه سنة 1072 بأيدي بيليدو دولفوس اختاره النبلاء ليتربع على عرش قشتالة، ليون وغاليسيا. تحولت الصداقة بين الرجلين إلى علاقة تعاون قوية ومتينة اتفقا على احترامها وتطبيق بنودها واتحادهما لمواجهة أعدائهما.

في بورغش، داخل رحاب كنيسة سانتا غاديا، أدى ألفونسو القسم، حيث واجهه الفارس القشتالي دون لذريق دياث دي بيبار. تسبب ذلك الحدث، حسب رأي المؤرخين، في العداوة والحرب التي شنها الملك على بطل برغش وقشتالة. لم يتوان ألفونسو في مساعدة ملك طليطلة خلال حربه ضد ملوك قرطبة وإشبيلية، وحدا جيشهما وسقطت المدينتان في أيدي المأمون. توفي هذا الأخير سنة 1076 وعاد ألفونسو إلى مجال ملكه . الإتفاق نفسه أبرمه مع هشام القادر إبن ملك طليطلة الهالك لكنه نقضه على عهد الأخ الأصغر يحيى القادر بالله. تنكر لأتباعه ولدينه واتفق مع المسيحيين ضد ذويه مما دفعهم إلى طلب حماية ألفونسو، الذي استنجد به في الآن نفسه ملك إشبيلية المعتمد بن عباد ضد حاكم طليطلة . سقطت هذه الأخيرة في يده سنة 1085 ورجعت إلى عهدها كما كانت في زمن القوط ، يعلو جدرانها الصليب فأصبحت بذلك عاصمة الملك المسيحي في إسبانيا. وخلال عملية الاسترداد اعتمد الملك ألفومسو على القسيس برناردو رئيس دير ساهاغون إلى أن قطع علاقته بملك المورو في إشبيلية . استنجد هذا الأخير بالمرابطين في إفريقية، ذلك الجنس البربري الذي أبلى في معركة الزلاقة وأضعف مملكة ألفونسو. هل كان هذا الأمر عقابا من السماء جزاء تسامحه مع ملك المورو بطليطلة ؟ خلال إقامته بها تأقلم ألفونسو السادس مع عادات وتقاليد العرب، الأمر الذي ساعده على العيش خلال منفاه . لقد كان متقنا للغة العربية وأدب المسلمين، الأمر الذي جعل منه عنصرا مهما في

أوساط المورو. كان وفيا لسياسة أبيه التوسعية وعمد إلى إفقار المورو قبل مهاجمتهم . كان يتمتع بحس ديبلوماسي رفيع ويتقن «المناورة والتشاور»[1] . ارتكزت سياسة ألفونسو السادس في البداية على التحكم مباشرة في تراب المسلمين ليتركهم لاحقا يتصارعون فيما بينهم، الأمر نفسه حصل مع يحيى بن المأمون. استفاد كذلك من وضع النزاع والحروب والصراعات بين ملوك الطوائف، كما أشار إلى ذلك المؤرخ فيرنانديث إي غونثاليث[2]، ولم يقهره إلا الاتفاق الذي تم بين المرابطين وهؤلاء الملوك المورو في إسبانيا وشكلوا عليه خطرا. سنة 1092 استولى المرابطون على بلنسية بعد موت القادر الذي كان يعيش في ظل حماية المسيحيين، ولولا بطولة السيد القامبيطورما كان لملك قشتالة أن يصمد أمامهم. استطاع ألفونسو أن يؤمن حدود مملكته ويرسي بها الاستقرار والأمان إلى درجة أنه خلال أواخر أيام حكمه كانت تستطيع العجوز والطفل أن يسيرا دون الخوف على نفسهما أو مالهما[3].

ما لايمكننا شرحه هو موقف ألفونسو السادس اتجاه المستعربين إذا قارنا معاملته وحمايته الرسمية للمدجنين، رغم أنه في الحقيقة، حسب رأي ساندوبال في حديثه عن سنة 1106 ، كان تحت حكم بيدروليون مستعربون يتظاهرون فقط بالمسيحية وكانوا أسوأ من المورو أنفسهم. حينما علم الملك بخيانتهم وعدم وفائهم لدينهم المسيحي رمى بهم إلى مالقة وحدود خارجية أخرى ليعبروا من خلالها إلى إفريقية[4]. سنترك المستعربين يئنون ويتألمون في منفاهم يرجون من رب المسيحيين الرحمة والحرية ولنركز اهتمامنا على الفارس المغوار القشتالي الذي يحاصر أحواز بلنسية ويجاهر بعداء القاضي ابن جياف وأتباعه. حسب المؤرخين ساد توتر رهيب إثر غضبة الملك ألفونسو ضد السيد وهو يؤدي مراسيم القسم في كنيسة سانتا غاديا ببرغش، الأمر الذي أدى إلى نهاية مِؤلمة سنة

(1) فرنانديث إي غنثاليث، سبق ذكره، ص. 32.

(2) نفسه، ص. 38.

(3) نفسه، ص. 57.

(4) تاريخ ملوك قشتالة وليون، دون فرناندو العظيم، فصل 24، ج. 1، طبعة بامبلونا، كارلوس دي لاباين، 1615.

1080 قضت بنفي روي دياث[1] . انتقل ردريغو إلى برشلونة بعد خلافه مع ألكونت بيرينغير رامون ثم إلى سرقسطة حيث عقد معاهدة مع ملكها. تلا ذلك معاهدة أخرى مع المستغني حاكم سرقسطة لكي يجبر حاكم دينية على الانسحاب كما كان يرجو القادر. وحينما تمكن السيد من هدفه رفض أن يزيح ملك بلنسية عن الحكم لأنه كان ملتزما بدفع الجزية لملك قشتالة ألفونسو[2] ، وبهذا الموقف عبر دون ردريغو ليس فقط عن وفائه لملكه الشرعي ولكن برهن كذلك عن حنكة سياسية عالية. لقد لعب دورا دبلوماسيا مهما[3]، كان صديقا للقادر وحليفا للمستغني والمنذر وخادما وفيا لألفونسو. عمل على تشتيت جهود المسلمين ليسهل طريق الحرب المقدسة لمعشوقته قشتالة. بدوره، لم يتنكر ألفونسو للجميل ولا للأيادي البيضاء التي قدمها دون لذريق، قبل لقاءه وتلقى بيعته[4]. بعد أن أغدق عليه هذا الأخير من نعمه ورضاه، اتجه نحو بلنسية على رأس جيش مكون من ستة آلاف رجلا مقاتلا، كلهم مستعدون للقتال من أجل رفع راية قشتالة عاليا[5]. خلال مروره بألبراثين عقد اتفاقا مع حاكم المورو الذي خضع إلى ألفونسو وقام بسلوك يندى له الجبين. انسحب بجيوشه من صفوف المستغني وحليفه كونت برشلونة اللذين كانا يحاصران القادر. التزم هذا الأخير بدفع ألف دينار شهريا إلى دون لذريق مقابل حمايته لهم.

واصل السيد القمبيطور مسيرته ووقف بجانب الملك ضد تحالف المرابطين والعرب. انسحب المسلمون حينما علموا بأنه يتوجه نحوهم في جيش عرمرم إلى جانب فيلق الملك لحماية لييط. استغل دون ردريغو تأخر جيوش الملك فتقدم بنفسه، خصوصا وأن هذا

(1) دوزي، أبحاث حول التاريخ السياسي والأدبي لأسبانيا خلال القرون الوسطى، ليدين 1849، الفصل الأول، ص. 320-706. دون مانويل مالو دي مولينا، ردريغو القمبيطور، المطبعة الوطنية، مدريد، 1857، ص. 31-32.

(2) مالو دي مولينا، سبق ذكره، ص. 75. أكده دوزي بدوره في كتابه أبحاث...، سبق ذكره، ص. 484.

(3) نفسه، ص. 58، لقد سبقت الإشارة إلى الإتفاق بين ألفونسو السادس وملك طليطلة المورو، وقد أكذ ذلك أيضا دوزي، ص. 462.

(4) دوزي، سبق ذكره، ص. 486. مالو دي مولينا، سبق ذكره، ص. 60.

(5) مالو دي مولينا، سبقذكره، ص. 61.

الأخير عاد لمناوشته والتضييق على أفراد عائلته من جديد إذ جردهم من ممتلكاتهم وزج بزوجته دونيا خيمينا وبناته في السجن. أحس الفارس بالإهانة وانسحب من مولينا إلى إلتشي حيث قضى عيد الفصح، ثم استولى لاحقا على بولوب غير بعيد عن ألكانتي، القصر الذي كان المورو يخفون فيه كنوز وممتلكات المنطقة. اتجه نحو تربينا ثم بلنسية وتوجه بعد ذلك نحو طرطوشة محملا بالأموال والغنائم. استولى على ميرابيت حيث كان يتحصن المنذر، حاول هذا الأخير أن يتحالف مع كونت برشلونة لكن النتيجة الحتمية لهذا الإتفاق انتهت بهزيمة القشتاليين في موقعة توبار ديل ينار، المكان الذي كانت ترابط فيه جيوش الفارس المنتصرة. خاف المنذر من نتائج تلك الهزيمة وتوفي أياما قليلة بعد ذلك. تسابق أبناؤه نحو السيد لشراء أمن مملكتهم مقابل مبلغ سنوي وصل إلى خمسين ألف دينار. « المسلك نفسه انتهجه باقي الحكام وأمراء القصور إذ هرعوا نحوه لشراء أمنهم وأمانهم: وافق إبن هذيل على آداء عشرة آلاف دينار، استخلص من ابن القاسم، حاكم ألبوينتي المبلغ نفسه، من حاكم موربييدرو ستة آلاف دينار ومن سيغوربي كذلك، وعلى أربعة من شيريكا، وثلاثة آلاف من المنارة، وإثنا عشر ألف من القادر حاكم بلنسية، الذي كان يؤدي المبلغ نفسه لأحد القساوسة الموفدين من طرف الملك ألفونسو[1]. وبمبلغ كان يتجاوز المائة ألف دينار استطاع الفارس السيد نهج سياسة توازي سياسة الملك لمواجهة المسلمين. إلا أنه يتعرض مرة أخرى لغضب ملكه كما أكد ذلك عدد من المؤرخين وقرر أن ينسحب من مجال الحرب ويعتزل ليستقر في بني قادل[2]، وهناك عمل على تحصين وتقوية قلاع القصر الذي سيشكل لاحقا نقطة انطلاق كل حملاته. بهذا العمل ارتعدت فرائس كل الحكام المحيطين به متخوفين من هجوم مباغت على أراضيهم[3].

(1) نفسه، ص. 76، فرنانديث إي غنثاليث، سبق ذكره، ص. 15، قال بأن أبناء المنذر كانوا يؤدون 40 ألف مثقالا.

(2) قصر بينيا كادييلا، ذكرته الوثائق التاريخية في قصيدة السيد. توجد هذه القرية في مرتفع يفصل بين البيضاء وكنثيتانيا على مشارف دانية. أرشيف دانية، 29 يوليوز 1886، ذكره خوليان ريبيرا.

(3) مانويل جوزيف كنتانا، حياة الاسبان المشاهير – السيد، ص. 22، طبعة 1811.

خرج السيد القمبيطورمن قصره متوجها نحو بلنسية حيث وجد فيها القادر طريح الفراش ثم واصل نحو موريلا بعدما ترك المدينة تحت إمرة القسيس دون خيرونيمو دي بيريغورد وأتباعه. حين وصوله إلى وجهته سلمت له بورخا ودخلها فاتحا حيث استقبل مبعوث المستعين الذي يشتكي من مضايقة ملك أراغون ونافارا. تنبه إلى أن تسليمه بورخا كان فخا فأسرع إلى سرقسطة لمساعدة المستعين، لكن سانشو حاكم نافارا اعترض طريقه ليتفقا لاحقا على عدم إزعاج حاكم المورو في سرقسطة.

اعتقد الملك ألفونسو السادس بأن ساعة دخول بلنسية قد حانت بمساعدة ساكنة بيسا وجينوفا مستغلا غياب الفارس السيد، لكن حينما علم هذا الأخير بالخبر خرج من سرقسطة إلى ناخيرا والقلعة الحرة مستوليا على بعض المناطق غازيا الحقول وسط قوة ضارية أتت على الأخضر واليابس. اجتاح لوغرونيو ، مقر إقامة ألكونت غارسيا أوردونييث، الذي كان يحضى برضا ألفونسو و يعتمد عليه في توجيه ضربات متتالية لدون لذريق. حينما علم ألفونسو السادس بخطوات السيد لم ينتظر وصول الدعم الخارجي فتوجه نحو قشتالة. وفي الظروف نفسها حصل حدث مهم، بداية استرجاع بلنسية من طرف القوات المسيحية.

اتفق ابن جياف مع المرابطين وبعث أحد رجاله لاغتيال السلطان القادر دون أن يتمكن من الاستيلاء على العرش لأن بلنسية كانت في قبضة مجموعة من الوجهاء. كتب السيد إلى إبن جياف معاتبا متهمه بالخيانة ومطالبا بمحصول أراضيه المخزون في بلنسية، أخبره القاضي بأن المخازن قد سرقت عن آخرها إلا أن السيد استشاط غضبا وهدده بالانتقام لموت القادر. توجه نحو بلنسية ورابط في سيبويا حيث حصل على الزاد والمؤونة، لم يستخلص الجزية التي كان يؤديها له المورو فحسب، ولكن حصل أيضا على دعم قدمه له أمراء القصور. خاف ابن جياف من وعده ووعيده فاستنجد بيوسف بن تاشفين لكن دون ردريغو وصل قبل ذلك إلى قصر القاضي الخائن فاستولى على ممتلكاته وأفراد عائلته، حطم مساكنه وأخضع المناطق المجاورة له و كذلك المسلمين المقيمين في

بيلانوبيا والكدية. قوى السيد أسوار المدينة وقلاعها متوجسا من غدر القادر وسلم المدينة إلى بني طاهر[1]. كانت تلك الحاضرة غارقة في الحزن والتوجس و سرعان ما عاد بنو جياف يتوسلون دون لذريق ويعدونه بجزية أكبر[2]، استمرت حالة الترقب والهلع في المدينة[3] إلى أن دخلها الفارس دون ردريغو فاتحا يوم الخميس 15 يونيو 1094. سلم المورو سكان المدينة القاضي إلى السيد القمبيطور مقتنعين بأنه سبب الشؤم على مدينتهم، وأودع في غيابات السجن. ولكي يحكم قبضته على معشوقته بلنسية فرض السيد شروطا قاسية على ساكنتها المهزومة، فضل رجالها الخروج منها على ترك ديانتهم وعقيدتهم و استولى المسيحيون على مساكن المسلمين في المدينة وقتل السيد القاضي شر قتلة انتقاما منه لموت القادر[4]، كما ألحق المصير نفسه بأتباعه. دخل السيد المدينة الخصبة الجميلة في سلم وسلام وعمد في البداية إلى إرساء وتقوية سياستها الداخلية. أقام في البداية كنائس لنشر وتقوية العقيدة النصرانية وشدد على المسيحيين بالمدينة والأرباض المتاخمة لها بالتعامل اللائق مع العرب مناشدا هدنتهم وصداقتهم تفاديا لكل تمرد محتمل. حكمهم بعدل وسمح لهم بممارسة عاداتهم وشعائرهم ومعتقداتهم كاملة[5].

أراد السيد القمبيطور أن يبسط نفوذه على المناطق المجاورة فقبل بسرور بالغ صداقة دون بيدرو الأول بأراغون وأتباعه النبلاء نظرا لسيطرته على موقعين استراتيجيين هامين: قصر أولوكاو وإقامة سييرا، وذلك كخطة لدخول ليريا وساغونتو بعد ذلك. الأمر الذي مكنه من مواجهة المرابطين في محاولتهم لدخول بلنسية، منطلقين من مرسية وهم يحاولون مباغتته قرب شاطبة. استطاعت قوات السيد و دون بيدرو تأمين قصر

(1) هكذا يسميهم فرنانديث إي غنثاليث.

(2) انظر فصول مرجع سبق ذكره، لفرنانديث إي غنثاليث، ص. 53.

(3) صلاة تقام على الجنازة من طرف أحد المورو من فوق مرتفعات بلنسية حينما حاصرها المسيحيون، مالو دي مولينا، سبق ذكره، ص. 150-157.

(4) انظر تفاصيل أكثر في مولينا، سبق ذكره، ص. 133. كبانيليس، ج. 2، ص. 143، سبق ذكره، وقد سبق نشر هذه المرثية في عدة مراجع أخرى.

(5) دي مولينا، سبق ذكره، ص. 136.

بني قادل بينما استولى المسلمون على قصر بيرين، موقع استراتجي هام. توجهت القوات المسيحية لملاحقة العدو الذي كاد يهزمها لكنهم تكبدوا خسائر بعد ذلك وفروا حينما قوى السيد عزيمتهم مستعينا بالمسيح وداعيا أتباعه إلى جهاد مقدس. الأمر الذي دفع بالأعداء إلى التراجع تاركين وراهم قصر بيرين في قبضة المسيحيين. وبعد عودته إلى مدينته المفضلة بلنسية حاصر السيد المنارة التي دخلها المسيحيون فاتحين ثم ساغونتو بعد محاولات متعددة وذلك في الرابع والعشرين من يونيو سنة 1098 ، وحسب أحد المصادر العربية[1] لم يعش السيد طويلا بعد ذلك وأودع قبره في بلنسية شهر يوليوز 1099.

أشاد المؤرخون بشخصيته البطولية وملاحمه الباهرة ودوره الرائد في محاربة المورو خلال معارك الاسترداد كما وصفه المؤرخ كابانيليس[2] . لقد لعب الملوك الكاثوليكيون خلال تلك الفترة دورا هاما في حماية الأمراء المورو وتأجيج الصراع بينهم في الآن نفسه. ورغم سياسة التحالف والتسامح التي نهجها المسيحيون اتجاه المسلمين، لم يستطيعوا خلق التآلف والانصهار بين الغالب والمغلوب، وفي مواقف متعددة اضطر المسيحيون لمهادنتهم حتى يتمكنوا من غلبتهم واستئصالهم. الأمر الذي يمكننا من فهم موقف السيد الذي كان يهادن بعض ملوك المورو ليس خوفا منهم ولا ضعفا ولا خيانة للأمانة ولا تسامحا وإنما احتياطا وتقية سياسية. كان معتادا على التعاون والتحالف مع ملوك المورو ليحتفظ بهم تحت نظرته وسيطرته حتى يسهل عليه لاحقا تدميرهم دون شفقة أو رحمة لتحقيق الهدف الأسمى لحروب الاسترداد الإسبانية «لاريكونكيستا». إلا أن بعض المصادر تعيب عليه عدم وفائه لحلفائه ملوك المورو، قسوته اتجاه المغلوب كان عربيا أو مسيحيا، حبه المفرط للمال والثروة، لكن إذا وضعناه في سياقه التاريخي ليس مقارنة مع الملوك المسلمين بل مع ألفونسو السادس نفسه نجده يتطابق معه ويشبهه في

(1) هكذا ورد في ص. 590، من كتابه « أبحاث...»، ج. 1.

(2) سبق ذكره، ج، 2، ص. 134.

سلوكات متعددة. لقد لعب دورا كبيرا في مساعدة ملك برغش البطل لإرساء الدعائم الأولى للمملكة الإسبانية خلال القرن الحادي عشر.

كانت بلنسية وضواحيها الخصبة تشكل طعما شهيا للمرابطين ولم يكن ألفونسو السادس رغم مجهوداته الجبارة ولا دون خايمي بدعمه وحلفائه المستعربين ليحررا تلك المدينة من قبضة المورو لولا الجهود المتكررة والدفاع المستميت الذي أبداه السيد القمبيطور اتجاهها.

منذ دخول دون ردريغو إلى المدينة أصبح الفرسان يخضعون لطقوس دينية خاصة، كما أن استمرار القسيس خيرونيمو دي بيريغور ساهم في إقامة الكنيسة الكتدرائية و إنشاء عدة كنائس أخرى بالمدينة وخارجها. بدورها حكمت دونيا خيمينا، زوجة دون ردريغو، بأيادي من حديد إلى جانب القسيس المذكور إلى غاية 1101 ، وعملت بشكل كبير على تعزيز و ترسيخ النواة المسيحية التي استمرت رغم المشاكل والقلاقل إلى غاية الثلث الأول من القرن الثالث عشر. إلا أن الظهور المفاجئ للمرابطين المتوحشين مكنهم من احتلالها في الخامس من مايو سنة 1102 ولم يخرجوا منها إلا بقوة الفارس المغوار الذي طردهم سنة 1238 وعرض الحماية على العدد المحصور من المستعربين الذين مكثوا قرب المعبد وبضواحي سان بثينتي دي لاروكيطا.

استطاعت دونيا خيمينا أن تحفظ رفات زوجها وتنقلها إلى سان بيدرو ديكاردانية قبل أن تدخل جيوش يوسف بن تاشفين مدينة بلنسية. عمل كذلك ألفونسو السادس على تقوية صفوف جيشه بعد خسارة موقعة الزلاقة إلا أنه خلال 1108 تكبدت القوات الإسبانية خسائر أخرى في معركة أوقليش والتي مات خلالها عدد كبير من الجنود المسيحيين في عمر الزهور. كانت فاجعة ألفونسو الكبرى في موت ولده وفلذة كبده وقد تحدث المصادر التاريخية عن حزنه العميق وآساه إذ كان يردد باستمرار: « آه ياولدي[1] آه يا قرة عيني وفلذة كبدي، يا هبة السماء وفرحة قلبي، يا أملي في الحياة كيف أعيش بعدك

(1) لفوينتي، سبق ذكره، ج. 4، 442.

وعيناي لن تعودا أبدا لرؤيتك والاستمتاع بطلعتك؟ آه يا وارث العرش الشرعي؟ أيها الفارس المغوار لماذا تركتني وابتعدت عني؟ بحق السماء أخبروني كيف أستعيد ابني».

توالت المصائب على ألفونسو الذي رزئ في ابنه وفقد إيسابيل وصهره الكونت رامون دي غاليسيا. سرعت هذه الوقائع المتتالية بوفاة الملك الذي وافته المنية في الثلاثين من يونيو سنة 1109.

وفي خضم تلك الأحداث تقدمت القوات الأراغونية بخطى متسارعة في حرب الإسترداد واستولت على ألكراث وويشقة، المركز الذي كان المورو يهاجمون من خلاله جيوش أراغون. استطاعت القوات الكتلانية أن تخرج الخونة من طراغونة إلا أن دونيا أورّاكا، التي اعتلت العرش، لم تنظر بعين الرضى إلى ذلك الأمر لأن البطل المقاتل ألفونسو كان قد وضع تحت رعايته مورو ويهود برغش وحماهم من بطش قساوسة ساهاغون[1]

أصبح حلم مملكة إسبانيا الموحدة ممكنا في ظل ملكي قشتالة وأراغون إلا أن رجال الكنيسة شعروا بالاستياء اتجاه حماية ومعاملة ألفونسو السادس ودون رودريغو، اللذين بذلا كل طاقتهما وقوتهما لتحقيق الوحدة الترابية لإسبانيا. لم تستمر هذه الوحدة التي سرعان ما انصرمت بسبب افتراق الزوجين، حكمت دونيا أوراكا إلى جانب إبنها الأمير ألفونسو رايموندو مملكة قشتالة وليون بينما وجد الزوج نفسه مضطرا للعودة إلى موطنه بعد مواجهاته في كانديسبينا و بيادانغوس لجيوش أوراكا. لم يتأخر المسلمون في محاولة استغلال الظروف إلا أن العناية الإلهية كانت تحيط بإسبانيا وتحميها من الدخلاء. لم يهدأ بال الزوج المخلوع واتجه لمحاربة الجيوش الإفريقية المرابطة في أراضي أراغون، في الفترة نفسها استطاع كونت برشلونة دون رامون الرابع أن يحاصر ويستولي على إبيثا وبالما دي مايوركا، ويطارد القراصنة الأفارقة. لم يتجسد نصر الملك في الاستيلاء على إيخيا، تاوستي وكاستيلا ولكن في دخول سرقسطة، بعد معاداة مورو ليريدا والمتاخمين

(1) فرنانديث إي غنثاليث، سبق ذكره، ص. 61.

لبلنسية. وفي وقت وجيز التحق بعرش الملك سكان بورخا، طاراغونا، قلعة أيوب، ماليو، ماغالون، غريلا، وآخرون. وقد تغلب الأراغوني في معركة كوتاندا على جيش يتكون من عشرين ألف مسلما كانوا يحاولون عبور جبال البرانس، توغل بعد ذلك في مناطق محيطة ببلنسية ثم واصل ليستقر بألكراث. وبمساعدة المستعربين الأندلسيين نقل جيوشه إلى باحة غرناطة. لولا العوامل الجغرافية لأصبحت أندلسيا جزءا لا يتجزأ من مملكة أرغون، أدت ملاحقة المورو بالملك إلى الهروب والاحتماء بتراب مملكتهم سنة 1126. في السنة نفسها توفيت ملكة قشتالة دونيا أوراكا وخلفها أبنها ألفونسو السابع ليحكم عرش ليون، وفي سنة 1134 أراد المقاتل أن يستولي على مدينة فراغا لكنه سقط قتيلا على يد المرابطين[1] وبعض نبلاء ووجهاء أرغون. تقيد مصير المملكة بالوصية التي دونت سنة 1131 في بايونا وتم تعديلها سنة 1133 في حصن سارينيبيا[2]. وبموت المقاتل لمع نجم إبن دونيا أوراكا الذي لم يقنع بالعرش الذي ورثه عن أمه ولا بالموالاة التي أبداها له ملوك نافاراو أراغون وكونت تولوسا وبرشلونة. وفي الثالث من يونيو سنة 1135 خلال اجتماع دعا إليه قصر ليون وعقد في كنيسة ساتنا ماريا مجد الملك القداس وأطلق عليه أسم حاكم وسيد الملوك. حسب أحد المؤرخين: « كان الملك يلبس في ذلك اليوم رداءا غاليا جدا وتاجا مرصعا بالجواهر الثمينة الغالية، وصولجانا فاخرا، وقف عن يمينه الملك غارسيا وعن يساره دون أريانو قسيس ليون ووراءه ثلة من الرهبان ورجال الدين الأشاوس الذين قدموه خلال الطقوس الكهنوتية لسانتا ماريا وهم يرددون «ليعش الإمبراطور».

وسط حشد من التصفيق والإعجاب حصل على رضا الكنيسة والرب وموالاة

---

(1) رغم أن الوثائق التاريخية العربية تقول بأن الملك ألفونسو المقاتل قد مات في فراغا، يؤكد كبانييس، ج. 2، ص. 781، تاريخ إسبانيا، بأنه تمكن من الهرب من مكان الهزيمة فتبعه 01 قواد، ومن سرقسطة عبر إلى سان خوان دي لا بينيا، حيث توفي ثمانية أيام بعد ذلك»

(2) كابلنيليس، سبق ذكره، ج. 2، ص. 188، قال بأن الوصية التي تركها السيد القمبيطور في بايونا، تم التأكيد عليها في فراغا، ثلاثة أيام قبل الهزيمة.

وطاعة أتباعه. وتجسيدا للحلة التي وشح بها واللقب الذي تقلده، أصدر الإمبراطور أوامر بإتباع عادات وقوانين كان قد أصدرها قبله ألفونسو البطل إذ أمر بإعمار المدن وغرس الأشجار والمزارع لإظهار علامات الرخاء والتقدم في مجاله الترابي، كما أنه أعطى تعليمات لقواده في طليطلة وسكان الحدود بأن يتوخوا الحذر ويعيشوا على أهبة لردع المسلمين وقتالهم على طول أيام السنة دون رحمة أو شفقة لاستئصالهم، وأن يستولوا على مساكنهم ودورهم وكل ممتلكاتهم حتى وإن اضطروا لتحقيق ذلك بالحديد والنار، من أجل إرساء الدين والقانون المسيحيين[1]. كانت هذه هي روح السياسة التي انتهجها واتبعها ألفونسو السابع، الوفي لدينه ولمبدإ أجداده. على مشارف الوادي الكبير كان يتطلع إلى أراضي مملكته الممتدة إلى جيان، بييثا، أوبيدا، أندوجر ومدن أندلسية أخرى.

كبد المرابطون الجيش المسيحي خسائر فادحة انتقاما لما حصل لبني جلدتهم ووصلوا إلى محاصرة أسوار طليطلة التي كانت توجد بها آنذاك الإمبراطورة دونيا برنگيلا، لكنهم تراجعوا بسبب سلوكها النبيل. استغل ألفونسو السابع الصراع بين العرب والمرابطين فاحتل ألمرية، القلب النابض والمركز الاستراتيجي للعلاقات بين أوربا- آسيا وإفريقية وميناء هام لمملكة قشتالة. لكن المرابطين استطاعوا أن يهزموا عرب ومسلمي إسبانيا، الأمر الذي كان يدفع بهؤلاء للتحالف دائما، ليس مع عرب مثلهم ولكن مع الملوك الإسبان ضد البربر. وهكذا انهزم هؤلاء واستسلم العرب وخضعوا للمسيحيين بدل أن يتحملوا إهانة جيش إفريقي آخر، ثم تحالفوا لاحقا مع الموحدين للتخلص من المرابطين[2]. كانت وقعة هذا التحالف الجديد بين مسلمي إسبانيا والموحدين شديدة على الفونس السابع الذي واجههم دفاعا عن ألمرية وسنة 1157 هزمهم مستعينا بحلفائه وطاردهم في جيان، قرطبة ومدن أندلسية أخرى. لقد كان لهذا الإمبراطور الفضل في تسريع القضاء على جنس المسلمين وطردهم من إسبانيا بمساعدة حلفائه والمدجنين

(1) فرنانديث إي غنثاليث، سبق ذكره، ص. 66.

(2) سبق ذكره في لفوينتي، ج. 5، ص. 85 وما بعدها، جذور وتطلعات هؤلاء الأفارقة في إسبانيا.

الذين كانوا في خدمتهم والأموال التي كان يحصدها من المورو مقابل حمايتهم. أرسى هذا الملك العظيم إستراتجية هامة وفعالة لعملية الاسترداد فكان للوحدة الدينية أثر بالغ في تحقيق الوحدة الترابية لإسبانيا.

حسب المؤرخين لعب ألفونسو السابع دورا بالغا ومهما في جمع شتات إسبانيا وتوحيدها ودخول بورغونيا، ريوخا ووسع مجال الفيودالية ودفع الحدود المسيحية إلى غاية الوادي الكبير، واحتل مورا كالترافا، أوريخا، المرية، وكورية، وهزم المورو في مواقع متعددة، كبدهم خسائر فادحة وجعلهم يعيشون أوقاتا عصيبة [1]. للسيطرة على مملكته قسم الحكم بين أبنائه وكانت تلك الفترة حقبة ازدهار إذ عرفت إسبانيا في ظله أزهى فترات تاريخها وقبل وفاته سنة 1157 نصب ابنه دون سانشو ملكا على قشتالة ودون فيرناندو ليحفظ مجد وسطوع تاج ملك تقلده لسنين طويلة خصوصا وأن العلاقة بين الأخوين كانت جيدة هدفها توحيد مملكتهم وحمايتها من الدخلاء وتوسيعها لاستقطاب أراضي جديدة. إلا أن موت ألفونسو وانسحاب الجيوش من حدود المدن الأندلسية مكن المرابطين من احتلال أندوجر و باييثا وحاولوا دخول طليطلة. وفي ظل حلفائه الجدد من الملوك المسيحيين، بعث سانشو جيوشه لمواجهة الغزاة إلا أن المنية اختطفته دون أن يكمل مسيرته اللامعة تأسيا بمواقف أبيه البطلة. تولى عرش قشتالة بعده ابنه ألفونسو الثاني ونظرا لحداثة سنه لم يكن ليوقف الصراعات التي نشبت بين لوس لاراس و لوس كاسترو، واستولى بعضهم على مناطق في لاريوخا. حاول عمه دون فيرناندو الثاني أن يفرض وصايته، إلا أن انتصار لوس لارا على فرناندو دي كاسترو وهروب هذا الأخير إلى حماية المورو أعاد الاستقرار من جديد إلى قشتالة. كان ذلك بداية ومناسبة لبروز وجه الملك الشاب الذي تحالف مع ملك أراغون ألفونسو الثاني وتزوج بدونيا ليونور، ابنة إنريكي الثاني، ملك انجلترا.

وصل ملك قشتالة إلى برغش، واستغل علاقته الوطيدة بملك أراغون لإجلاء

(1) كابانيليس، سبق ذكره، ج. 2، ص. 199.

ومطاردة الطامعين في نافارا ولاريوخا. وبعد ذلك، أراد أن يقيس قوة جيشه، فهاجم المورو وأخرجهم من ألاركون، إنييستا وقلع أخرى، بينما دخل ملك اراغون في مواجهات حادة ضد مسلمي بلنسية ومرسية الأشاوس. وقرر ملك ليون المسيحية أن يحقق النصر في سانترين حيث انتصر على الموحدين وقتل ملكهم يوسف. وفي نهاية القرن الثاني عشر استطاع ألفونسو الثامن بمساعدة جبهة ملوك البرتغال، أراغون، نافارا وليون أن يقوي الجيوش المسيحية ويطارد المورو في أندوجر، أوبدة، جيان وتقدم إلى غاية الجزيرة الخضراء، إلا أن الوضع استفز المورو وشكل تحديا حقيقيا ليعقوب بن يوسف، إمبراطور الموحدين بالمغرب[1]. الأمر الذي أدى إلى دخول ابن يوسف تراب إسبانيا على رأس جيش عرمرم. بعد سماعه بالخبر جزع ألفونسو الثامن إلى طلب العون من حلفائه إلا أن تأخر هؤلاء في الاستجابة لطلبه، دفعه بالتوجه على راس جيشه لمراقبة تحركات هؤلاء. خرج من طليطلة متوجها نحو ألاركوس حيث تواجه الجيشان.

لا نعرف فعلا كيف نفسر سلوك ملك قشتالة، هل كان حبا للوطن، هل كان حماسا زائدا وتقديرا سيئا لقدرة وعدد جيشه، هل كان يقينا بالنصر، هل كان إيمانا قويا، هل كان خوفا وهلعا؟ لا ندري فعلا ما السبب الذي دفعه لمواجهة ونزال جيوش الموحدين الذين لم توقفهم لا بسالة ولا بطولة الجيوش المسيحية القشتالية، إذ ترك الموحدون أزيد من عشرين ألف جندي مسيحي قتيلا في ساحة المعركة[2]. دخل ابن يوسف فاتحا تراب طليطلة، استولى على خط نهر طاخو مستغلا الهلع الذي يسيطر على المسيحيين وتعقبهم ليقض مضجعهم ويهدد سلامتهم وأمنهم قبل أن يمكنهم من النهوض أو التحالف: «كم كانت قاسية وطويلة سنوات الحرب و عملية الاسترداد[3]». وهكذا حصلت

(1) انظر الرسالة المهينة التي بعثها الملك ألفونسو إلى ملك المغرب حسب ما ورد في كتاب تاريخ سيطرة العرب، ج. 3، ص. 51.

(2) انظر الطريقة التي روى بها الأحداث دون ردريغو أمادور دي لوس ريوس، ج، 4، ص. 208، طبع في مدريد، 1893.

(3) كابانيليس، ج. 2، ص. 932، سبق ذكره.

المواجهة بين الطرفين في معركة يوم 18 يوليوز 1195 .

حين عودته إلى طليطلة وجد ملك قشتالة ملك ليون بدوره فيها مع ذويه وأتباعه، كما يثبت ذلك مؤرخون أفذاذ. تصارعا بينهما و كل واحد منهما يتهم الآخر بالخيانة والخذلان، الأمر الذي أدى أيضا بملك ليون ونفارا إلى دخول قشتالة[1] واستولى ملك المدينة بدوره على مجال ابن عمه في ليون خلال صراع شديد بينهما. سهل ذلك مهمة الأمير الموحدي القادم من إفريقية في إخضاع عروش واحتلال أراضي الملوك المسيحيين. كانت خيبة هؤلاء كبيرة، الأمر الذي أدى بهم، انتقاما لكرامتهم، للعبور إلى المغرب للتحالف ضد الأمير الموحدي مع يعقوب بن يوسف، لكن حظه كان سيئا وخيبته شديدة إذ وافته المنية قبل وصوله وخلفه ابنه الذي استطاع أن يؤخر فوق ترابه ملك نافارا دون أن يمكنه من غايته. لم تكن سياسة التحالف هذه لترضي ألفونسو السابع، الشيء الذي خلف استياء كبيرا داخل الأوساط المسيحية الإسبانية واعتبروا أن الرجل لا يستحق لقب ملك مسيحي. كانت نية وحوافز ألفونسو الثامن، ملك قشتالة مختلفة فيما يتعلق بموقعة الأرك. نقض المعاهدة التي فرضها عليه الأمير الموحدي وباتفاق مع فرسان كلاترافا دخل تراب جيان، بابيثا وأندوجر معلنا الحرب ضد الإفريقي الذي لم يتوان في الرد على الاستفزاز فعبر بجيوشه وحطم قصر سلباتييرا وتراجع لكي يستعد جيدا لمواجهتهم ويوجه الضربة القاضية لملكهم في معركة الأرك. خلال استعداده للمعركة، رفع الملك من عزيمة ومعنويات جيوشه وأتباعه ودعاهم إلى تقوية إيمانهم بدينهم وبعث بالقسيس سيغوبيا إلى روما ليبارك الأب إنوثينثيو الثالث تلك الحرب المقدسة، كما توجه نحو فرنسا أسقف طليطلة لدعوة الأمراء المسيحيين لقتال المورو. بدوره طلب الأمير محمد بن يعقوب دعم القبائل العربية وغيرها مثل زناتة، مصمودة،

---

(1) بينما يؤكد لفوينتي، ج، 5، ص. 170، في كتابه تاريخ إسبانيا بأن ملك قشتالة تحدث مع ملك ليون في طليطلة، يقول فرنانديث إي غنثاليث، سبق ذكره، ص. 87 بأن الجيش المسيحي في معركة الأرك خرج بقيادة ألفونسو الثالث القشتالي، ألفونسو إنريكي البرتغالي، وألفونسو ملك ليون. كابانيليس، ج. 2، ص. 237– 239، الأمر نفسه يؤكده لفوينتي.

صنهاجة، غمارة وكل القبائل أن تلتحق به للجهاد المقدس ضد أعداء الدين. أيدته تلك القبائل وانضمت لجيوشه في إسبانيا. كان تهديدهم واضحا للصليب المسيحي رافعين شعار الهلال. كان ملك إسبانيا ذكيا، إذ باسم الدين والصليب استطاع أن يحرك مشاعر وهمم أمراء مسيحيين آخرين في الخارج، قدموا لدعمه ومساندته، تجمعت الجيوش المسيحية بطليطلة في 21 من يونيو 1212 لتنطلق لمواجهة المسلمين. « كانت إرادة جيشنا المسيحي قوية لا تقهر »[1] .

بعض التعرض لمواجهة بعض المناوشات حقق الجيش المسيحي انتصارا باهرا وفي 15 يوليوز تقدم إلى غاية مورادال، لكنه وجد نفسه محاصرا بين الجبال ولم يستطع التقدم أو الحركة إلا أن الرب رزقهم بفجوة للخروج من المأزق، كما حكى ذلك الملك القشتالي لأب الأساقفة وهو يصف له وقائع أحداث المعركة[2] واستطاعوا أن يحتلوا مواقع جديدة في هضاب نافارا. وأضاف الملك: « في السادس عشر من يوليوز تقدمنا رافعين شعار الصليب متضرعين إلى الرب نسعى لمواجهتهم بالسيف والإيمان الكاثوليكي بينما هم يسيطرون على مرتفعات وعرة يصعب بل يستحيل تسلقها»[3].

قاتل الملك كفارس مغوار وجيوشه من حوله تبلي البلاء الحسن، تقدم ملك نافارا وحطم الجدران. فر أمير المؤمنين وتفرقت جيوشه مذعورة وتساقط رجاله كالذباب تحت سيوفنا، بقرنا بطونهم وواصلنا قتالهم إلى ساعة الغروب وسط حقول طليطلة. رفعت أكف الضراعة تتوسل: أنصرنا يا رب ! والدموع تخالط الشكر لله»[4].

وهناك بقي المسلمون مهزومين بإسبانيا وتوالت منذ ذلك الحين الانتصارات ضدهم. عملت إسبانيا على تقوية مملكتها وأظهرت للعالم أنه يمكنها تحقيق حلم إسبانيا

---

(1) كابانيليس، ج. 2، ص. 254، سبق ذكره.

(2) انظر التفاصيل في كابانيليس، ج، 2، ص. 255-267، الرسالة التي كتبها ألفونسو الثامن إلى البابا.

(3) سبق ذكره، في إحالة الصفحة 34 من المرجع السالف الذكر.

(4) كابانيليس، سبق ذكره، ج، 2، ص. 254-255.

المسيحية الموحدة. انتصرت جيوشنا في موقعة العقاب وهي تحمل الصليب وراية الملك ألفونسو الثامن التي تجسد صورة العذراء وابنها.[1] ولكن السؤال المطروح هو: «لم لم ينته ويختف ذلك الجنس نهائيا من فوق تراب إسبانيا بعد تلك الهزائم المتكررة والمتتالية؟ لابد للمحلل أو المؤرخ أو الناقد أن يعرف في البداية طموح ونوايا الملك ألفونسو الثامن وعلاقته بالملوك الذين يحيطون بمجال سيطرته في إسبانيا. تحكي بعض المصادر التاريخية أن ملك ليون رفض مشاركة ملك قشتالة في موقعة العقاب، كما أن ملك البرتغال الذي كان قد فقد والده مؤخرا اعتذر عن حضوره الشخصي وبعث ببعض جنوده إلى ساحة المعركة. بعض الأجانب الذين ساعدوا ألفونسو النبيل انسحبوا محتجين بسوء الظروف الجوية والحرارة المرتفعة. لذلك بعد انتصارهم وجد الملك ألفونسو نفسه دون سند أصدقائه فاضطر لترك المورو وعدم تتبع الفارين منهم والمختبئين. بعد ذلك النصر لم تقم قائمة للمورو ولا نبت لهم زرع لا في حقول الوديان ولا على ضفاف نهر طاخو. استطاعت إسبانيا خلال السنوات الموالية أن تقوي وتطور قانونها وشؤونها السياسية. منذ ذلك الحين تقلص عدد المستعربين بينما ارتفعت نسبة المدجنين وامتزجوا بالمسيحيين إلى درجة عدم التمييز بينهم، ليس في الممارسات الدينية واللغة والعادات، ولكن في الهندام والشكل الخارجي فقط. كانت تتدفق في عروق المدجنين دماء جنسهم المتوحش، حاولوا تقليد المسيحيين في مظاهرهم الخارجية وحافظوا على معتقداتهم الداخلية دون أن يحصل بينهم تمازج حقيقي. إلا أن الكنيسة التي كانت تسهر على نقاء العرق والعقيدة حذرت المسيحيين من الوقوع في مصيدتهم و تكرار الأخطاء التي كان يقع فيها نبيهم محمد وأن يعملوا جاهدين ليحولوا أتباعه إلى مسيحيين يدافعون عن الصليب[2].

وقد أعطى إنثينثيو الثالث أوامره سنة 1199 إلى القسيس آبيلا بأن لا يغلب عملية التنصير على الخضوع وتطبيق القانون[3]. وخلال اجتماع المجلس 1215 تم إصدار أمر

(1) انظر الإحالة، ص. 34، من هذا الفصل، المرجع السابق.

(2) سبق ذكره، ج. 4، ص. 32، طبع في روما، 1612.

(3) أغيري، ج، 3، ص. 425.

التمييز والتفرقة بين المسيحيين واليهود والمسلمين في المظهر والملبس مخافة الوقوع في المشاكل المذكورة[1].

أما بالنسبة لقاهر المسلمين في موقعة العقاب، فقد حلت به حمى خبيثة في مكان قرب قشتالة ووافته المنية ليلقى الرب راضيا عنه في أكتوبر1214. فترة وجيزة بعد ذلك أدى القسم ابن ألفونسو، بطل معركة العقاب، إنريكي الأول وهو في الحادية عشر من عمره. رزئ كذلك بموت أمه دونيا ليونور 25 يوما بعد ذلك، الأمر الذي جعل أخاه الأكبر يفرض وصايته عليه، لكن «لوس لاراس» عادوا ليتحرشوا به من جديد كما كان حالهم خلال حكم ألفونسو الثامن وهو لا يزال قاصرا بعد. في الثامنة عشر من عمره، اعتلى الملك الشاب عرش قشتالة. وبفضل حكمة وحذر دونيا برنغيلا، استطاعت أن تعقد قران الملك الشاب وتزوجه بدونيا بياتريث ابنة فيليب دي سوابيا في 30 نونبر 1219، واللذين خرج من صلبهما العالم الذي كتب عنه التاريخ: الملك العالم، ألفونسو العاشر.

وضع الحجر الأساس لكاتدرائية برغش وعقد العزم على مطاردة المسلمين ومحاربتهم وما أن علم سكان كوينكا، هويتي، ألركون، ومويا بنية ورغبة ملك قشتالة حتى توجهوا نحو بلنسية لنهبها ومطاردة المسلمين بها. كان هؤلاء منقسمين حول أنفسهم جراء طغيان وجبروت أمرائهم، فشكل الوضع بذلك فرصة مكنت الملك القشتالي من تحقيق طموحاته ومخططاته. عبر بجيوشه وأتباع حلفائه سنة 1221 لاسييرا مرينا متوجها لقتالهم. لكن أمير بابيثا، الخائف المذعور عرض عليهم الضيافة والهدنة. عاد الملك القشتالي إلى مربضه بعد استيلائه على بعض مواقع المورو ومن قوينقة تجهز لغزو ودخول بلنسية. حين علم بالخبر سارع الأمير زيد بن زيد إلى الإستسلام وتقديم ولائه وطاعته للملك القشتالي. لم يقتنع خايمي الأول حاكم أراغون، بخطط فرناندو التاسع لأنه كان يتصور دخول واحتلال بلنسية أمرا يخصه وحده، واضطر لسحب قواته نحو

(1) من أجل المساواة في الملبس، انظر كنسيليو، ج، 4، ص. 61.

سرقسطة منتظرا الفرج والفرصة لتحقيق عملية استرداد باهرة[1].

في الفترة نفسها كان فرناندو الثالث يتقدم ويستولي على المدن واحدة تلو الأخرى مثل بييثا، الحمراء، لوشة، بريبغو مارطوس، أندوجر ومراكز أندلسية أخرى. ضعف الأمراء المسلمون وساهم نزاعهم فيما بينهم في جعل مدنهم تتساقط كأوراق الخريف في يد فرناندو كما كان يتمنى ويحلم.

بدوره توجه ألفونسو التاسع، ملك ليون، نحو بادخوث لإخضاع المورو بها. وواصل ملك البرتغال التوغل في إلفيس. جهز فرناندو الثالث حملته لدخول إشبيلية إلا أنه اكتفى باسترجاع بعض المواقع والساحات وأرجأ دخول تلك المدينة إلى وقت لاحق.

بعد استيلاء ألفونسو التاسع على ميريدا وكاسيريس فاجأه المرض وأسلم روحه يوم 24 شتنبر 1230 إلا أن عرش ليون لم يخضع لملك قشتالة، مما جعل الأب ألفونسو يكن الحقد والكراهية لإبنه حتى بعد وفاته [2]، كما يقول المؤرخون. وفي وصيته أوصى بأن يؤول الملك إلى ابنتيه دونيا سانشا و دونيا دولثي من زواجه الأول بدونيا تيريزا البرتغالية، مقصيا ابنه فيرناندو، من زواجه بدونيا برنغيلا. لكن حكمة ودهاء هذه أوصلا ابنها إلى عرش ليون دون إراقة أية قطرة دم.

وبزواجه ثم الجمع بين مملكتي قشتالة وليون إلى الأبد، كما أنه اعترف بحق أختيه الأخرتين. وبموجب اتفاق بينهما وبين دونيا برنغيلا بقي فرناندو ملكا لقشتالة-ليون. كان ذلك من بين الأسباب في تلميع صورة الملك واسترجع بعد ذلك بعض المدن التي كان قد دخلها المسلمون من جديد. واصلت جيوشه التوغل إلى حدود خيريث ودخلت في مواجهات ضد قوات بني هود قرب غواداليتي حيث انتصرت جيوش الملك وهزم المسلمون. لم يتأخر الملك بعد ذلك في توجيه حملات أخرى لاسترداد أوبذة ووصل إلى

(1) حرض دون فرناندو، أحد إخوة لوس لارا السيد مولينا على التمرد ضد الملك، إلا أنه اضطر للفرار إلى أرض المورو في بايبثا. هكذا انتهت الأحداث بالنسبة لهذه الأسرة المتمردة.

(2) لفوينتي، سبق ذكره، ج. 5، ص. 329.

غاية قرطبة إلا أنه عاد أدراجه بعد ذلك[1] إثر وفاة الملكة دونيا بياتريث، كما يعتقد بعض المؤرخين. لكنه أعاد الكرة بعد ذلك واستطاع دخول المدينة بعدما علمت الجيوش بموت ابن هود ورفع الصليب عاليا فوق عاصمة الخلافة الإسلامية بالأندلس في 29 من يونيو 1236.

عاد الملك إلى جوار أمه بطليطلة لتزوجه ببرغش من الكنديسا دونيا خوانا. قاد حملة جديدة ضد مدن الأندلس وخضع لسيطرته العديد منها مثل كثالا، أوسونا، مونتيرو، ثفرا، موراتيلا، مرشيريا، أغيلار ومواقع أخرى.

رجع بعد ذلك إلى قشتالة، عاصمة ملكه ليصب اهتمامه على تنظيم مملكته ويحسن أوضاع أتباعه وينقل جامعة بلينثيا إلى سلمانكا. فاجأه المرض ببرغش فلم يتمكن من توجيه حملة ثانية نحو مدن أندلسية أخرى، إلا أنه كلف ابنه ألفونسو بذلك ليتغلغل إلى غاية أقصى حدود ممالك المسلمين بإسبانيا المسيحية. أكسبهم دفاعهم المستميت عن بينيا دي مارتوس قوة وسمعة عالية. وخلال استعداد الملك للخروج لمداهمة المورو توصل برسالة من ملكهم بمرسية يعلن فيها عن ولائه وخضوعه، فدخلها ألفونسو فاتحا رفقة سنتياغو و دون بيلايو[2].

وبعد شفائه من مرضه توجه الملك ليستولي على أرجونا، مونتيخار، وقرى أخرى، فيما سلم ملك غرناطة جيان وهو يرتعد خوفا من أن تسقط كل ممتلكاته في يد الملك المسيحي دون فيرناندو. وبسبب احترامه لهذا الملك المسلم تأخر استرداد المدينة لمدة قرنين بعد ذلك. وحينما عزم على دخول إشبيلية، دعا الخليفة ابن الأحمر في غرناطة لمساعدته وهو يعلم أنه يكره الموحدين فهب لمناصرته بقيادة فرقة جيش تجاوز عدد أفرادها خمسمائة جنديا مقاتلا .ولإخضاع المدينة باغتهم الملك القشتالي برا وبحرا وتمت محاصرتها في 20 غشت من سنة 1247 . قطعت عنها كل الإمدادات إلا أن المورو لم يستسلموا بعدما

(1) كابانييس، ج.3، ص. 50.

(2) شروط استسلام ملك المورو بمرسية، فرنانديث إي غنثاليث، سبق ذكره، ص. 91.

تم إخضاع مرسية. وجه مورو إشبيلية اقتراحات عدة للملك القشتالي دون فرناندو الذي رفضها خدمة للدين والوطن مقتنعا بأن الحل الوحيد هو سفك دمائهم وإزهاق أرواحهم و مطاردة الباقين منهم إلى غاية استئصالهم والقضاء عليهم. وفي 23 من نونبر 1248 بعد قهرهم وإذلالهم أعطاهم مهلة شهر ليخرجوا من مساكنهم ويتركوا كل ممتلكاتهم إذ غادرها أكثر من ثلاثمائة ألف شخص فارين نحو إفريقية[1]. وفي 22 من الشهر الموالي دخل دون فرناندو إشبيلية وتحدث عن تفاصيل الحدث عدة مؤرخين عرب[2] ومسيحيين.

سنكتفي نحن بالإشارة إلا أن أسقف طليطلة، دون غتييريث، كان أول من قرع الأجراس في مسجدهم ورفع الصليب المقدس عاليا فوق صومعته. وهكذا انتهى حكم الموحدين بإسبانيا. ومن أجل استكمال الوحدة والنصر توجهت الجيوش المسيحية نحو سان خوان، روطة، خيريث، قادس، مدينة، أركوس، لبريغا، ميناء سانتا ماريا وكل سواحل البحر المجاورة لتلك الأراضي. لم تسجل أي مقاومة أو مواجهات في المدن المسترجعة، حسب بعض المصادر التاريخية، كما لو أن الصمت كان يريد أن يوضح بأن عملية الاسترداد تمت في يسر ومباركة من الرب. لم يقاوم المورو بعدما شاهدوا ما حصل بعد استسلام إشبيلية[3]، الأمر الذي عجل بنهاية المسلمين وانقضاء عهد الموحدين بإسبانيا.

أعطى كل من فرناندو، دون خايمي وبونيفار أوامرهم بتقوية أسطولهما البحري وحماية الشواطئ وحراستها و تسربت الإشاعة بأن فاتح إشبيلية سيجتاز البحر نحو إفريقية. وهكذا دخل حاكم فاس الذي هزمه المرينيون في مفاوضات أخوية مع دون فرناندو إلا أنه خلال إعطائه أوامره لأسطوله ليهزم المسلمين فوق ترابهم تلقى نبأ وفاة

(1) لم يغادر كل المورو المدينة وبقوا في إشبيلية كمدجنين، انظر **سيطرة العرب**، ج. الرابع، الفصل السادس، نقله فرنانديث إي غنثاليث، مصدر سابق، ص. 95.

(2) دون فرنانسيسكو بونس إي بويغيس، مؤرخون وجغرافيون عرب-أسبانيون، الفصل الرابع، ص. 519، مدريد.

(3) ج. 5، ص. 377 من كتاب تاريخ إسبانيا.

ملك فرنسا وهزيمة سان لويس بالمنصورة، فعدل عن قراره وقرر الثأر لتلك الهزيمة. منعه المرض من تحقيق حلمه وحاول الإبن إتمام رغبة أبيه بتعاون مع ملك إنجلترا لكن إحساسه بدنو أجله منعه من ذلك استعدادا لاستسلام الروح ولقاء ربه. يقول المؤرخون بأنه توفي بإشبيلية في 30 مايو 1252. كان معاصروه يلقبونه بالقديس، والكنيسة الكاثوليكية بواسطة اجتهاد مطرانها وأسقفها جعلت ذكره في سجل السعداء الأبرار وذلك بتاريخ 7 فبراير 1671.

لم يبق لنا ما نضيفه بعد موقف الكنيسة هذا إلا أنه لا بأس من التذكير بأن رسالة دون فرناندو جاءت مكملة لما بدأه دون خايمي الأول، وتوحدا في استراتيجية طردهما واستئصالهما للمسلمين واستردادهما وتقوية نفوذهما ليس في أراغون فحسب ولكن في ميورقة، بلنسية، ومرسية[1] أيضا.

(1) نفسه.



الفصل الثالث

دون خايمي الأول في أراغون / استرداد ميورقة / بلنسية ومرسية / التأثير الفعال والدور الريادي لدون خايمي في توسيع رقعة إسبانيا المسيحية.



مكث المستعربون الكفرة لأزيد من خمسة قرون تحث التأثير الإسلامي متسترين قبل أن يسطع عليهم نور المشروع الرائد الذي أرساه سان فرناندو بعد دخول قونقة. أراد ان يسترجع بلنسية إلا أن ملك المورو زيد بن أبي زيد سارع بالإستسلام وإبداء الولاء له. بعد علمه بالخبر وجه خايمي الأول رسالة لفرناندو الثالث يذكره بأن استرداد بلنسية يعتبر مهمة عرش أراغون وليس قشتالة. تراجع دون خايمي في سرقسطة بعد حملته ضد الفيكونت بياريي، حيث حبسه أتباعه ورجاله النبلاء الذين كانوا يرغبون في تسيير الشأن الأرغوني بأنفسهم. حسب المؤرخين كان الملك الشاب يتصف بالاحترام، لكنه لم يكن يكترث بما يدور حوله ولا يهتم بأشخاص محيطه وتحليل الأحداث التي تطرأ عليه، أي أنه لم يكن يتمتع بالأهلية الكافية لمزاولة تلك المهمة[1]. وبعد أن تعثر في الحصول على الدعم، قرر شن حملته ضد المورو .فعمل على إثارة الهمم بالتركيز على عقيدة الدين ضد الصليب وخدمة الوطن وتوحيد البلاد، وتوجه بالخصوص إلى الأغنياء من النبلاء والوجهاء ودعاهم إلى تناسي صراعاتهم من أجل تحقيق الهدف الأسمى، لتحقيق وحدة إسبانيا المسيحية وتطهيرها من المورو الدخلاء، الأمر الذي أكسبه قيمة وقوة[2]. وفي ساحة المعركة استرجع الملك هيبته وفاء لمبدئه وأفكاره، مثل دون خايمي رفقة ثلة من أتباعه الوجهاء المرموقين ودخل إلى نيسكولا في فاتح أكتوبر 1225، السنة نفسها التي خضع فيها أمراء بلنسية و بيثا والتزموا بأداء مستحقات مالية للملك مقابل حمايتهم، مما دفع الملك إلى سحب جيوشه المسيحية[3] من بنشكله[4]. لم يحترم بارونات أراغون كلمتهم ولا أوفوا بعهدهم ولم يلتحقوا بالملك في تيرويل حيث كان ينتظرهم لقيادة حملته

---

(1) شارل دو تورتولون، دون خايمي الأول، المحقق، ملك أراغون...ج. 1، ص. 150، الطبعة الثانية، بلنسية، 1874.

(2) تولون، سبق ذكره، ج. 1، ص. 151.

(3) بورييل، مذكرات حياة القديس الملك دون فرناندو، ص. 351.

(4) مذكرات الملك دون خايمي، طبعة بلنسية، 1557، مطبوع أرملة خوان ماي.

النهائية ضد بلنسية. كان دون بيدرو وأهونيس بدورهما يسيران نحو المدينة نفسها حينما صادفه دون خايمي في طريق ترويل ودعاه للمرور إلى بورباغينا ليتفقا على خطة ترضي الطرفين، واستعمل كل إمكانياته الدبلوماسية وسلطته لتهدئة الأجواء وإرضاء مختلف الأطراف. وهكذا قضى العشرين سنة من حكمه، تحت القيادة العليا للمجلس المقدس[1] . في تلك الفترة ، كان كل المسيحيين يرددون شعارا واحدا «الحرب ضد الإسلام»، وقد قاد دون خايمي حملته بأيادي من حديد لمواجهة القراصنة المسلمين على امتداد البحر المتوسط وجزر الباليار[2]. كان الهدف من وراء هذه الحملة ضد المسلمين إعلاء كلمة الرب والانتقام للصليب. وقد عبر عن ذلك صراحة في برشلونة سنة 1228 حينما طلب الدعم لاستتباب الأمن والاستقرار داخل المملكة وخدمة الدين وتطبيق تعاليم الإله، وطلب بتجسيد ذلك خلال حملة جزر الباليار[3]. لقد لاقى الملك إقبالا ودعما صادقا هناك وعقد اتفاقا مع بارونات ورجال الكنيسة في كاتالونيا[4] شهر مايو من سنة 1229 كتاريخ لانطلاق الحملة؛ إلا أن قدوم ابن زيد على الملك دون خايمي يطلب حمايته ضد ابن زيان، جعله يغير خطته إذ كان على وشك محاربة مورو بلنسية[5].

إلا أن القسم الذي قطعه كل من الأراغونيين والكتلانيين في الكنيسة المقدسة من أجل إعلاء الصليب جعلهم يتبعون أوامر الملك والتوجه خلفه إلى سالو في اتجاه ميورقة يوم أول أربعاء من شهر شتنبر سنة 1229. كان السفر قصيرا إلى الجزيرة إلا أن الظروف الجوية حالت دون التقدم. أخبر البحارة الملك بأن الاستيلاء على تلك الأراضي شبه

---

(1) تورلون، سبق ذكره، ج.1، ص. 181.

(2) دون برناردينو مييديس في مذكرات دون خايمي، ص. 87. تتكون من عشرين كتابا، طبعة بلنسية 1582.

(3) المذكرات الملكية، فصل 37.

(4) وجدنا المذكرات والوثائق المذكورة ضمن مجموعة وثائق غير منشورة في أرشيف مملكة أراغون، ج. 6، ص. 95 و 98، و ج. 11، ص. 3، تثبت بأن تلك الحملة كانت قاتالونية وليست أراغونية. الأمر نفسه أكده تورتولون، سبق ذكره، ج. 1، ص. 198 و 199، أكد الكاتب بأن تدخل الأراغونيين جرت لاحقا وكانت بصفة انفرادية ولم تكن لها صبغة لا سياسية ولا وطنية.

(5) ثمانية أيام بعد الاتفاق الذي عقده زيد و دون خايمي يوم 21 أبريل سنة 1229 الذي بموجبه سيتم دخول بلنسية، انفصل دون خايمي عن دونيا ليونور ، وبهذا انصرم العهد المبرم بين مملكتي قشتالة وأراغون.

مستحيل نظرا لأحوال الطقس، لكنه ذكرهم بقسمهم لخوض هذه المعركة باسم الرب والانتصار للدين المسيحي[1]. الأمر الذي ألهب مشاعر الجنود وحمسهم لاستنهاض هممهم واستجماع قوتهم، وبعد تعرفهم على أحوال الشاطئ. رست بعض فرق جيوش الملك في ساتنا بونثا دون أن يستطيع المسلمون التعرض لها وكان بيرنات روي دي ميبا أول من وطيء ذلك التراب ونصب الصليب فوق ربوة قريبة من البحر، إلا أن القادة لم يلبثوا أن تصارعوا من أجل هذه الأراضي المسترجعة. عندما علم المسلمون بالأمر اقتربوا من الشاطئ وواجهوهم بقوة، الأمر الذي دفع برامون دي مونكادا بالتوغل نحوهم مثل الأسد الجريح الذي ينزف ليكبدهم خسائر فادحة ضمن جيوشهم التي بلغت 1500 جندي[2].

ثم انطلق بعد ذلك كالسهم لإخبار دون خايمي بالأحداث الذي فرح كثيرا وصرخ: «يا للأسف لم أكن حاضرا خلال النصر الباهر لأكون أول الداخلين إلى ميورقة»[3] «وطلب من جيوشه أن يتقدموا لتعقب أثار المورو الفارين. لقد كانت الرغبة الحربية شرسة لدى الملك، الذي رغم بعض الهلع، كان يصر على أن يتقدم الصفوف في حملاته العسكرية ضد المسلمين المورو»[4]. وفي 2 من شتنبر لم تفتأ تلك الثلة القليلة من المورو أن استسلمت لسلطة دون خايمي، إلا أن أمير تونس قرر أن يوجه حملة نحو ميورقة لإنقاذ الإسلام في إسبانيا ومساعدة مورو مورسية، دانية وبلنسية.

فرح الملك بانتصاراته وانطلق نحو بلنسية وقد أقسم بتشريد المسلمين واستئصالهم. كان يرى بأنه يجب على الجيش القشتالي إخضاع مسلمي غرناطة وعلى الفصيل الأراغوني هزم المورو البلنسيين. كان يسعى من وراء ذلك إلى تخليد ذكراه في تاريخ الاسترداد الإسباني: «كان يقيم في خيمته العسكرية التي شكلت قصره الوحيد، وهمه الشاغل هو

(1) مذكرات دون خايمي، فصل 3.

(2) تورتولون، سبق ذكره، ج. 1، ص. 213.

(3) الوثائق الملكية، الفصل 58.

(4) مذكرات، سبق ذكره، الفصل 64.

مطاردة المورو وقض مضجعهم وأمنهم في عقر دارهم، إذ قبل أن ينتهي من معركة يكون قد خطط لأخرى لاحقة»[1].

عاش العرب الأسبان لمدة قرون في أمن وأمان ببلنسية ونواحيها إلا أن جاء الموحدون فهددوا أمنهم وتواجدهم[2]. وفي الثلث الأول من القرن الثالث عشر وتحت إمارة بني هود المنحدرين من سلالة آخر الأمراء بسرقسطة اشتد الصراع بينهم وبين القادمين الجدد من إفريقية وبقيت أحداث تاريخية كثيرة شاهدة عصر على هذا النزاع مثلما وردت أحداث اقتتال بين ابن زياد ضد أبي زيد المورو القادم من المغرب. بدوره دون خايمي لم يرد أن يضيع الفرصة والعرض الذي عرضه عليه بنو زيان ضد زيد، وذلك لتسهيل إستراتيجيته الحربية المستقبلية ورغبته الحقيقية في ضم بلنسية إلى حكمه والتي كان يعشقها من خلال الوصف الذي قدمه له دون بلاسكو بحضور العالم المعلم دون هيغو دي فلالكير[3].

تقدم دون خايمي على رأس جيوشه التي لم تكن تتجاوز 120 فارسا مقاتلا وبعض المرافقين لهم وكله رغبة في غزو معاقل المسلمين، توجه نحو بريانة وحاصرها حيث وصلته بعض التعزيزات قادمة من تيرويل ووسع نفوذ الحصار استعدادا لشن الحرب، لكن نظرا للحرج الذي أصيب به الملك، قبل عقد اتفاق مع مورو بايسكولا قبل أن يعود إلى كاتالونيا .

وفي سنة 1236 قاد حملات جديدة فتوجه نحو إنيسا واستولى على قلعة بويغ دي سيبويا نظرا لأهميتها وموقعها الإستراتيجي خصوصا وأنه من خلالها يمكنه مراقبة تحركات بني زيان نظرا لقربها من مجالهم الترابي. كان يخطط كذلك للاستيلاء نهائيا على

---

(1) تورتولون، سبق ذكره، ج. 1، ص. 267.

(2) دون خوليان دي ريبيرا، القبائل العربية في مملكة بلنسية، ج. 1، عدد 11 من مجلة الأرشيف.

(3) كانت هامة وشاعرية تلك الأوصاف التي رسمها الفارس دون بلاسكو دي ألاغون لدون خايمي وهو يحدثه عن بلنسية وجمالها. انظر الوثائق الملكية، الفصل 2.

بلنسية، إلا أن بني زيان لم يكونوا ليتركوا جيوشه تنعم بالأمان في القلعة فأخبره بعض رجاله، خصوصا المنسوبين منهم للكنيسة ونصحوه بضرورة الانسحاب، فأجابهم وهو يصرخ : «كيف يمكننا الخروج من قصر كهذا بعدما بذلنا كل هذا الجهد لاحتلاله[1].

أمام إصرار دون خايمي هرع بنو زيان لإعلان ولائهم وخدمتهم له خوفا من استئصالهم ومطاردتهم. لكن الملك المسيحي رفض اقتراحهم وقال لمبعوث أمير المورو: «بما أننا قد وصلنا إلى نقطة متقدمة نحو بلنسية لدخولها سنستولي على الدجاجة الحاضنة» ثم نصبح بعد ذلك أسيادا، ملاكين طبيعيين لفراخها[2].

خرجت ساكنة قرى متعددة لاستقبال الملك الفارس الفاتح لتعرض عليه ولاءها واستسلامها، فقبل عرضهم وهو ينظر إليهم نظرة المستسلمين المهزومين. وعن ذلك قال تورتلون : «كان دون خايمي حكيما في مثل هذه المواقف، لم يكن ليثنيه عن عزمه في دخول بلنسية أي عائق لكنه قبل استسلام وهدنة المورو حقنا وحفظا لدماء جيشه المسيحي لكن عزمه على دخولها قائم لا يتزحزح. احترم عقيدة وعادات وممارسات المسلمين الذين أفسحوا له مجال ترابهم للوصول إلى مبتغاه، وبدل أن يفرض على أمراء هذه الممالك ضرائب وأموال يؤدونها له قدم لهم خدمات وامتيازات كبيرة[3].

وباسم الرب نصب خيام موكبه في غراو أمام بلنسية منتظرا وصول التعزيزات من أراغون وكاتالونيا، في الوقت نفسه تقدم الموحدون واستولوا على الرصافة[4].

حاصر دون خايمي المدينة واستولى رجاله على إحدى القلع الهامة وبدا استسلام المدينة وشيكا. انتظر زيان الإمدادات والعون من المدن الأندلسية، لكن القوات القادمة من تونس لم تستطع الاقتراب من بلنسية فتوجهت نحو بنييسكولا حيث طردها وشردها

(1) وثائق تاريخية، احتلال بلنسية، الفصل 68.

(2) مذكرات ملكية، الفصل 60، ص. 72، دخول بلنسية.

(3) مصدر سابق، ج. 1، ص. 305-306.

(4) مصدر سابق، الفصل 139 من دخول بلنسية.

المسيحيون.

عاش المحاصرون ظروفا عصيبة وقلت المؤونة والزاد عنهم بينما توفرت بكثرة عند محاصريهم الذين توصلوا بإمدادات جديدية، ألف فارس وستين ألف مقاتلا. وخلال المعركة حينما حمى الوطيس، أصيب الملك واخترقت نبلة جبهته، انتزعها بكل شجاعة وهو ينزف ويبتسم لأنه يقوم بدوره ويخدم دينه ويرضي ربه من خلال قتال المسلمين. استمر في تحفيزه للجيوش لمواصلة الحصار وتقاطرت عليهم النبال والسهام من ثقب أسوار القلعة وبنو زيان يتفاوضون معه مباشرة من أجل إيقاف نزيف الدم وإقرار السلام. إلا أن الملك أصيب بخيبة أمل وكتم غيظه حينما تفرق أتباعه لاقتسام الغنائم متخلين عن رسالتهم الحربية الأساسية، ولم يحض بثقته سوى زوجته دونيا بيولنتي.

لم يتأخر ابن زياد في إيفاد مبعوثين إلى المعسكر المسيحي، ليعرضوا عليه اقتراح الأمير فطالت المشاورات والمداولات بينهما وانتهى هذا اللقاء دون التوصل إلى حل واستمر الحصار.

بعد ثلاثة أيام انطلقت المفاوضات من جديد وفهم الملك أن البارونات المحيطة به تعرقل بدورها استسلام المدينة وتتخاذل في دعمه فنصحته دونيا بيولنتي بالتريث بعض الشيء، وفي 28 من شتنبر 1238 تم التوقيع على اتفاق مبدئي للهدنة بشأن بلنسية[1].

غادرها ما يزيد عن خمسين ألف مسلم إلا أن المدجنين الذين مكثوا بها لاقوا معاملة حسنة واحتفظوا ببعض ممتلكاتهم كما يبدو ذلك في سجل «الممتلكات» المتعلق بتلك العاصمة. قبل الماكثون في المدينة بالأحكام التي تم الاتفاق عليها في العقد المبرم بين الطرفين: الغالب والمغلوب. إلا أن الحقائق التاريخية أثبتت أن هؤلاء لم يحترموا لا مواثيق دولية ولا داخلية نظرا لتكوينهم وجشعهم على جميع المستويات. اضطر الملك خايمي لقطع معاهدة الصلح والهدنة معهم وطردهم شر طردة.

(1) مريانو فلوتاتس و دون أنطونيو بوفارول، تاريخ ملك أراغون، دون خايمي الأول، ص. 311 و 312، مجموعة وثائق غير منشورة من طرف سالبا إي سانث دي بيراندا، ج. 18، ص. 84-86 ومراجع أخرى.

امتطى الملك الفذ صهوة جواده ودخل أبواب مدينة بلنسية فاتحا، دمعت عيناه فرحا وهو يتخطى عتباتها ويرى الصليب المسيحي ورايتهم ترفرف فوق قلعة «علي بوفات» في هذا اليوم المشهود، التاسع من أكتوبر [1] 1238.

لم يكن دون خايمي مقاتلا مغوارا ومحظوظا فحسب، بل سياسيا محنكا ورجل قانون متعقل رزين. لم تكن ممارساته الديمقراطية اتجاه البلنسيين تمت بصلة لما كان يراه الأرغونيون و الكتالونيون؛ حتى اللغة والعبارات التي صيغت بها القوانين المنظمة للعيش في بلنسية كانت تنم عن حكمة المشرع البالغة[2].

وهكذا استولى دون خايمي على الدجاجة الحاضنة وأخضع تباعا الفراخ وكذلك الديكة منها التي حاولت المقاومة من أجل حريتها. مكث في المدينة إلى غاية مايو 1239 إلا أن الإشاعات الواردة من فرنسا جعلته يجتاز جبال البرانس. وبقي في المدينة غيوم دي أغيلو الذي استولى على قلع وقصور هامة من بينها قصر ريبوليت ذي الموقع الإستراتيجي المتميز الذي سرعان ما آل إلى سيطرة القبطان كروث [3].

ونظرا لهذه الصراعات والنزاعات المتكررة بين المسيحيين و المسلمين الثوار فإن التأثير بلغ للذين لهم عهود سلام واتفاقيات وئام لأن الحكمة كانت تحتم ألا يتركوا في أمن وسلام حتى لا تتقوى شوكتهم ويشتد عودهم وتمتد أعناقهم[4]. رغم أن الملك خايمي كان يعاقب من ينقض تلك العهود إلا أن كل المسيحيين كانوا يكنون كراهية شديدة للمسلمين ولم يعيروا بالا لأوامره وتعليماته. كان هذا أيضا من بين الأسباب التي عرقلت ومنعت تمازج الجنسين وانصهارهما. وبعد هدوء عاصفة الحزن انتقل الملك دون

(1) مصدر سابق، الفصل 30، دخول بلنسية.

(2) غييرمو جافير، رجل قانون في القرن الرابع عشر، كتاب حول مملكة بلنسية، ج. 4، طبع في مدريد من طرف خوليان دي باريديس، سنة 1677 وآخرون.

(3) نشره دون روكي شاباس ضمن العدد الثاني، ج. 2 من مجلة الأرشيف، وتوجد نسخة منه في مكتبة الكونت دي تريغونا.

(4) تورتولون، ج. 2، ص. 26 من المصدر السابق.

خايمي إلى مدينته المفضلة والمعشوقة، مدينة الورود والزهور وجهز جيوشه لتلك الحملة ضد قصر بيرين الذي لم ينصع حاكمه لطلب زيان[1]. اضطر في النهاية للإستسلام نظرا للظروف المحيطة به وتبع قواد وأمراء قصور أخرى مثل فيلالونگا، بورو، فيليلا وڤالما[2]. كما دخلت بعض الفيالق الأراغونية مملكة مرسية، وكانت تلك أول محاولة لهم بالمدينة.

حلت أحداث أخرى استدعت حضور دون خايمي في كاتالونيا وأراغون[3]، وحتى يواصل غزو بلنسية ترك على رأسها دون رودريغو لثانا، إلا أنه سرعان ما طلب التوجه نحو شاطبة لتخليص دون بيدرو دي ألكلا وخمسة فرسان آخرين، كان المورو قد أسروهم في تلك المدينة.

لا يمكننا أن نصف بالخيانة موقف دون غارسيا دي روميو الذي أشار على الملك بإخلاء قصر كاستليون شاطبة لصالح المورو مقابل إطلاق سراح دون بيدرو دي ألكلا ورفاقه[4].

اضطر الملك أن يرجع لموطنه مرة ثانية وذلك لمدة سنة تقريبا[5] ولكنه ترك على رأس بلنسية هذه المرة إكسيمن بيريث دي تراثونا. خلال عودته عرض عليه مورو ألثيرا مراسيم الولاء والطاعة حينما علموا بانتصارات الملك المتتالية والقوانين الإيجابية التي سنها لصالح المسلمين الذين عاهدوه في أرتانا، إسليدا، أهين بيو، سنغير، ايلميس، زويرا سنة 1242 [6]. سافر بعد ذلك دون خايمي إلى منوليي ليعيد الكرة في نونبر 1243 في اتجاه شاطبة، بوغارّا و ساكس، إلى أن وقع معاهدة ألميثرا، وواصل دون خايمي عملية استرداده لمملكة بلنسية. استولى على شاطبة، ثم جاء قائد المورو بعد

(1) وثائق ملكية، الفصول 17، 18 و 19 من دخول مرسية وبلنسية، ص. 333-334.
(2) بالإضافة إلى الفصل 17 من الوثائق، انظر مجلة الأرشيف، رقم 17، ج. 1.
(3) زواج الطفلة دونيا بيولانتي، ابنة دون خايمي بفارس قشتالة دون ألونسو، ابن ووريث سان فرناندو.
(4) وثائق ملكية، الفصل 30 من دخول بلنسية ومرسية، ص. 337.
(5) سبق ذكره، الفصل 37، ص. 137.
(6) وثائق ملكية، الفصل 38، ص. 138.

ذلك يعرض عليه القلعة. وثق الملك بوعده إلا أنه واجهته مقاومة من طرف المسلمين فحاصرها وأخضعها بعد خمسة أشهر. بعد كل تلك الحروب وتلك الأقاليم المسترجعة ماذا بقي للمسلمين في إسبانيا؟ انعزلوا في ركن بعيد ومنعزل من تراب الأندلس ليؤدوا الصلاة في ظل الصليب المسيحي، وهكذا بعد ستة قرون من المواجهات والحروب تحقق الحلم المسيحي في الأندلس من جديد. كل القوانين التي سنها المشرع في محاولة لجمع وتآلف الجنسين وانصهارهما باءت بالفشل الذر يع؛ أريقت الدماء وأزهقت الأرواح ومزقت الأشلاء من أجل تحقيق وحدة الدين والوطن، لكن النتيجة جاءت معكوسة في كل الأحوال فلم يتحقق ذلك أبدا قط. لم يغفر المسيحيون للجنس المهزوم مناوراتهم وفتنهم التي ما فتئوا يشعلون فتيلها في كل مكان، لم يدعوهم يهنؤوا بالأمن والأمان، لم تكن لتنطفئ نار الفتنة إلا ليشعلوها لاحقا في مكان آخر، كذلك كان شأن المورو في إسبانيا. أما الذين قدموا الولاء والطاعة للملك فقد سمح لهم بمزاولة شعائرهم وعاداتهم مقابل الإخلاص والوفاء بالعهد له. لعب الشعور الديني دورا مهما في توحيد الأصوات والرؤى ضد المسلمين في إسبانيا وكان أمر تتبعهم ومطاردتهم واعتقالهم أمرا حتميا لا مفر منه للحفاظ على وحدة البلاد وضمان أمنها واستقرارها. «بقي بيننا المدجنون والمستعربون إلا أن التجانس بيننا لم يتحقق قط». ولولا الدور الريادي الذي قامت به محاكم التفتيش لما كانت لتصمد حضارتنا وثقافتنا وديننا أمام كل تلك الأحداث المتتالية[1].

سن دون خايمي لتاروخا قوانين في فبراير 1233 [2] لاستتباب الأمن في المنطقة وتسيير أمورها. لا نتصور أن احدا من النقاد الموضوعيين سيعيب على قائد حملته استرداد بلنسية وإرساءه لمحكمة التفتيش. بدوره كان دون فرناندو الثالث صارما اتجاه اللصوص، الكفرة، المشاغبين الذين يخلقون الفوضى باستمرار و يبثون الرعب ويهددون

---

(1) مينينديث بيدال إي بيلايو، تاريخ...، ج. 1، الكتاب الثالث، الفصلين 2، 7 والتقديم.

(2) نشرت هذه القوانين في النموذج الاسباني، من طرف مارتيني، ماوري مينينديث وبيلايو.

الأمن العام. «كان السبب في ذلك قسوة الظروف والأوضاع الاجتماعية في إسبانيا كما هو الشأن في باقي مناحي العالم[1].

لا أحد ينكر أنه حينما استرجعت طليطلة كانت عملية الإسترداد في صباها، وفترة الشباب مع عودة إشبيلية ومرحلة البلوغ في استرجاع ميورقة والنضج مع دخول بلنسية ومرسية، وبذلك تحققت خطوات جريئة نحو الوحدة الدينية للبلاد. كانت أراغون وقشتالة تمثلان آنذاك كل شبه الجزيرة الأيبيرية باستثناء غرناطة التي كان يحكمها المسلمون. في تلك الفترة ازدهرت الحياة الفكرية لإسبانيا، إذ أقام فرناندو الثالث جامعة سلامنكا، وتقرر تدريس لغة الرومانثي القشتالية كلغة رسمية، واعتمد ملك أراغون الرومانثي الكتلاني كلغة للتداول والكتابة كما كرس جهوده لحماية أدب التروبادور وكتابة مذكرات حياته بتلك اللغة[2] وأقام معهدا لتدريسه في بلنسية[3].

عرفت إسبانيا في تلك الفترة قوة ومكانة بين مختلف أقطار أوربا حتى أنها كانت تعرف بحقبتها الحديدية وهنا لا يمكننا أن ننكر دور دون خايمي في بناء هذا الصرح العتيد، لقد كانت لهزائم ملوك المورو نتائج إيجابية على وضعية البلاد والعباد وتحقيق وحدة التراب والدين على يديه. كان جل المسيحيين لا يحبذون تواجد المولدين أو المدجنين الذين خرجوا من صلب مسيحي، ليقينهم بأنهم يتحينون فقط الفرص للانقلاب ضد النظام السائد، نظام الغالب. كانوا لا يتوانون في التنسيق مع قراصنة الضفة الأخرى للإغارة على تراب شبه الجزيرة الأيبيرية. لم تنفع معهم لا معاهدات السلام ولا حد السيوف ولكن العناية الإلهية وبركة الصليب جعلت الإسبان يتخلصون منهم ويسحقونهم، كان ذلك فعلا بفضل معجزة السماء ، حروب وصراعات دامت لأزيد من ستة قرون.

استطاع بيدرو دي نولاسكو أن يؤسس منهجا خاصا لتخليص الأسرى، تبعته

(1) تاريخ إسبانيا، ج. الخامس، ص. 451 وما يليها.

(2) رسائل تاريخية ونقدية، ج. 4، ص. 228، طبعه في بلنسية بينيطو منفور سنة 1800.

(3) دراسات قديمة وحديثة، طبع في بلنسية من طرف خوسي دي أرغا، 1804.

في المنحى نفسه مدن أخرى كقتلونية، بلنسية، أراغون وقشتالة التي أسست الأديرة وقوت المعاهد الدينية وجاس المسيحيون خلال ديار وقصور المورو ليخلصوا المسيحيين الأسرى. استمر هجوم القراصنة الأفارقة على شواطئنا مع استمرار تواجد ذلك الجيش المندس بيننا. كان المسلمون يردون على انتصارات وتسامح ملوكنا بالتمرد والعصيان والفرار.

انفجرت سنة 1261 ثورة بالأندلس في مرسية انهزم خلالها الجيش القشتالي في قلعة ابن زيد مدعوما ببني الأحمر في غرناطة. وفي 1248 استطاع بعض المسلمين المتمردين استرجاع بعض القصور والقلع ببلنسية من يد خايمي الثاني وهم يعلنون تحديهم لملكه وحكمه. إلا أنه طرد عددا كبيرا منهم فخرجوا فارين في اتجاه مرسية[1].

بقي تحت سيطرة دون خايمي من رضي بالهدنة سنة 1253 إلا أنهم كانوا في ترقب دائم للتمرد من جديد بمساعدة أمراء غرناطة والمغرب وتركيا الذين كانوا يضعون رهن إشارتهم جيشا من المسلمين مستعدا للتدخل في بلنسية متى أشاروا. حصل ذلك سنة 1276 حينما كان الملك دون خايمي مريضا في ألثيرا على فراش الموت، إلا أن إيمانه جعله يكلف ابنه دون بيدرو بالخروج إليهم لمحاربتهم فشردهم ورمى بهم خارج مملكة بلنسية[2].

لم يكن الملك ليمت ويدع في مدينته المعشوقة ذلك الجنس الماكر الخادع، فرماهم خارج أسوارها ليستأصل وجودهم من تراب مملكته. كان واجب الملك والدين يحتمان عليه ذلك السلوك وحاصرهم في أحياء نائية بجوار اليهود بعد عزلهم عن الساكنة المسيحية. وبعد وفاته خلفه ابنه دون بيدرو الذي عمد إلى تنصيرهم وأوكل المهمة إلى خوان دي بويربينتوس الذي كان يتقن اللغة العربية[3] و يعلمها في المعابد والأديرة ببلنسية ليسهل

(1) وثائق ملكية وتولون، سبق ذكره، ج. 2، ص. 227 وما يليها.

(2) سبق ذكره.

(3) القرار الملكي 1279، إسكولانو مراحل من تاريخ مدينة ومملكة بلنسية.

عملية التنصير والتعريف بالدين الكاثوليكي[1]. كان يدعوهم للبقاء وإعمار بيا ريال بعد اعتناقهم للدين المسيحي الجديد، ووعدهم بإعطائهم امتيازات خاصة مقابل ذلك[2]. تصدى كذلك لفيليبي الذي كان يبسط نفوذه على قتلونية[3]. كانت غاية خايمي الثاني تثبيتهم على العقيدة المسيحية فأصدر قرارا بذلك في نونبر 1297 وعمل على نشر العبرية والعربية في الكاتدرائيات والأديرة وخصوصا في شاطبة لتعليم اليهود والمورو. أمر الملك بأن يخالف المورو المسيحيين[4] في طريقة ركوبهم للفرس[5] ولباسهم[6] وفي رسالة ملكية مؤرخة ب 15 أبريل 1298 ، كما أعطى أوامره بمحاكمة المورو الذين يخالفون القوانين السائدة ويحدثون الأعراف المتداولة بينهم سابقا. لم تبق الكنيسة الكاثوليكية مكتوفة الأيدي ولا محايدة أمام ما يجري في إسبانيا من محاولة دمج الغالب والمغلوب، فمهدت إلى عملية تنصيرهم انطلاقا من أوامر البابا كلمينتي الخامس في مجلس الأساقفة بفيينا الذي دعا سنة 1311 لإنشاء كاتدرائيات يهودية، عربية بمختلف الجامعات من بينها جامعة سلامنكا[7]. منع المسلمون، الذين بقوا على دينهم، من ذكر أسم محمد جهرا والآذان للصلاة في مساجدهم وأضرحتهم[8]. انطلاقا من هذا القانون سن الملك دون خايمي الثاني حكما آخر مشابها ببلنسية يمنعهم هناك من المناداة جهرا للصلاة والأذان بها، وكل من ضبط يصلي في أماكن عمومية يتعرض لأقصى العقوبة. القوانين نفسها انتهجها ملك قشتالة وأراغون خلال القرن الرابع عشر[9]. ولكن مع استمرار هجوم

(1) وثيقة ضمن أرشيف تاريخ أراغون، مج. 42، ص. 137 ورقم 44، ص. 193.

(2) نفسه، ص. 206.

(3) برنات ديسكلوت، تاريخ كاتالونيا، الكتاب الثالث، ج. 4، نشره سيباستيان كوملياس، برشلونة، سنة 1616.

(4) أسكولانو، سبق ذكره، الكتاب العاشر، الفصل 1، ص. 637.

(5) صدر ذلك التشريع سنة 1301، دياث دوكس، استعمال وملاحظات في أراغون، ص. 505.

(6) نفسه.

(7) كربوس، خوريس كانونيثي، ج. 2، ص. 246.

(8) سبق ذكره.

(9) إسكولانو، سبق ذكره، الكتاب العاشر، الفصل الأول، ص. 637- 638.

القراصنة الأفارقة على شواطئ ليبانتي تم تشديد الخناق على المورو، فخيروا بين الدخول في الدين الجديد، أن يصبحوا عبيدا أو أحرارا إذا خضعوا لقانون بلنسية المسيحي. وفي سنة 1331 صدر قرار الملك ألفونسو بطرد المدجنين أنفسهم من بلنسية لأنه كان يعرف بأن المورو يوفرون الحماية للقراصنة[1]. وقد طلب البلاط من الملك السماح لهم بتجنيد الساكنة لمواجهتهم وطردهم نحو الشواطئ حيث يحتمي القراصنة وقد سمح لهم بذلك في نهاية 1386 بعد عمليات متكررة للقراصنة في اتجاه شواطئ بلنسية[2]، وحول استحالة توحيد الجنسين نذكر نموذجا هاما، رغم القوانين والتشريعات لصالحهم وحمايتهم، كانت النتائج سلبية، إذ مباشرة بعد وفاة القسيس بثينتي فرَّير شاهد المسيحيون نماذج مخزية صدرت عن النصارى الجدد، علامات النفاق والرياء بادية في كل سلوكهم. مباشرة بعد موت الأسقف رأى المسيحيون أن اليهود[3] والمسلمين يسارعون بالعودة إلى عقيدتهم وعاداتهم وفي سنة 1455 تعرض حي المورو إلى حريق مهول. لم يكن ذلك المشهد غريبا في المجتمع الإسباني خلال القرن الخامس عشر إذ كانت ظروف العيش مضطربة نظرا لإهانة المقدسات واستباحتها[4]، بسبب الردة[5] ووحشية المسلمين[6]. على الرغم من أن تلك الممارسات قد قلت لاحقا فقد عمل الملك على سن أحكام صارمة ضد المورو الذين حاربوا المسيحية لقرون عدة.

تعجب ملك أراغون عند وفاة الأسقف سان بثينتي فرير حينما ارتد حوالي سبعة عشر ألف من المسلمين واليهود الذين كانوا يتظاهرون بإتباع التعاليم التبشيرية البلنسية، الأمر الذي دفعه إلى التوجه نحو البابا مارتينو الخامس وطلب منه تنصيب محكمة التحقيق

(1) ثوريتا، مملكة دون بيدرو دي أراغون، ص. 136.

(2) إسكولانو، مراحل تاريخ بلنسية، الكتاب العاشر، ص. 369.

(3) اتخذت تدابير قمعية ضد اليهود في كل من بلنسية، قرطبة، طليطلة، سرقسطة، برشلونة، لاردة ومدن أخرى. انظر أدولفو دي كاسترو، تاريخ اليهود في إسبانيا، ص. 82 وما يليها، طبعة قادس 1847.

(4) يوميات ألفونسو الخامس، جامعة بلنسية، منشورات أدبية، ص. 34-37.

(5) اسكولانو، الكتاب العاشر، الفصل الأول، ص. 638.

(6) أسكولانو، سبق ذكره، ج. 2.

في بلنسية، التي لم يكن بها إلى ذلك الحين سوى محقق وافد من برشلونة[1]. خلال سنة 1420 تم تعيين أندريس راس محققا في بلنسية، وقد شهدت فترته كثيرا من المتاعب إلا أنه استطاع أن يتغلب عليها بتنصير عدد مهم من المسلمين واليهود خصوصا التابعين لمجال نفوذه. لم تكن كل تلك التدابير لتحد من ممارستهم لشعائرهم وتعاونهم مع قراصنة إفريقية ضد المسيحيين وملوك أراغون وقشتالة على أمل إحياء الحكم الإسلامي من جديد في إسبانيا. رغم القوانين التي سنها دون خايمي ومن تبعه من الملوك من أجل توحيد الجنسين كانت النتيجة سلبية. أمام فشل سياستهم في هذا المجال استعان الملوك بالعناية الإلهية التي كانت كفيلة بنصرهم والتغلب على عدوهم.

(1) إسكولانو، الكتاب العاشر، الفصل الثاني. ص. 342.

الفصل الرابع

الملوك الكاثوليكيون -إرساء محاكم التفتيش- استرداد غرناطة- طرد اليهود- تمرد المورو في البشارات- بوادر المسألة الموريسكية- بعدها القانوني وطابعها الديني.



اختلف المؤرخون في تقييمهم لمرحلة حكم فرناندو الخامس وإسابيل الأولى. يعتبرها دون مانويل دانبيلا من «أزهى وأرقى مراحل التاريخ الوطني لإسبانيا، لأن وضع البلاد قبلهم كان سيئا، رديئا ومضطربا خصوصا خلال مرحلة حكم إنريكي الرابع الذي لولا العناية الإلهية لآلت كل البلاد للهلاك. في عهد الملوك الكاثوليكيين عرفت إسبانيا أوجها نظرا لمواقفهما الحاسمة التي سعت لجمع شمل المواطنين وتحقيق وحدة البلاد»[1].

بينما وصف آخرون فترة حكم فرناندو الخامس بالمخزية وأرجعوا كل أمر مشرف في تلك الحقبة إلى إيسابيلاًّ: «كانت امرأة مقتدرة و لامعة، حضيت بتقدير كبير من طرف الجميع، كان لها الفضل في القضاء على المتوحشين والمنافقين وفرضت قداسة العبادة للرب وإعلاء الصليب وقهرت أعداء الدين الذين يقضون كذلك مضجع الأموات في مثواهم الأخير»[2].

بفضل توحد عرش ملكي أراغون وقشتالة استطاعت إسبانيا أن تشق طريقها القويم نحو وحدتها الترابية والدينية وانتصر فكر الجهوية ضد الفيودالية التي كانت تهتم بمصالحها وامتيازاتها الخاصة فقط.

كانت نافارا وغرناطة تغردان خارج سرب الوحدة الوطنية للبلاد، فركز الملوك الكاثوليكيون كل اهتمامهم عليهما ولم يلبثوا أن استولوا على المملكتين. إلا أنهم عملوا قبل ذلك على توحيد العقيدة والدين لأن حرب الاسترداد في جوهرها إنما هي حرب دينية صرفة. تم انتقاء ثلاثة أساقفة أكفاء للسهر على تتبع أحوال النصارى الجدد ومعاقبة المرتدين والسحرة المشعوذين.

وفي أكتوبر من السنة نفسها، خلال وجود الملوك الكاثولكيين في قرطبة وصلهم خبر

(1) محاضرات، ص. 41-42.

(2) تاريخ اليهود في إسبانيا، ص. 108.

ردة ستة يهود كانوا قد تنصروا ولكن سرعان ما كوَّنوا خلية سرية خاصة بهم في إشبيلية. كانت الكراهية ضد اليهود سائدة ومنتشرة بين الساكنة، كما أن الكاردينال مندوثا وجه عدة نصائح للملكة بهذا الشأن. وفي سنة 1479 تم تشكيل لجنة مكونة من الأسقف ميغيل مِوريو، خوان دي سان مارتين، الدكتور خوان روي دي ميدينا، قاضي خزينة المملكة، ودون خوان لوبي دي الباركو وكيل المملكة من أجل رصد قضايا الزندقة والردة والشعوذة. طلب الملوك الكاثولكيون عقد القداس الأعظم للبث في مسألة أعداء الدين والمشعوذين وملاحقتهم بالنار والحديد[1].

شعر اليهود باقتراب العاصفة التي تهددهم، فتم استدعاء يهود إشبيلية وقرمونة الذين تنصروا من طرف أبناء جلدتهم دييغو دي سوسان، مانويل ساولي، بورتلومي دي توراليا للتفاوض بشأن العفو في حق سبعة عشر ألف رجلا.[2]

حاولت الكنيسة إصدار عدة مراسيم من أجل تصحيح ذلك الوضع وتعديله، مرة برفع عدد المحققين في محكمة التفتيش، تارة أخرى بتشديد العقوبة على الخارجين عن سيطرتها، وأخرى بتعيين أسقف إشبيلية دييغو إنريكي، قاضيا وحيدا فيما يتعلق بالقضية الدينية، ومرة أخرى إصدار تعليمات للملوك بتطبيق بعض الأحكام والقوانين إلى أن تم تعيين سنة 1483 المحقق العام الناطق باسم القصر وعرش قشتالة القسيس فراي توماس دي توركيمادا، الذي بقي رئيسا للمجلس الأعلى لمحكمة التفتيش بإسبانيا[3].

ولمعرفة حقيقة محاكم التفتيش لابد للباحثين أن يتناولوا بالدراسة العميقة تلك الظاهرة في تلك الحقبة الهامة والحاسمة من تاريخ إسبانيا. وعن كل هذه التدابير المتخذة يقول أحد المؤرخين: «بفضل كل هذه القوانين استطاع الملوك الكاثوليكيون ترسيخ مبدإ

(1) دون خوسي أمادور دي لوس رييس، التاريخ الاجتماعي، السياسي والديني لليهود في إسبانيا والبرتغال، طبعة 1876، ج. 3، ص. 247.

(2) أمادور دي لوس ريوس، سبق ذكره، ص. 252.

(3) لورينتي دون خوان أنطونيو، وثائق حول حرب الاسترداد في إسبانيا، ج. 2، مدريد 1812-1813.

القوة وتقوية أسس الملك التي يقوم عليها الحكم، تحسيس الإسبان وتحفيزهم لاحترام القانون وحب العدل والعمل ومسح مخلفات مراحل الحكم السائدة والنقط السوداء في بعض صفحاتها. كانت هذه المبادئ بمثابة المرتكزات الرئيسية التي قام عليها إيسابيل وفرناندو»[1]. وفي قانون صدر يوم 7 يناير 1469 ورد الآتي: «لا يمكننا إلا أن نتفق على حل واحد، القضاء النهائي وإبادة جنس المورو، وقد ورد في أحد بنود هذا القانون أن الملوك الكاثولكيين قد أقسموا على تطهير إسبانيا من المسلمين»[2]. ونظرا للظروف السائدة في غرناطة، بدأ الملكان يخططان لفرض قوانين بشأن المدجنين، مع مراعاة الفكر التحرري المتسامح، لأن العقود السابقة كانت تفرض عليهم حماية المورو الذين كانت تربطهم وشائج ومعاهدات على عهد الملك إنريكي الرابع. في عهده اتخذ حراسه من المورو فقلدهم في مظهرهم وطريقة لباسهم وعاداتهم وتغاضى عن احتقارهم لأوامر الملوك الذين سبقوه وإساءتهم لصور القديسة والقديسين[3].

لقد ترك في الحقيقة تحديا كبيرا وإرثا خطيرا أمام الملوك الكاثوليكيين الذين بفضل الحزم وقبضة الحديد استطاعوا التغلب على الأوضاع السائدة. لقد كانوا يتصيدون الفرصة ويبحثون عن سبب يمكنهم من دخول غرناطة وقد مكنهم من ذلك الأمير الغرناطي مولاي أبي الحسن. تقلد عرش بني الأحمر منذ سنة 1465 إلا أنه أراد أن يحرر شعبه من الجزية أو الضريبة التي يؤدونها لعرش قشتالة منذ عهد الملك فرناندو الثالث مستغلا الوضع الذي توجد عليه المملكة. وأمام رفضه وتماطله بعث له الملكان الكاثوليكيان رسولا يطالبه بالمال المفروض على إمارته فقال مخاطبا مبعوث الملكين: «عد وقل لملكيك، لقد مات الغرناطيون الذين كانوا يعطونكم المال ويؤدون للمسيحيين عطاياهم وأخبرهما بأنه لا يوجد في غرناطة حاليا إلا السيف والحديد والرماح التي

(1) مانويل دنبيلا، سلسلة محاضرات، سبق ذكره، ص. 58-59.

(2) نفسه، ص. 43.

(3) فرنانديث إي غنثاليث، مرجع سابق، ص. 213.

نصوبها لنحور أعدائنا»[1].

استفز ذلك الرد فرناندو وإسابيل وقررا أن يخوضا من جديد غمار ملحمة الاسترداد.

حاول الأمير مذعورا أن يشرح ويعلل الأمر لفرناندو الخامس بأن السبب كان هو الاستيلاء على الزهراء، فردوا عليه ثانية بدخول الحمراء في سنة 1481 [2]، الأمر الذي زرع الهلع في وسط المسلمين وتداولت الأوساط الشعبية أغاني في وصف هلعهم، ترجم البعض منها وتبتدئ كالآتي:

تصيد الملك المورو

خلال مسالك وأزقة غرناطة

من أبواب إلبيرة

إلى غاية بيرا رامبلا

آه للحمراء!

وبينما أبو الحسن يستعد لاسترجاع الحمراء كان الملوك الكاثوليكيون يجهزون لعملية استرداد جديدة، وفي 11 من يوليوز حصل اشتباك بين المعسكرين توفي خلاله دون رودريغو خيرون ابن دييغو القشتالي، قائد كثالا والذي كان كذلك القائد الأعلى لكلترافا وفرسان آخرون. هب الملك دون إرناندو لإنقاذ المحاصرين وتوجه نحو غرناطة، قلع الزرع واجتث الغرس ودخل إقامته وحاصر جميع الحدود ثم عاد منتشيا إلى قرطبة[3].

كان هدف المسيحيين المرابطين في حدود غرناطة هو الاستيلاء على لوشة، فقدوا بعض رجالهم لكن الصدام كان أقل حدة مما وقع في روطة الشرقية حيث فاجأهم جنود المورو بين جبال كوتار، مكان لازال يعرف باسم «عقبة القتلى». هلك خلال تلك المواجهات

(1) الأحداث نفسها تطرق إليها كل من واشنطن إرفينك، لفوينتي، أمادور دي لوس ريوس وآخرون.

(2) مارمول كارباخال، تاريخ تمرد وعقاب موريسكيي مملكة غرناطة، ج، 1، ص. 54، طبعة مدريد، 1797.

(3) مارمول كارباخال، سبق ذكره، ص. 56.

دون دييغو، دون لوبي ودون بلتران، إخوة مركيز قادس؛ دون لورينثو ودون مانويل ابني عمه وكذلك عدد كبير من أفراد عائلته. «هذه هي المعركة التي جرت أحداثها يوم الجمعة صباحا 21 مارس سنة 1483، مات وأسر خلالها عدد هام من المسيحيين»[1].

عرفت الفترة نفسها خلافات حادة بين أبي الحسن وابنه بوعبديل «الصغير الذي تمرد ضد أقرباء زوجته عائشة. طرد ابن سراج بوعبديل من غرناطة وجهز جيشا بلغ عدده ثمانية آلاف مقاتلا» من أعتا المحاربين الأفذاذ الغرناطيين لأجل اجتياز حدود إستجة قبل أن يفيق الإسبان من صدمتهم[2].

أرسى نفوذه على الجشانة بينما واصل أبو عبديل طريقه لتفاجئه جنود كونت قبرة مدعومة برجال قائد لويس دونثيليس ، وفي خندق مرتين غنثاليث تم أسر الأمير الغرناطي وقتل قائد المورو الذي كان يتوجه نحو لوشة للدفاع عنها. عاد بعد ذلك المسيحيون محملين بالغنائم التي سبوها من المسلمين وجردوهم حتى من ألويتهم وراياتهم[3]. انتقموا لهزيمة الشرقية وأرسوا حجر الأساس لإنهاء عملية الاسترداد، وعن الحدث قال مارمول كارباخال: «مدة قصيرة بعد ذلك تم سجن ملك المورو واسترجعت تلك المدينة نظرا للاضطراب السائد بين ساكنتها. في تلك السنة دخل الملك دون إرناندو مع جيوشه إلى باحة غرناطة و مزارعها وخرب الحرث والزرع واجتث غوطتها، أشجارها وكرومها، وبعد احتلاله لفيلا دي لورقة حاصر فيلا طاخورا التي سرعان ما استرجعها المورو وحصنوا أسوارها لكنها سلبت منهم مجددا وانتصر عليهم الملك وعاد ليقضي فصل الشتاء بقرطبة في هدوء وأمان[4].

استسلمت مملكة غرناطة للمسيحيين وتساقطت المدن والقرى الواحدة تلو الأخرى

---

(1) نفسه، ص. 37.

(2) لفوينتي، سبق ذكره، ج. التاسع، ص. 276.

(3) ردريغو أمادور دي لوس ريوس، سبق ذكره.

(4) مارمول كارباخال، سبق ذكره، ج. 1، ص. 58-59.

في أيديهم مثل: كوين كرطامة روندة ، ماربيا ، مكلين ونقط أخرى. وقد سهل لهم تلك المسألة أبوعبديل الكبير، الذي خلف أبي الحسن وعم أمير غرناطة المخلوع وقاتل ابن عمه، إلا أنه وجد نفسه مضطرا للدفاع عن نفسه ضد الجيش الغالب، جيش الملوك الكاثوليكيين.

استولى دون فرناندو سنة 1486 على لوشة بينما كانت الأطراف المسلمة تقتتل فيما بينها، ثم سقطت في أيديهم بيليث، ولاحقا مالقة و بييثا. واستمرت المواجهة بين الطرفين إلى غاية ربيع سنة 1491، حينما قرر الملوك الكاثوليكيون الاحتفال بعيد الفصح في إشبيلية وفصل الربيع ليتجهوا بعد ذلك نحو غرناطة[1].

كانت تلك الحرب حدا فاصلا في العلاقة بين المسيحيين والمسلمين الذين انتهى حكمهم بعد ثمانية قرون من السيطرة. وخلال محاصرة الجيوش المسيحية للمسلمين تدخل اليهود لنجدتهم بقيادة السيد أبراهام وإسحاق أباربانيل[2]. لقد كان لحركته وقع مهم على الجنود المسيحيين وعلى الملوك الكاثوليكيين. بدورها قامت الملكة إسابيل بدعم الجيش ومده خلال حصاره لغرناطة وأغدقت عليه العطايا والمؤونة إلى درجة إفراغ خزينة مملكتها، تلك المملكة التي كانت تسيطرعلى عالمين واحد في إسبانيا وآخر في أمريكا[3].وبعد حصار استمر لأزيد من ثمانية أشهر، استطاع الملوك الكاثوليكيون أن يفرضوا قوانينهم على المدينة المحاصرة التي تفاوضوا بشأنها مع أبي القاسم، وفي الثاني من يناير 1492 دخلوها فاتحين و أقسمواعلى اقتلاع معالم كما تقتلع حبات الرمان، واحدة تلو الأخرى[4].

كانت عدة بنود في القوانين المتفق عليها تخدم مصلحة المدجنين والغرناطيين، وقد

(1) مارمول كارباخال، ص. 80.

(2) رسائل ملكية، ص. 304-308. أرشيف بلنسية.

(3) انظر مارمول كارباخال، سبق ذكره، ج. 1، ص. 83-98.

(4) أمادور دي لوس ريوس، ج. 3، ص. 302.

اضطر الملوك الكاثوليكيون إلى احترام بعضها حتى خلال أوج حروب الاسترداد ومحاكم التفتيش، لأن هدفهم الأسمى في النهاية هو الحفاظ على الاستقرار وتحقيق الوحدة الترابية. لكنهم لم يكونوا ليتسامحوا مع اليهود المشعوذين والسحرة المرتدين، إذ كانت محاكم التحقيق لهم بالمرصاد.

تميزت فترة حكمهم بالازدهار والحذر والنصر. لكن سرعان ما تراجعوا عن القوانين التي اتفقوا عليها بعد استرجاعهم لغرناطة. في 31 مارس من السنة نفسها عملوا على إصدار قانون يقضي بطرد اليهود، إذ ورد في البند 38 ما يلي: «يمكن لليهود المنحدرين من غرناطة والبيازين وأرباضها والأراضي المجاورة لها أن يستفيدوا من تسهيلات هذا القانون، إلا أن اليهود الذين سبقوا أن كانوا نصارى وارتدوا يمهلون لمدة شهر كي يغادروا الأراضي المذكورة».

بينما حضي يهود ألمرية بامتيازات هامة تم الاتفاق عليها في 11 فبراير لسنة 1490 إلا أنهم سرعان ما تراجعوا عن كل ذلك وحكموا بطرد كل الساميين الإسبان.

شرح الملوك الكاثوليكيون مطولا أسباب ودوافع الطرد في القانون الجديد المسطر. كان الرأي العام ثائرا وهائجا ضد المورو واليهود خصوصا بعد استرداد غرناطة وشكل السيف والصليب أدوات الحرب من أجل إرساء ذلك.

تحققت الوحدة السياسية واستمر السعي حثيثا لإنجاز الوحدة الدينية . كان ضغط الشعب قويا من اجل إرساء ذلك إذ رآها ضرورية وعاجلة. فكان ذلك الحراك حاسما إذ جعل الملوك الكاثوليكيين يطاردون اليهود دون هوادة. إلا أن هذا الطرد والتعقب كانت له تبعات اقتصادية ومادية. رغم رسائل وقوانين التسامح التي صدرت في حق اليهود، لم يعتبروا قط جزء لا يتجزأ من إسبانيا كما أنهم لم يشكلوا أي تمثيلية سياسية في البلاد: «كانوا يعيشون وضع الغرباء والدخلاء في نفارا، أراغون، البرتغال، وقشتالة» لم يحضوا قط بثقة المسيحيين الذين كانوا يعتبرونهم «مصاصين للدماء وداعين للفتنة.

كان لطردهم من إسبانيا أثر بالغ على الأوضاع الاقتصادية والمعاملات المالية لأن جزء مهما من الاقتصاد كان يتمركز بأيديهم، لكن الملوك الكاثوليكيين، أمام مسؤوليتهم التاريخية لتحقيق الوحدة الدينية عملوا جادين على إرساء الوحدة السياسية أولا وحماية البلاد»[1]. رغم أن البعض يفسر عملية طرد اليهود بالسلوك العدواني والمتنافي وقواعد الحكم العادل[2]، إلا أنهم حتى خلال وجودهم في إسبانيا لم يتمتعوا قط بحقوق المواطنة كاملة خلال حروب الاسترداد و محاكم التحقيق رغم دخولهم في الدين الجديد لعدم ثقة المسيحيين فيهم[3]، حوالي 200 ألف شخصا خرجوا من إسبانيا بموجب قرار الطرد الصادر في حقهم، إلا أنه بقي كذلك عدد هام منهم أعلنوا اعتناقهم للمسيحية ليفروا من جحيم الطرد والمطاردة؛ لكن رغم ذلك لم يسلموا من المداهمة والمباغتة في عقر دارهم ليتم التأكد من عقيدتهم الجديدة أو بقائهم على دينهم واعتمادهم على مبدإ التقية للنجاة بجلدهم.

الويل لمن كان يعيش حياة مزدوجة، مسيحي في الخارج ويهودي في الداخل إذ كانت محاكم التفتيش أشد ضراوة معهم. الموقف نفسه اتخذ في حق المدجنين إلا أنه في بعض الأحيان كان أقل ضراوة وكان يسمح لهم بالبقاء في مساكنهم مقابل اعتناقهم الدين الكاثوليكي والحفاظ على أمن واستقرار البلاد. لكن السؤال المطروح هو: هل التزم المهزومون المغلوبون بهذا الشرط؟. سنحاول التعرف على هذا الجواب في الفصول الموالية.

وضع الملوك الكاثوليكيون على رأس الكنيسة في إشبيلية العالم العلامة التقى الرحيم، الراهب فرناندو دي تلابيرا وعلى رأس الجيش القائد الهمام الكونت تنديلا. عمل هذان البطلان بكل حرص وحكمة كاثوليكية على ترسيخ وتقوية عملية الاسترداد. اتصل

---

(1) أمادور دي لوس ريوس، ص. 431.

(2) الأرشيف العام بسيمنكاس، الكتاب رقم 14، ص. 98 وما يليها.

(3) أمادور دي لوس ريوس، سبق ذكره، ص. 394.

الراهب فرناندو مباشرة باليهود والمسلمين الذين دخلوا الدين الجديد وغيروا أسماءهم. عمل الرجلان على تحقيق اندماج كل هذه الأجناس مجتمعة لتشكل في النهاية الإسبان المسيحيين، تطلبت هذه العملية ما يناهز ثمانية قرون من الاقتتال والتطاحن.

كانت صورة تالابيرا تشكل وجه رجل الدين السمح المتسامح الذي يجسد القوة الدينية للغالب المنتصر والذي يجب أن يتصرف بكل حكمة لجلب مؤمنين جدد بدينه وعقيدة أبناء وطنه وملوكه. أصدرت الملكة إسابيل تعليمات إلى كل المسؤولين والقواد والحكام أن يعاملوا المورو والمتنصرين معاملة جيدة، ولا يفرقوا بينهم وبين إخوانهم الذين سبقوهم في الدين، وأن يعملوا على تعليمهم ونشر تعاليم الديانة المسيحية بالحكمة والموعظة الحسنة[1] دون إكراه أو عنف». إلا أن الواجب الديني والوطني أيضا كان يفرضان عليهما أن يسحقا كل ما يمت للإسلام ولمحمد بصلة فوق تراب إسبانيا بأكملها. من يريد من المورو أن يمكث فوق ترابها لابد له أن يدخل في الدين الجديد، ومن اختار ذلك يجب عليه أن يبيع كل ممتلكاته ويتخلى عنها ولا يحتفظ إلا بما يسد حاجته الضرورية الأساسية. كان ذلك شرطا أساسيا لحفظ أرواحهم وكذلك لاستتباب الأمن والأمان في تلك المملكة بغرناطة، بل وإسبانيا بأكملها. إلا أن المؤكد هو أنه لا يمكن أبدا لذلك الجنس، أي لمسلمي محمد أن يحبوا المسيحيين أو يدعوهم ينعمون بالهدوء وظل السلم أو الذين يخلصون للملوك الكاثوليكيين وهم على دينه. كانوا عتاة، قساة وغلاظ أشداءا تجاه المسيحيين الذين يعتبرونهم أعداء الملة والدين. رغم أن القسوة والقبضة من حديد للملوك الكاثوليكيين الذين كانوا يتصورون أن احتكاك المورو بالدين الجديد سيعلمهم مبادئ التسامح ويملأ أركان صدورهم بالإيمان حتى يصبحوا مثلهم[2]. إلا أن كل هذه السلوكات السياسية والدينية لم تكن فعالة، هل اعتنق المدجنون الدين الجديد وليس في قلوبهم غل تجاه الأقوياء الذين هزموهم وفرضوا عليهم قوتهم وسيطرتهم رغم تخليهم

---

(1) مارمول كارباخال، سبق ذكره، ج. 1، ص. 112.

(2) مارمول كارباخال، نفسه، ص. 112-113.

عن تلاوة القرآن وعن ممارسة شعائر سنتهم على الأقل في الظاهرً؟ لم يكن ليثق بهم أحد، وكيف يمكن الثقة بالمسلمين وهم متشبعون بعقيدتهم وبتعاليم محمد؟ لكن لنسلم جدلا بأن جهود الفقيه القديس الراهب الإشبيلي قد كللت بالنجاح، وأن المتنصرين قد اعتنقوا الدين الجديد عن قناعة، كيف يمكن القبول بصفح الجنس المهزوم عن هازمه والتجاوز عن سلطته وسلطويته؟ كيف يمكن للمدجنين أن يغفروا لمن مارس حرب الإسترداد بكل حزم وقوة وجردهم من سكناهم وممتلكاتهم بحد السيف والصليب؟. سلبوا العائلة والأحبة والأرض والممتلكات ودخلها الغالب المنتصر مزهوا، وحاول تثبيت مواقفه بإصدار قوانين منظمة وجزرية من بينها الطرد لكل من لا يعتنق ديانة الصليب. لم تكن الأرض ولا البلاد لتعرف هدوء واستقرارا في ظل كل هذه الممارسات والأجواء. لم يكن أبديا وجود الراهب تلابيرا رغم أبدية الدين المسيحي وممارساته، فخلفه الراهب المحنك الحكيم فرانسيسكو خمينيث دي تسنيروس الذي عين على رأس السلطة الكنسية بطليطلة سنة 1495.[1] رافق هذا الأخير الملكين إلى غرناطة حيث عمل على تطبيق التعاليم وتنصير المورو». نظم وعقد لقاءات مع الفقهاء وحاول إقناعهم بالحجة والدلائل والبراهين واعتنق بعضهم الدين الجديد ونظرا للأعداد التي دخلت في النصرانية لم يكن ممكنا تتبع كل أحوالهم مما اضطر تسنيروس إلى صب الماء المقدس عليهم دفعة واحدة ليطهرهم»[2]. «حوَّل مسجد البيازين إلى كنيسة ومدرسة تعليمية تحت رعاية سان سالفادور» إلا أن عملية التنصير لم تكن لتمر بهدوء وسلام، وقعت اشتباكات عرقلت تلك الوتيرة وحدت من فعاليتها[3]، عارض مورو البيازين بطريقة شرسة عملية التنصير ومن أهم المعارضين لتسنيروس رجل إسمه الزغري. حرض أتباعه ضده وعارض دخول المورو في الدين الكاثوليكي، إلا أنه ووجه بالقمع الشديد بعدما فشلوا في استمالته باللين.

---

(1) نفسه.

(2) تاريخ إسبانيا، ج. 10، ص. 113.

(3) مارمول كارباخال، سبق ذكره، ج. 1، ص. 114.

يقول المؤرخون بأن الزغري قد تنصر بعد ذلك ويؤكدون أن تدينه الجديد كان صادقا وقد تبعه في ذلك عدد لا بأس به من المورو، إلا أن الفقهاء وخصوصا المولدين منهم، كانوا يخفون تحت برانيسهم معتقدات رهيبة. لم يكونوا ليراقبوا المتنصرين الجدد في حياد، خصوصا وأنهم ينتمون إلى دين المغلوب ويرغبون في تلطيخ أيديهم بدماء المسيحيين، فأتيحت لهم الفرصة. في أحد الأيام بينما خادم تسنيروس وأحد أعوان الشرطة يحاولون في البيازين سحب امرأة، إبنة أحد النصارى الذين اعتنقوا الإسلام من أجل أخذها إلى غرناطة، أطلقت صراخها عاليا تستنجد، أسرع بعض المورو لنجدتها من الربض المجاور فخلصوها منهم. كان ذلك إشارة للانتقام من المسلمين المتنصرين الذين أشرف على إدخالهم في الدين الجديد كل من تلابيرا وتسنيروس.

استنفر المنتقمون ونادوا باسم محمد طالبين النصر والحرية وحاصروا مسالك ومداخل البيازين وتحصنوا ضد مسيحيي المدينة وشرعوا في مواجهتهم وكان القتال يشتد بينهم خصوصا ليلا في جنح الظلام. حاولوا اغتيال تسنيروس[1] الذي تحصن في القصبة إلى أن هب لإنقاذه الكونت تنديا. عمل على تهدئتهم لكنه لم يتمكن إلى غاية قدوم تلابيرا من مواجهتهم ، فاضطر قائد المسلمين أن يسلمهم أربعة من الرجال الذين تسببوا في التمرد لمحاكمتهم وجعلهم عبرة لمن يعتبر وأعدموا في ساحة بيرو. علم الملوك الكاثوليكيون بأسباب الانتفاضة فاستدعوا تسنيروس، كما أخبر بذلك مارمول[2]. طلب الأسقف منها التريث ومواجهة ذلك بالحكمة ومواصلة عملية التنصير وإنزال العقاب عند الضرورة « وفي حالة التمرد يجب معاقبة المتسببين في الفوضى والشغب، والعفو عنهم في حالة عودتهم إلى رشدهم واعتناقهم للدين المسيحي من جديد أو طردهم نهائيا من مجالهم الترابي»[3].

(1) نفسه، ص. 121.

(2) سبق ذكره، ص 126.

(3) كارباخال، سبق ذكره، ص. 213.

هل كانت تلك النصائح صائبة أم كانت تخدم أهدافا دموية عدوانية؟ لم يكن المورو ليستسلموا للأوضاع، وكانت انتفاضتهم متقطعة لكن متكررة حسب المواقف، تارة يرهبونهم بالعقاب الذي سينزل بهم، وأخرى يرفضون جملة وتفصيلا عملية التنصير، لأنها تتعارض وتعاليم دينهم، وأخرى يشعرون بالدعم خصوصا حينما يبعث لهم سلطان مصر إمدادات لنصرتهم وسفراء إلى الملوك الكاثوليكيين يطلبون منهم عدم إكراههم على اعتناق المسيحية إن هم لم يرغبوا في ذلك. إلا أن هؤلاء كانوا قد عقدوا العزم على معاقبة من تسبب في أحداث البيازين، الأمر الذي أفزع المسلمين فعبروا نحو إفريقية بينما اعتنق الماكثون دين المسيح لينعموا بالطمأنينة والأمان.

لا يمكننا أن نغفل وضع هؤلاء الذين دخلوا الدين الكاثوليكي تحت إكراه السيف دون تكوين مسبق أو علم بحقيقة هذا الدين، الأمر الذي ساهم في تطور ما سمي «بالمسألة الموريسكية» في إسبانيا، التي عرفت أوج حدتها في البشارات. انتصر الملوك الكاثوليكيون من جديد وطاردوهم في هويجار بسييرا برميخا وأصدروا قرارا في 20 يوليوز سنة 1501 يأمر بطرد المورو الذين عدلوا عن قبول عملية تنصيرهم[1]. هل عمل الملوك الكاثوليكيون بوصايا تسنيروس؟ لا نظن ونتصور الأمر مستبعدا. لقد خاطبهم بأسلوب العبد المطيع وهو يشكر نعمة الرب على اقتراب تحقيق الوحدة السياسية للبلاد التي لم يعد ينقصها إلا ضم نافارا إلى تراب المملكة. كل ما كان يهم الرجل هو تحقيق وحدة وأمن البلاد وليس وضعية الأعداء، إلا أن الملوك كان لهم توجه آخر وكان يحاصرهم نداء الضمير لتحقيق الوحدة دون أن تأخذهما رأفة ورحمة بمن تسبب في زرع الشقاق والنفاق.

واصل تلابيرا مهمته وكتب للملوك في 30 مارس سنة 1500 يقول: « من يحاول مساعدتي هنا إنما هو في الواقع يعرقل مهمتي لكن ربما عن قصد»[2]. كان يريد من خلال

(1) فرنانديث إي غنثاليث، سبق ذكره، ص. 432.

(2) الأكاديمية الملكية للتاريخ، مجموعة سالاثار، ج. 11، ص. 544.

خطابه الإشارة إلى الأحداث الدامية التي جرت في البيازين وأزهقت خلالها أرواح كثيرة واتهم بتعاطفه مع اليهود حينما توفيت الملكة إيسابيل سنة 1504.[1] لكن أساليبه اللينة لم تأت أكلها، لأن المسلمين يكرهون التخلي عن دينهم وممارسة شعائرهم. وقد أبانوا عن ذلك بوضوح في البشارات. لم تكن عملية التنصير يسيرة وتم التساهل مع من دخل في الدين الجديد وطرد الرافضون المقاومون وأعطيت التعليمات بذلك إلى محقق قرطبة في 27 شتنبر سنة 1501[2] وأصدر قانون آخر في اشبيلية يوم 12 فبراير 1502 [3] يقضي بطرد المورو الأسبان، إلا أن عددا قليلا غادر، وفضل الآخرون الدخول في الدين الجديد، على أن يتركوا منازلهم وممتلكاتهم. عرفت القضية الموريسكية أوجها بين 1525 – 1526 بسبب أحداث تمرد وقع في ضواحي بلنسية على عهد الملك كارلوس الأول بسبب المراسيم التي أصدرها. لتبرير تصرفاتهم كان الملوك ووزراؤهم ينطلقون من تعاليم وقرارات مجلس الأساقفة الذي عقد ب لتران سنة 1215 وكذلك من مواقف الراهب ڤلينثيا أنوريو الثالث الذي كان يدعو إلى التفرقة وعزل اليهود عن المسلمين. لكنه إلى جانب ذلك كان يدين كل اعتداء يلحق بالذين لم يتنصروا ولم يتسببوا في أي عمل شغب أو أحداث تخريب. كان الراهب ڤلينثيا يدعو للدخول في الدين الجديد عن طواعية ودون إكراه. طبق الملوك القوانين السائدة في طليطلة والتي دخلت حيز التنفيذ منذ 1480 [4] وكذلك قوانين غرناطة الصادرة منذ 20 يوليوز 1501 وفي اشبيلية سنة 1502 [5] رغم أن بعض المؤرخين فهموا الأمر فهما خاطئا وتحاملوا عليهم[6]. لم يكن الملوك يرغبون في رعايا خائفين من المورو ولم يكونوا يريدون مسيحيين جدد مجبرين مضطرين لاعتناق الكاثوليكية. شرحوا ذلك بإسهاب في مدخل القوانين التي أشرنا إليها. كان سعيهم

(1) سبق ذكره، ج. 3، ص. 374.

(2) نسخة من قرار الملوك الكاثوليكيين إلى أسقف قرطبة، غرناطة 27 شتنبر 1501.

(3) فرنانديث إي غنثاليث، سبق ذكره.

(4) الفصلين 13 و 19 من مجموعة « أوامر قصر بيادوليد».

(5) نفسه.

(6) قوانين إسبانيا، ج. 10، طبعة 1850.

حثيثا للتفرقة بين المسيحيين والمدجنين الذين كانوا يحضون بدعم وحماية بعض النبلاء إلى غاية 1609 حيث حصل بعد ذلك تمازج بين الجنسية وانتصرت ثقافة الغالب المنتصر، ودخلوا في الدين الجديد بنية أو عدمها بغية أن يصبحوا مسيحيين حقيقيين. كان ذلك المخرج هو الوسيلة الوحيدة لمواصلة حرث أراضيهم والسيطرة على الاقتصاد والتجارة والعيش في هدوء، يقتفون تحرك فقهائهم ويتتبعون مواقفهم منتظرين ساعة استيلائهم من جديد على الحكم في إسبانيا. شكل الدخول في الدين الجديد الطريق المعبد والمسلك الصائب للتمتع بحقوق المواطنة والعيش بأمان. إلا أنه استمرت في الواقع التفرقة بينهم في الأحكام تارة[1] وأخرى بحرمانهم من شغل مناصب ووظائف عمومية[2] وفي أحايين أخرى حرمانهم وعدم السماح لهم بلبس الحرير والذهب والجواهر والأحجار الكريمة[3] أو إخضاعهم لقوانين وتشريعات خاصة[4]. اضطر المدجنون بقبول حفل القداس المعظم والتظاهر بالتنصر لعلمهم بأنه قرار الأقوياء، رغبة من هزمهم وغاية الحكام الجدد. أضحى مفاجئا أن نرى مجموعات كبيرة منهم تخلي المكان وترحل خارج الحدود حتى حينما لم يفرض عليها التنصر. وظهرت المسألة الموريسكية كرد فعل طبيعي ضد الأوضاع السائدة آنذاك. قبل بعض المدجنين بالتنصير حفظا لأرواحهم وذويهم وممتلكاتهم و أطلقت الهيئة الكنسية ومجلس الأساقفة لقب «النصارى الجدد» أو الموريسكيين على الذين دخلوا في المسيحية[5] وللتمييز كذلك بينهم وبين النصارى القدامى أو الأسبان الأصليين. كانوا يخضعون للقانون المدني وتعاليم الكنيسة ويتمتعون بحقوق سنسردها لاحقا.

---

(1) أوامر ملكية من قشتالة، طبعة 1850، القوانين 3، 4، 10، 13، 15، 18، 19، 20، 26، 36، الكتاب الثالث، ص. 431.

(2) سبق ذكره، الكتاب الثامن.

(3) القانون رقم 27.

(4) الكتاب السابع، من التعاليم الملكية المذكورة.

(5) الأمر الملكي رقم 1510. أرشيف سيمنكاس، كتابة الدولة، ص. 207-209.

شكل حدث اكتشاف أمريكا واسترداد نابارا أثرا بالغا على الوضع العام في إسبانيا ومجرى حياة الشعب. ماتت الملكة إسابيل التي حاربت المارقين عن الدين دون هوادة ولا تراجع، كما توفي دون فرناندو سنة 1516 الذي أوصى أبناءه وهو على فراش الموت بتعقب أثر المسلمين أتباع محمد بكل تراب إسبانيا لسحقهم وإبادتهم، لأنهم مصدر كل بلاء وبلية، وأن الموريسكيين إن كانوا نصارى في مظهرهم فهم مسلمون في الجوهر، يمارسون في خلوتهم عاداتهم وطقوسهم ولغتهم. رغب الملوك الأسبان ويسعوا إلى مسح حتى ذلك الإسم من كل تراب البلاد الذي هدد وحدتها وفرق بين أهلها لقرون طويلة وقض مضجع وحدتها السياسية والدينية. لكن استعصى عليهم تحقيق الأمر على أرض الواقع، وبقيت بذورهم يانعة فوق تلك التربة تزهر مرة وتذبل أخرى لتطلع من جديد. كان الصواب والحكمة يقضيان بطردهم خصوصا عند دخول غرناطة، أما التنصير فلم يكن في الواقع إلا وسيلة لحفظ أرواح مسلمة تتظاهر بالتنصر وتعمد إلى مبدإ التقية والتخفي. تم أيضا سن قوانين تنظيمية بشأنهم، فعرف القرن السادس عشر أعتاها وأشدها، تدعو القوانين هذه إلى طردهم خارج حدود إسبانيا استكمالا لمسار طبيعي وحتمي وقانوني[1].

لقد اخطأ الملك فيليبي الثاني بعدم تطبيقه هذه القوانين، وأعطى المدجنون نموذجا سيئا في التعامل مع الأوضاع وأبانوا جليا على نذالتهم في القرن الرابع عشر، ليس فقط لأنهم دعموا القراصنة الأتراك والأفارقة وسهلوا لهم أمر الإغارة، ولكنهم أيضا زرعوا الشقاق والنفاق والفتن في البيازين وتظاهروا باعتناق الدين الكاثوليكي بعد محاولات ثسنيروس و تلابيرا.

وحينما قبل الملوك الكاثوليكيون تطبيق تلك التعاليم ونهج ذلك السلوك اتجاههم، لم يكن بدافع الإنسانية ولكن كان وسيلة ليدخل أكبر عدد ممكن من المورو في الدين الجديد. لم يقابل تسامحهم إلا بالعنف والتمرد وأحداث البيازين والبشارات أحسن دليل

(1) مجلة الأرشيف، متاحف ومكتبات، ص. 299، سنة 1899.

على ذلك. كان الملوك الكاثوليكيون على وشك تصحيح المسار التاريخي للبلاد والانتقام من هذا الجنس الثائر إلا أن المنية وافتهما وحالت دون تحقيق ذلك. تولى الحكم بعدهما دونيا خوانا و فيليب الأول اللذان بالكاد تركا بصمات واهية في هذا المسار خلال فترة سيطرتهما القصيرة ليتسلم من جديد مشعل الملوك الكاثوليكيين كارلوس الأول ملك إسبانيا وكارلوس الخامس من ألمانيا.

الفصل الخامس

دون كارلوس الأول / الثورات الشعبية بقشتالة / مجموعات المتمردين الخرمانوس[1] ببلنسية / المتمردون والموريسكيون/ تنصيرهم القسري والصبغة الدينية للمسألة / التدابير الملكية ضد الجنس الموريسكي.

---

(1) المتمردون المنضوون تحت لواء طائفة تدعى «خرمانياس» بدؤوا حملة تنصير قسرية للمسلمين في مملكة بلنسية التابعة للتاج الإسباني على عهد كارلوس الأول.



توفي الملك فرناندو الخامس في 23 من يناير 1516 وتولى الحكم بعده حفيده كارلوس دي غانتي. عمل الملك الهالك بكل قوته على تنصير مورو غرناطة، الأمر الذي يكون قد أوحى للملوك الكاثوليكيين بسن المرسوم الملكي الذي يدعو إلى طرد الساميين الإسبان. كما يرجع الفضل لشنيروس في طريقة التعامل الحذر في مثل هذه القضايا الحاسمة في المملكة، وكيف أنه في قشتالة كان يدعو إلى: الملك–الملك دون كارلوس سيدنا وملكنا[1] وهو يحضر لقدومه. عكس كل الذين هرعوا لمقابلة الملك، كانت للرجل نوايا حسنة[2] بعيدا عن كل المعالم الشخصية والخلافات والوشاية، واستطاع أن يؤثر كذلك على أعضاء هيئة «مجلس قشتالة»[3] رغم أن مقترحاته لم ترق الأعضاء كلهم.

لسوء حظ الملك كارلوس الأول، كان عليه مواجهة وقمع تطلعات سوفاش[4] مستشاره الخاص ورجل الدولة الكبير إلى جانب الرجل المعروف شفريس. كان تواطؤ هذين الرجلين سببا في هلاك إسبانيا.

أول عمل قام به الملك الجديد، هو عقد معاهدة سلام مع ملك فرنسا حتى يتمكن من عقد قرانه على ابنته، أيام قلائل بعد ذلك اتجه نحو فيلا بثيوسا في يوم 19 شتنبر 1517 [5] مرفوقا بشقيقته الأميرة دونيا ليونور وموكب كبير من بينه شخصيات بارزة مثل شفريس، سوفاش وغوريلو.

في «روا» يوم 8 دجنبر من السنة نفسها ووري جثمان شنيروس، ذلك الرجل العظيم

(1) الدكتور لورينثو غاليندث، وثائق مختصرة عن تاريخ الملوك الكاثوليكيين، الفصل العاشر، ص. 374.

(2) غالنديث، نفسه، الفصل السابع عشر، ص. 396، ج. 18.

(3) غالنديث، سبق ذكره، ص. 167.

(4) كان يسميه غالنديث خوان المتوحش.

(5) غاريباي، ساندوبال، ثونييغا ومؤرخون آخرون يؤكدون التاريخ المذكور، رغم أن الدكتور غالينديث يحدد تاريخ الإبحار ثمانية أيام بعد ذلك، أي يوم 27.

«الذي لم يكن له قط عدو إلا أعداء الدولة المارقون عن تعاليم الصالح العام»[1].

مات بسبب جحود الملك «الذي تمت مبايعته في برشلونة قبل أن يؤدي القسم في البلاط، كان لذلك السلوك تبعات سياسية كبيرة، وقد انتفض في ذلك الحين الدكتور ثوميل مذكرا بأن الملك قد نسي أن يقسم بأهم الأشياء، طرد كل الغرباء من البلاط وإبعاد المقربين منهم عن سدة الحكم». وقد عم غضب عارم كل الأوساط، النبلاء والمقربين من الملك والشعب أيضا، استاء الجميع من تقريب الأجانب خصوصا حينما تولى ابن أخ شافيس المسؤولية الدينية الكبرى في طليطلة. عم في البلاط وباقي الأوساط حتى بالكنيسة سخط عارم ضد الأجانب[2]. وجد رجال الدين أنفسهم تحت سيطرة وتوجيه الوزراء الذين يحيطون بالملك، الأمر الذي أدى إلى تمرد صاحب في بلنسية بالإضافة إلى قشتالة ومناطق أخرى.

سنشير بعجالة وسطحية إلى هذه الحركة[3] إلا أننا لن نغفل دور المرتدين في إشعال فتيل هذه الأحداث وهذا التمرد العارم في قشتالة[4] وكذلك انتفاضة المورسكيين ودورهم في أحداث بلنسية، إذ اشتدت المواجهات بين مكونات عدة ولم ينس البعض الانتقام من النبلاء الذين كانوا يوفرون الحماية للمورسكيين ولم يسامحوا الوزراء الذين كانوا يفرضون عليهم ضرائب باهظة.

قد لا يبدو مبررا طردهم ضد النبلاء لأن سلوكهم كان يؤطره قانون اعترف به البلاط والملك[5] وتم اعتماده في قانون محلي[6].

كان الأسياد يسمحون لخدمهم وتابعيهم من المسلمين بممارسة شعائرهم الدينية

(1) تاريخ إسبانيا، ج. 5، ص. 145. قلعة غاليانو، ج. 4، ص. 191، طبعة مدريد، 1844.

(2) دون مانويل دنبيلا، سبق ذكره، ص. 84.

(3) نفسه.

(4) انظر رسائل المركيز مونديخار إلى جلالة الملك، تاريخ 3 و 12 مايو 1521.

(5) فرنانديث إي غنثاليث، سبق ذكره، ص. 441.

(6) دييغو دي غوميل، بلنسية، 1515، يمكن مراجعة الفصل السابع المتعلق بدون خايمي.

وعاداتهم، الأمر الذي أجج مشاعر الكراهية ضدهم لدى المتمردين بضواحي المدن الكبيرة مثل بلنسية، وقد ازداد سخطهم خصوصا حينما حمل هؤلاء المارقون السلاح لمواجهتهم، فأكدوا خطأ حمايتهم وإبقاءهم على قيد الحياة. وحمل الموريسكيون السلاح ليس من أجل الدفاع عن وحدة البلاد، ليس حماية لنظام الملكية الذي كانوا يتمنون تصدعه وزواله، وإنما لحماية أسيادهم النبلاء الذين كانوا يوفرون لهم الحماية ويمكنونهم من ممارسة شريعتهم المحمدية ويحمون بقاءهم بإسبانيا مقابل مبالغ مالية تخدم مصالحهم.

لم يكن الملك كارلوس الأول يهتم كثيرا بالأحوال الداخلية للبلاد وتوجه نحو ألمانيا. كان لغيابه أثر بالغ في تأجيج أحداث بلنسية، ورغم بعثه للكاردينال أدريانو لم يكن هؤلاء المتمردون ليلقوا بالا لما يقوله أو يمليه عليهم أو يأمرهم به. فلقد كانوا يطرحون بحدة مشاكل الأوضاع الاجتماعية المنفلتة و المزرية.

وحينما رأوا الحماية التي يحظى بها النبلاء من طرف أتباعهم الموريسكيين، كشروا عن أنيابهم وانقضوا عليهم كالفرائس. لكن النبلاء اعتمدوا على القوة، على العدد الذي يحميهم، وأدى الثوار المتمردون الثمن غاليا من دمهم وأرواحهم. استطاع سوريا، بيريس، وآخرون ستيليس أن يطلعوا عن كثب على الأعداد الهائلة من الموريسكيين، من الجنس المسلم الذي يوفر الحماية للنبلاء ويدافع عنهم. عدد كبير من المورو من بينهم، لم يكن قد تنصر ولا نزلت عليه قطرة من الماء المقدس وقد عمل الثوار على القيام بذلك بأنفسهم. إلا أن العقاب الكبير حل بالمدجنين الخونة الذين وفروا الحماية للنبلاء في مواجهتم ضد المتمردين من أبناء الشعب. حين أحس هؤلاء الأغنياء بأنهم المالكون الوحيدون للأراضي والممتلكات وتصوروا أنهم أيضا يملكون سن قوانين وتشريعات وعدل يناسبهم. لكن ترك المورو الإسبان على دين نبيهم محمد قد تسبب في كثير من الفوضى والأذى وشكلوا بذرة خطيرة على وحدة البلاد واستقرارها، فصدر قرار سنة 1521 يقضي بتنصير كل المورو هناك وفي ربض شاطبة ومناطق أخرى بالمجال الترابي لدوق غانديا و كونت أليفيا ومركيز لومباي، إذ في فترة وجيزة تنصر عدد كبير من المورو،

وقد أصدرت أوامر بتحويل مساجدهم إلى كنائس وإقامة القداس بها. استكان المورو الجبناء أمام هذه الأوامر خوفا من الموت رغم حملهم للسلاح وقبلوا وخضعوا لعملية التنصير[1] .

اقتفى الثوار المتمردون أثر المورو وأسيادهم النبلاء الذين كانوا يوفرون لهم الحماية ولم يمكن بعضهم من النجاة إلا عملية التنصير والتحول إلى الدين الجديد رغم أن بعضهم خضع لهذه العملية قسرا وعنوة وأستمرت هذه العملية في كل الأماكن المذكورة بالإضافة إلى مناطق أخرى وصلت إلى بولوس.

احتمى بعض المورو في مرتفعات القلع والقصور لكنهم استسلموا في النهاية وقبلوا بالتنصير، وقد تم ذبح أزيد من 600 شخصا منهم دون الوفاء بحمايتهم إن هم دخلوا في الدين الجديد، وعللوا السلوك بأنه تقديم القرابين للسماء، والمال للجيوب وبذلك يكونوا قد حققوا رضا الرب ورضا القائمين على الدين والدنيا[2]، إلا أن عملية التنصير هذه لم تتم بنفس الوثيرة في كل الأماكن[3].

لقد كانت مقاومة التنصير شديدة خصوصا بداخلهم، وأجبروا بقبولها على مضض، مما أجج حقدهم وجعل المسألة الموريسكية تشكل خطرا كبيرا ومنعرجا هاما في تاريخ البلاد[4]. كما أنه لا يمكن إغفال الإشارة إلى أن هذه العملية في بعض الحالات كانت غير شرعية. كل تلك التدابير لم تكن لتحد من قوتهم ولا لتنفي حقدهم وعداءهم، و بإسم الأب والروح القدس، وتم تطبيق عملية التنصير. تعالت أصوات المعارضة قوية في 9 يوليوز 1391 في كنيسة سان كريستوبال حينما رفض اليهود قبول طقوس التنصير، وقد حصلت وقائع مهولة تصف عملية الدخول في الدين الجديد لهؤلاء اليهود

(1) داميان فنسكا، ص. 11 من كتاب طرد الموريسكيين من إسبانيا ، مج. 1، ص. 478.

(2) حقبة من تاريخ بلنسية، ج. 2، ص. 690، طبعة 1879.

(3) المتمردون الخرمانوس في بلنسية، ص. 471.

(4) الكتب القديمة في الأرشيف العام ببلنسية، ص. 365-366.

المارقين الماكرين. تطرقت لها بالسرد والوصف وثائق تاريخية عدة. لقد كان أجدادنا يؤمنون أكثر بالمسائل الغيبية، ويعتبرون عمليات تمرد المورو ومعارضة اليهود عقابا من السماء، للسماح لهم بالمكوث فوق تراب المملكة. لقد كان الإسبان القدامى يؤمنون بكل تعاليم الكنيسة ويدافعون عنها باستماتة، إلا أن التطرف الديني عرف مراحل حرجة خلال القرن السادس عشر. فلا يمكن أن نغفل أيضا أن الثوار المتمردين بأحواز بلنسية قد شعروا بالإحباط وخيبة الأمل وسرقة ثمرة مجهودهم ومشروعهم، خصوصا حينما أصدر الملك كارلوس الأول سنة 1521 المرسوم القاضي بطرد المورو خارج حدود المملكة، دون أن يتم تطبيق ذلك نظرا للحماية التي كان يوفرها لهم النبلاء، واكتفى الوزراء بقبول الجزية والضريبة التي تؤديها المساجد مقابل استمرارها. لقد كانت تراعى المصالح الخاصة ويضرب عرض الحائط بالصالح العام والمصالح العليا للبلاد وللمسيحيين القدامى الذين كانوا يحلمون باستئصال المورو ومشاهدة مجالهم الترابي طاهرا من تواجدهم وحركتهم.

وإذا كان الملك ينصت لغضب الرأي العام وشكاياته، فإنه لم يكن ليشفف غليل الغاضبين رغم تدابير صارمة مقنعة ، الأمر الذي دعا إلى ارتفاع عدد الغاضبين رغم جهود محاكم التفتيش. كانت عملية التطهير مهمة صعبة وذلك لتمازج الدم المسيحي بالمسلم، تمازج الممارسات اليومية والعادات وقد ورثنا كثيرا عن المسلمين الإسبان. كراهية المسيحيين الإسبان كانت قوية وشديدة اتجاه المورو، شأنهم مع اليهود سابقا. كانوا يودون أن يروهم حطبا لنار محرقة تأتي على أخضرهم ويابسهم، وتسحق وتمحي تواجدهم من فوق أرض المملكة المقدسة. لكن السؤال الذي يطرح بحدة هو: هل تمكن المتمردون البلنسيون خلال عملية التنصير من خلق مسيحيين جدد حقيقيين؟ وفي حالة الجواب بالإيجاب، إلى أي حد كان هؤلاء المتدينون الجدد عازفين عن ممارسة الدين المحمدي؟ يمكن الجواب عن هذا السؤال بشقين اثنين: حينما كان المورو يتنصرون عن طواعية، فقد كان يصدق تنصرهم لكنهم حينما كانوا يجبرون على ذلك كانت فتيلة التمرد

وكراهية المسيحية متقدة بداخلهم تتحين أقرب فرصة لاستئصال وإحراق من يحيط بهم. كانوا مدجنين بامتياز، لكنه لا يمكننا أن نثبت ذلك بجميع معايير الدقة العلمية، رغم أن محاكم التفتيش قد أثبتت العديد من شكوكنا وتساؤلاتنا في مناطق متعددة مثل شاطبة، لاوري، البركة، القصر، ألاسكير، منتيرا وأماكن أخرى. تم تحويل المدجنين إلى موريسكيين وبالتالي إلى مسيحيين، وبرفضهم ممارسة شعائر الدين الجديد، تعرضوا لمتابعة وترصد محاكم التفتيش دون شفقة أو رحمة كما حكى ذلك بعض الموريسكيين[1] .

وحسب أسقف سيغوربي : «كانت انطلاقة عملية تنصير الموريسكيين سيئة وسلبية في مملكة بلنسية، ربما أكثر سوء مما حصل في غرناطة سنة 1521 .

لقد تم تنصير مورو شاطبة و غانديا بالعنف والسيف وتهديدهم بالموت والقتل[2] يضيف بيريث بأنه قد تم قتل أكثر من 600 موريسكيا في أنييس بعد تنصيرهم وقد سمح البابا أدريانو السادس للذين لم يريدوا التنصر بالبقاء وألا تتم معاقبتهم، لكن سرعان ما حكمت محاكم التفتيش بأحكام مناقضة لذلك وتتبعت أثرهم بالحديد والنار[3].

لندع جانبا البعد الديني لعملية التنصير لدى الموريسكيين، ولنتابع حياتهم الاجتماعية، رغم دخولهم في الدين الجديد، لم يفتؤوا يمارسون شعائر دينهم الإسلامي في الخفاء، كلما تصيدوا الفرصة لذلك، واصلوا دعمهم للقراصنة الأتراك والأفارقة مسهلين عملية ضرب مصالح البلاد، الأمر الذي حرك ضدهم الملك باتخاذه تدابير صارمة في حقهم[4].

وفي مراحل متعددة عمدت الدولة إلى جانب الكنيسة ومحاكم التفتيش إلى التفريق بين المرتد والمارق والساحر المشعوذ: «لقد بث محقق التفتيش شرَّوكة والدكتور بالاثيو، قاضي بلنسية وميسير باس والأب مارتين سانشيس، الذين تم تعيينهم من طرف الملكة

(1) الأرشيف المركزي، استرداد بلنسية، رقم 299، ص. 402.

(2) تم طبع هذا الكتاب سنة 1525 من طرف شيمينو إي صورلي.

(3) أرشيف سيغوربي، ج. وثائق الأسقف بيريث، سنوات 1592 – 1600.

(4) الوثيقة الأصلية توجد بالمكتبة الجامعية ببلنسية، ج. 1، ص. 87.

خرمانا، في عملية تنصير المورو، والنظر إلى ذلك الأمر هل تم طواعية أم قسرا؟ وكيف كان تأثير الفعل على حياتهم اليومية؟ وهل تمردوا بعد ذلك أو انتفضوا؟ لقد تكلفوا بإعطاء تقارير مفصلة إلى مؤسسة محكمة التفتيش[1].

وحين توصل المفتش العام بالمعلومات اللازمة كان يوجهها إلى الملك[2] الذي عمد إلى تعيين لجنة تسهر على التنصر الحقيقي للموريسكيين واعتناقهم الدين الجديد بكل مقاييس الإخلاص والقناعة. كتب إلى والدته دونيا خرمانا في خطاب بتاريخ 11 فبراير 1524 كي يتتبع محقق التفتيش بالمدينة إلى جانب نائب الأسقف العام هذه المسألة عن كثب، وفي الآن نفسه رد على أسقف إشبيلية يمجد شعوره وإحساسه ويسمح له بتطبيق تعاليم خطابه وأوامره حيث وجد [3].

طلب هذا الأخير من محققي بلنسية مده بالتقارير عن الوضع عندهم ليتم عرضها في اجتماع مدريد [4]. وفي 28 من أبريل السنة نفسها كلف جميع محققي محاكم التفتيش بتطبيق العفو والرحمة اتجاه المتنصرين الجدد[5].

شغلت المسألة الموريسكية كل الأطياف، وقد كان على رأس المسؤولين المهتمين البابا كلمينتي السابع الذي تولى زمام الأمر بنفسه في 15 مايو 1524، وطلب من الملك ألا يستهين بمراقبة هؤلاء، وطلب من محققي كنائس التفتيش أن يحددوا أجلا لتنصير كل المورو المتبقيين أو طردهم من إسبانيا، إلا أن الملك من بلاطه أصدر أوامر بعدم طرد ذلك الجنس، وفي 3 نونبر من السنة الموالية، كتب إلى المفتش العام يأمره بتطبيق تعاليم البابا[6]. وفي المقابل اجتمع بمدريد المجلس المذكور في دير سان فرانسيسكو، وذكر بالتدابير المتفق

(1) الأرشيف العام لسيمنكاس، كتابة الدولة، رقم 329.

(2) الوثيقة رقم 1 من مجموعة الوثائق الدبلوماسية ضمن هذا الكتاب.

(3) الأرشيف العام بسيمنكاس، الكتاب رقم 6، ص. 20.

(4) رسالة وجهها أسقف إشبيلية إلى محققي محاكم التفتيش، برغش 61 أبريل لسنة 1524.

(5) وجهت نسخة من الرسالة إلى كل محاكم التفتيش، المؤرخة ببرغش بتاريخ 28 أبريل سنة 1524.

(6) الوثيقة رقم 2 من مجموعة الوثائق الدبلوماسية.

عليها في حق مورو الأحواز الذين دخلوا في الدين الجديد،[1] وبعث الملك لاحقا مذكرة بتاريخ 4 أبريل 1525 يذكر بالنقط المتفق عليها أيضا خلال اجتماع الهيئة المذكورة، ويأمر بأن يتم الاعتراف الكلي بالمتنصرين الجدد كمسيحيين كاملي الأهلية والحقوق بعدما اعتنقوا الدين الجديد عن طواعية ورضا[2]. وبهذه الوثيقة يمكن اعتبار مشكل المسألة الموريسكية قد حل وانتهى في بلنسية واعتبر المتنصرون القادمون من الضواحي المتمردة مسيحيين حقيقيين حسب القوانين العامة، ووعدوهم بالمساواة مع المسيحيين القدامى. إلا أن أحد رجال الدين مثل خايمي بينيت لم ينصح بتنصر المدجنين، لكن الأمر تم يوم 10 مايو للسنة نفسها بقيادة دون غاسبار دي أبالوس، أسقف وادي آيش، ومبعوث المحقق العام لمحاكم التفتيش: «توجه الجميع يوم الأحد إلى الكنيسة الكبرى للاستماع إلى الأسقف لمعرفة سبب اجتماعهم ودعوتهم. وبعد التقديم تلا مذكرتين ومرسوما وطلب من المورو المسيحيين الجدد أن يخضعوا لثلاث عمليات من أجل تثبيت ذلك على ثلاثة مراحل، عشرة أيام لكل واحدة منها أي لمدة ثلاثين يوما والاستفادة من تعليمات وقوانين دينية ليخضعوا طواعية وكليا لتعاليم الكنيسة المقدسة وفي حالة ثبوت العكس، ستتم متابعتهم القانونية والحكم عليهم بالإعدام والاستيلاء على ممتلكاتهم[3].

عينت الملكة دونيا خرمانا أعضاء اللجنة الذين يساعدون المكلفين بالسهر على تطبيق هذه التعليمات، وكان على أعضاء بلنسية أن يتوجهوا لمجريط للتدخل خلال أشغال اللجنة المذكورة. وبهذا أمر كذلك من مقره المفتش العام إلى زملائه في بلنسية بتاريخ 14 شتنبر[4] 1524 . مرت أشهر عديدة على وصول اللجنة إلى بلنسية المكلفة بالسهر على تطبيق الأوامر والتدابير المتخذة في حق المورو من أجل تنصيرهم. إلا أن النبلاء والوجهاء

(1) نفسه، رقم 3.

(2) ماركوس دي غوادالاخارا إي خابيير، الطرد الصائب و الترحيل المبرر للموريسكيين من إسبانيا، ج.1، ص. 164.

(3) دون خايمي بليدا، تاريخ المورو في إسبانيا، الكتاب الخامس، الفصل 29، ص. 647.

(4) الرسالة التي وجهت إلى كل محققي التفتيش ببلنسية، المؤرخة ببايادوليد 14 شتنبر 1524.

الذين كانوا يحضون بحماية خاصة رفضوا التخلي عن حماية أتباعهم الموريسكيين أو إجبارهم على التنصر أو فقدان السيطرة عليهم. وقد واعدوا بحفظ الأمان وأمن المملكة في تلك البقعة، ولم يحصلوا على ذلك إلا حينما عملوا على حماية مصالح محاكم التحقيق باتفاق مع هذه الأخيرة، وتحقيق رغبات الملك والمفتش العام[1].

كتب دون كارلوس إلى دون غاسبار دي أفالوس في 5 غشت سنة 1525 بحثه على مواصلة المهلة التي بدأ في تطبيقها[2] كما توجه في التاريخ نفسه بالشكر إلى دوق غانديا يشكره على الاهتمام الذي أبداه من أجل تطهير مجاله الترابي من المورو المرتدين الخونة الذين يرفضون طقوس ومراسيم التنصير[3]. كما عاتب الكونت أليفا على تخاذله وتقاعسه أمام إتمام تلك العملية وتلك المعركة[4]، وعبر عن استيائه أيضا لمحلفي بلنسية لإيفادهم مبعوثين إلى مفتشين يطلبون منهم التوسط للموريسكين، وشدد على أن استمرار الحياة الآمنة في بلنسية إنما يتعلق بتلك المسألة[5]. كما أبلغ رسميا كل رعاياه بإصدار قانون يمنع الجميع من حماية المورو أو تقديم أي مساعدة لهم في حالة رفضهم الدخول في الدين الجديد، وفي حالة قبولهم يصبحون إسبانيين يتمتعون بجميع حقوقهم[6].

لقد بدأ النظام مصرا على القضاء على ذلك الجنس، وعدم التسامح مع أي أثر للمدجنين الذين كانوا يسعون بكل الطرق لمواصلة ممارستهم لشعائرهم وعاداتهم ولغتهم، وكان عداؤهم قويا وشديدا أمام كل ما هو مسيحي، إذ كان بالنسبة لنا في تلك الفترة مرادفا لكل ما هو إسباني. فر العديد منهم إلى مرتفعات برنية وكان ذلك سببا كافيا للتأكد من إحساس وسلوك التمرد والعداء البارز لدين وأمن إسبانيا، وقد أدى ذلك

---

(1) رسالة أسقف إشبيلية إلى قضاة بلنسية، المؤرخة في طليطلة يوم 12 يونيو 1525.

(2) انظر نسخة من القانون الذي أصدره صاحب الجلالة، المؤرخة بطليطلة يوم 5 غشت 1525.

(3) نفسه.

(4) نفسه.

(5) نفسه.

(6) أرشيف سيمنكاس، مجلس محكمة التفتيش، الكتاب رقم 6، ص. 40.

أيضا إلى تمرد البيازين الذي سرعان ما انتشر وسرى في أماكن أخرى متعددة.

لم نتأخر في الانكباب بالدراسة على كل السبل والطرق المتبعة للقضاء عليهم واستئصالهم، وفي رأينا لابد للمؤرخين من العودة إلى وثائق لم تتم دراستها لحد الآن فيما يتعلق بهذه المسألة ومسؤولية الملك فيليبي الثالث اتجاه هذه القضية.

الفصل السادس

تدابير جديدة من أجل توجيه وتنصير الموريسكيين البلنسيين/ طرد المورو الرافضين للتنصير / تمرد وثورة الموريسكيين في برنية، بني الوزير، لامويلا دي كورطيس / الاتفاق الذي تم بين الموريسكيين والملك / تأملات في المسألة الموريسكية.



باءت بالفشل كل المحاولات والتدابير الملكية، كل الخطوات التي سنتها محاكم التفتيش ولم تؤت أكلها اتجاه ذلك الجنس العجيب، الموريسكي، لأنهم أيضا كانوا يحضون بحماية ودعم الأسياد والنبلاء لهم. لكن السؤال المطروح هو: هل غلب هؤلاء المنفعة المادية والاستفادة من المال على مصلحة البلاد؟ كانوا يتكلمون عن الرحمة اتجاه الموريسكيين، التي لم تكن في الحقيقة إلا تبريرا لجمعهم للمال. كانوا يضربون عرض الحائط بالمصلحة الدينية وبالصالح العام، وبخسوا أنفسهم لتحقيق مكاسب رخيصة، ضيقة وخاصة.

هل تخلى الملك عن تطبيق قراراته وأرجأها؟ هل كان وزراء الملك مرتشين؟ لقد كان صعبا التعامل مع المسألة الموريسكية، خصوصا عندما تبناها الخرمانوس في ضواحي بلنسية احتجاجا على معاملة الملك كارلوس الأول وحماية النبلاء لهم.

تم الاتفاق في مدريد على مجموعة تدابير، ساهم في بلورتها عملاء مسؤولون استسقوها من توجهات الرأي العام، وكان من المستحيل أو الخطير تجاهلها وعدم تطبيق ما خلص إليه. لم يكن هناك مجال للتراجع، وصلت إلى أسماع الملك كارلوس الأول الاحتجاجات ووصلته رغبة السجين ابن سانو الذي كان يطالب بسحق المسلمين ومحو أثرهم من فوق تراب المملكة المسيحية. تعامل الملك باشمئزاز مع الطلب أكثر منه بالاستغراب. فر الموريسكيون إلى برنية تجنبا للخضوع لمراسيم التنصير، وهم يتربصون بأقرب فرصة مواتية للتمرد ضد حكم الملك. من هنا جاءت رغبته في تفعيل القرارات والأوامر التي كان قد أصدرها سابقا[1].

كتب المحقق العام لمحاكم التفتيش إلى القسيس خوان دي سلامانكا بطليطلة في 6 غشت 1525، موافقا على بعض التدابير التي اتخذت في بلنسية من أجل إخضاع

(1) انظر الرسالة التي وجهها الملك إلى الملكة دونيا خرمانا، المؤرخة بمدريد يوم 10 أبريل سنة 1525. الأرشيف العام لسيمنكاس، مجلس محكمة التفتيش، الكتاب رقم 6، ص. 37.

المتمردين في برنية وتتبع ومراقبة المتنصرين الجدد[1].

في التاريخ نفسه ذكر السيد ويرتا بأوامر وتدابير الملك وعزمه على تطبيقها اتجاه الموريسكيين[2]. أيام قلائل بعد ذلك، كلف نائب الأسقف العام ببلنسية المكلف بالعمل ضمن أسلاك محكمة التفتيش من أجل التتبع الدقيق اليومي لتحركات المتنصرين الجدد[3].

لم يكن الأمر يسيرا، كان الموريسكييون يمارسون عاداتهم ومعتقداتهم المسلمة، ويتجنبون الخضوع للتنصير وممارسة الشعائر المسيحية. رغم محاصرتهم، كانت النتائج سلبية وضعيفة إن لم نقل منعدمة. لم ترق إلى تطلعات الملك الذي وجه خطابا من سيغوربي في 13 شتنبر من تلك السنة إلى دوق المدينة يخبره بقراره، وبعدم السماح لأي أحد المكوث فوق تراب المملكة على غير الدين المسيحي الكاثوليكي وحثه على تنصير أتباعه حتى يكون قدوة لكل الأسياد ويفعلوا الأمر نفسه مع المسلمين الذين يعملون في خدمتهم أو تحت حمايتهم[4]. في اليوم نفسه وقع على مرسوم يدعو فيه المورو إلى التنصر مقابل الاحتفاظ بحرياتهم وممتلكاتهم كمسيحيين حقيقيين، وأن يمارسوا كل معتقدات الدين المسيحي في البلاد، ويكونوا رعايا مخلصين وصالحين[5]. ووجه كذلك خطابا آخر في المنحى نفسه إلى نبلاء بلنسية ودوق سيغوري[6]. وفي اليوم الموالي كتب رسالة إلى دونيا خرمانا يطلب منها التفضل بجمع رجال الدين المعنيين بالأمر في محاكم التفتيش لكي

---

(1) انظر النسخة الأصلية التي وجهها أسقف إشبيلية إلى الراهب خوان دي سلامانكا، المؤرخة في طليطلة يوم 6 غشت 1525. الأرشيف العام لسيمنكاس، وثائق حول محاكم التفتيش، الكتاب رقم 75، ص. 217.

(2) انظر النسخة الأصلية من الرسالة التي وجهها أسقف إشبيلية إلى المعلم بويرتا، المؤرخة بطليطلة يوم 6 غشت 1525. أرشيف سيمنكاس، وثائق حول محاكم التفتيش، الكتاب رقم 75، ص. 216.

(3) انظر النسخة الأصلية من الرسالة التي وجهها أسقف إشبيلية إلى نائب الأسقف العام ببلنسية، المؤرخة بطليطلة في 8 غشت سنة 1525. أرشيف سيمنكاس، وثائق حول محاكم التفتيش، الكتاب رقم 15، ص. 457.

(4) الأرشيف العام لسيمنكاس، الكتاب 15، ص. 216.

(5) نفسه، ص. 456.

(6) نفسه، ص. 455.

ينسقوا مع أسقف النائب العام لبلنسية من أجل تنصير أكبر عدد ممكن من المورو وتحقيق الأهداف المتوخاة والحفاظ على النتائج التي تم تحقيقها إلى ذلك الحين[1] .

لم تساهم كل تلك التدابير إلا في تعقيد مسألة الموريسكيين الذين واصلوا حياتهم داخل محيطهم دون أن يعيروا أي اهتمام لكل التدابير المتخذة لصالحهم، ومن أجل تنصيرهم. وخلال شهري يونيو ويوليوز عمل المسؤولون على إحصاء كل الذين تم تنصيرهم وطالبوهم بالتشبث بعقيدتهم المسيحية الجديدة[2] .لكن النتيجة كانت هزيلة إن لم نقل منعدمة ومخزية.

وصل القسيس أنطونيو غيفارا إلى بلنسية من أجل العمل في محكمة التفتيش الكبرى يوم 8 أكتوبر وحث الموريسكيين على الدخول في المسيحية تحقيقا لرغبة الملك. أسبوع بعد ذلك تم قتل كل المورو الذين قدموا إليهم تطبيقا لتعاليم وأوامر الملك[3] .

فزع الموريسكيون حينما وصل الخبر إلى آذانهم، وفي اليوم الموالي بعدما حل جون خايمي الأول بالمدينة احتفالا بذكرى دخولها، قدم طلبا عبر فيه عن رغبة الملك وأوامره بمنع كل الموريسكيين من الخروج من مساكنهم وأن مخالفة الأمر تعرضهم للأسر والعبودية[4] .

هل اتخذت كل التدابير اللازمة لتطبيق تلك القرارات والأوامر؟ لا نتصور أن ذلك تم على المستوى المحلي. واصل الموريسكييون عنادهم. وكان المغلوب يسعى بكل الوسائل لتحدي رغبة الغالب على جميع المستويات حتى في مجال التسلح. وأمام هذا التعنت أصدر الملك قرارا آخر في 21 من الشهر نفسه يمنع الموريسكيين من بيع الذهب

(1) الأرشيف العام لسيمنكاس، الكتاب 15، ص. 457.

(2) خايمي بليدا، وثائق تاريخية حول مورو إسبانيا، الكتاب الخامس، الفصل 29، ص. 647.

(3) إسكولانو، سبق ذكره، ص. 720.

(4) نفسه.

والفضة والجواهر والحرير والبهائم والمواشي وجميع السلع الأخرى[1] .

توجس الموريسكيون خيفة من تلك التدابير وتدارسوا فيما بينهم السبل التي تمكنهم من تجنب نتائج وخيمة تترصدهم ومسايرة أوامر الملك[2]. قرروا إيفاد 12 قائدا من بينهم للتفاوض حول حل يرضي الطرفين[3].

صدر قرار في بلنسية يوم 16 نونبر يدعو الموريسكيين البلنسيين إلى تتبع تعاليم الكنيسة، وأن يعلقوا على قباعاتهم هلالا من الجوخ الأزرق، وألا يحملوا السلاح، وألا يعملوا في أيام المواسم والأعياد، وأن ينحنوا للصليب ويحيوا رجال الدين حينما يقابلونهم في الشارع، وألا يصلوا ولا يقيموا أي شريعة أو حفل له علاقة بالإسلام والممارسات الموريسكية وتعاليم دينهم[4]. نشرت يومين بعد ذلك، وثيقة وعلقت في الكاتدرائية وفي كل الكنائس والأديرة، وصلت من طليطلة إلى كل البلنسيين تتوعدهم بالعقاب في حالة الإخلال بعدم تطبيق التعليمات والأوامر. وفي 25 من الشهر نفسه وجد في الكنيسة مرسوم كليمينتي السابع يهدد كل من يعصى تطبيق أوامر الملك، وأن على الموريسكيين أن يخضعوا للتنصير والدخول في الدين الكاثوليكي نهاية الشهر، وحدد تاريخ لطرد من يعارض ذلك[5]. كانت تلك إذا أوامر وتهديدات الملك لأشخاص يعيشون فوق تراب المملكة ولا يحترمون تعاليمها. فهل استكانوا وخضعوا لكل التعاليم ؟

شكلت طباعهم وعقيدتهم عائقا وحائلا ضد كل تمازج، كان حسهم الديني قويا ومتطرفا، الأمر الذي أدى إلى إزهاق أرواح كثيرة وإراقة أودية سائلة من الدماء. لم تكن تنفع معهم لا الأوامر والعقاب ولا حلول الرحمة والتسامح. وعمل النظام على محاولة

(1) نفسه.

(2) إسكولانو، سبق ذكره، ج. 2، ص. 721.

(3) نسخة من رسالة الملك المؤرخة بطليطلة في 10 نونبر سنة 1525. الأرشيف، سبق ذكره، الكتاب رقم 6، ص. 68.

(4) إسكولانو، سبق ذكره، ج. 2، ص. 027.

(5) داميان فنسكا، الطرد الصائب للموريسكيين...، ص. 15-16.

إجهاض حركة التمرد التي بدأت تسري بين موريسكيي بني الوزير [1]. لكن كل ذلك باء بالخيبة والفشل، وكانوا مستعدين للدفاع عن دينهم وعقيدتهم بأسلحتهم في أيديهم، رفضوا مراسيم التنصير والخضوع للكنيسة، على أمل إحياء الحكم الإسلامي في إسبانيا من جديد. من خاف على نفسه وأراد حفظ روحه دخل مكرها في المسيحية ومن كان يسكن المارد المسلم في روحه بداخله انسحب إلى البشارات والبيازين تحضيرا للتمرد وتحقيق النصر. لم يكن المسيحيون القدامى يثقون في تنصرهم ولا في شخصهم ولا كانوا يحلمون بالقضاء عليهم، مما اضطرهم إلى تحمل نتائج تحدي الموريسكيين لهم.

أصدر الملك أوامر بإخراج كل الموريسكيين الذين لم ينصروا من بلنسية في 31 دجنبر من السنة نفسها. شعر هؤلاء بحنق الملك واسترجعوا المآل والمصير الذي تعرض له بنو جلدتهم في بلاطه[2] . وتم ترحيل الذين بقوا على عقيدة محمد خارج المملكة، رافقوهم إلى غاية مدينة بثكاية في حدودها مع فرنسا، ليستقلوا مراكب متجهة نحو إفريقيا. عدد قليل منهم بقي في بني الوزير، لكن الذين غادروا لم ينسوا من مكث في المملكة وحاولوا مساعدتهم، إلا أنهم عانوا قبل ذلك من السلطة والقوة التي نهجها جماعة من الحكام بشأنهم مثل خيرونيمو كابانيليس، لويس فرير، خيمينيث بيريث دي برتوسا و بالتاثار غرانوييس. حينما علم الملك بتمرد الموريسكيين مرة أخرى أصدر قرار عفو يوم 6 يناير 1526 في حق الذين استسلموا[3]. كما أنه تم القضاء على تمردهم في بني الوزير يوم 17 مارس 1526، إلا أن نواتهم في أسبذان بقيت قائمة إلى غاية 19 شتنبر من السنة نفسها حسب ما جاء على لسان الأب بليدا.

حصلت بين الجنسين الموريسكي والمسيحي مواجهات متعددة ربما أهمها التي قادها سليم المنصور، تكبد فيها كلا الطرفين خسائر هامة، ولولا التعزيزات التي بعثها

(1) نسخة من رسالة الملك إلى الملكة دونيا خرمانا، المؤرخة في طليطلة يوم 2 دجنبر 1525.

(2) نسخة أصلية من الرسالة التي أرسلها أسقف إشبيلية إلى المفتش، مؤرخة بطليطلة في 6 يناير 1526. الأرشيف العام لسيمنكاس، الكتاب رقم 75، ص. 261.

(3) نسخة من قرار العفو الذي اصدره الملك في حق المورو، المؤرخ بطليطلة يوم 6 يناير 1526.

الملك والمكونة من ثلاثة ألاف جنديا ألمانيا لكانت النتائج كارثية [1]. إلا أن هزيمتهم لم تكن تعني نهايتهم، لقد خلفوا قبل رحيلهم حرائق وهلعا وسط المدن والقرى، تقتيلا وقرصنة جعلت المسيحيين يعيشون في فزع مستمر. طلب المسؤولون ببلنسية اتخاذ تدابير أكثر صرامة ضد المتمردين في برنية وإسباذان[2] ، لكن لا يمكننا في الحقيقة إلا أن ننظر بكل استغراب للتنسيق الذي كان بين موريسكيي بلنسية، والاتفاق الذي حصل بينهم وبين محاكم التفتيش[3] في بعض فصوله ورد بأن هذه المحاكم لن تتابع الموريسكيين لمدة 40 سنة ولن تجبرهم على ارتداء اللباس المسيحي خلال 10 سنوات وفي الفترة نفسها يمكنهم تكلم اللغة العربية بدل البلنسية أو القشتالية، ويمكنهم اتخاذ أسواق ومحلات للبيع قرب مساجدهم التي حولت إلى كنائس، يمكنهم الحفاظ على روابط الزواج المختلط التي تمت من قبل، وتعود ممتلكات المساجد إلى الكنائس ويعطى جزء منها إلى الفقهاء الذين تحولوا إلى الدين الجديد، ويمكنهم حمل الأسلحة وتغيير مسكنهم ويحتفظ بمراكز وأحياء العرب كجامعات مستقلة في بلنسية، شاطبة، جزيرة شقر، كاستليون دي لا بلانا. فهل كان السبب في كل هذه التنازلات مقاومة وثورة الموريسكيين في بني الوزير، إسباذان ومويلا دي لاكورطيس؟ هل غير الملك كارلوس الأول سياسته اتجاه المدجنين الموريسكيين؟ في الحقيقة تم الاتفاق مع الذين لم يعتنقوا الدين الجديد ولم يقبلوا بالتنصير. هل كان الهدف من هذا كله هو جرهم تدريجيا نحو الدخول في الدين الكاثوليكي وتيسير عملية انصهارهم داخل المجتمع المسيحي تدريجيا؟ الجواب على كل هذه التساؤلات نجده في بلاغ المحقق العام الذي وجهه لزملائه في بلنسية، حيث يوضح لهم الروح التي يجب التعامل بها في تطبيق الاتفاق الآنف الذكر:

«نحن دون ألونسو، المفتش العام المكلف بتنصير المورو وإدخالهم في ديننا الكاثوليكي بفضل الرب بمملكة أراغون، بلنسية وقاتالونيا نبشركم بالدور الرائد الذي تقوم به

(1) وثائق دبلوماسية.

(2) انظر التدابير التي اتخذت في حق المورو خلال اجتماع البلاط في مدريد سنة 1528.

(3) الوثيقة رقم 5 من الوثائق الدبلوماسية ضمن فصول هذا الكتاب.

محاكم التفتيش. تنصر بعض المورو بمحض إرادتهم حسب تعاليم الكنيسة لكن بعضهم تم استغفالهم والكذب عليهم من طرف بعض المتلاعبين الذين أوهموهم بأن الاتفاق صدر عن الملك وأنه يمكنهم البقاء على دينهم لمدة 40 سنة والاحتفال علانية بطقوسهم ومناسباتهم. يعتبر هذا خرقا وتحد ويعرض كل من ارتكب ذلك الخطأ للعقاب الشديد والصارم، إلا أنه يمكن التساهل في البداية مع المتنصرين الجدد إلى أن يعتنقوا ويتعلموا كلية كل ما يتعلق بديننا الكاثوليكي وينقطعوا عن ممارساتهم المحمدية، وكل من عارض ذلك يتعرض لعقاب محاكم التفتيش. لقد تم إعلام كل من القضاة والفقهاء بهذه التدابير وكل من جاء عندنا للتفاوض بشأن الاتفاق أو المتنصرين الجدد. وحتى لا يدعي أي أحد منهم الجهل بالعادات والممارسات المسيحية أعطى الملك أوامره لتعميم تعليمها والتعريف بها في جميع أوساطهم حتى يتم العمل بها واتباعها في هذه المدينة : بلنسية وباقي المدن والأماكن الأخرى.وننهي هذا الإعلان بختمنا وتوقيعنا وتوقيع كاتب محكمة التفتيش المقدسة في بينتو بتاريخ 22 من شهر أكتوبر سنة 1528 لميلاد المسيح، وبحضور كل الأساقفة مسؤولي الكنيسة، الدكتور سلدانيا والمفتش العام والكاتب خوانيس غرسيا[1].

بالإضافة إلى ذلك كتب القسيس السالف الذكر إلى محققي محاكم التفتيش في 26 دجنبر من السنة نفسها : «أيها السادة المحققون ، لقد توصلنا برسالة حول المتنصرين الجدد وتم دراستها وتداولها داخل أوساطنا ونعاقب من أعلن عنها في ملإ ولم يعرف إيصال ماجاء بداخلها إلى الرأي العام؛ لأنه قد تكون تمت الاستجابة لبعض مطالبهم ولكن ذلك مقابل المصلحة العليا لمجتمعنا. لا يجب على المتنصرين الجدد أن ينخدعوا في مفهوم بعض العبارات والمصطلحات، يجب عليهم أن يعيشوا كمسيحيين وليس كمورو. ونسعى كلنا من وراء هذه التدابير لإرضاء الرب وطمأنة وحفظ الأرواح، أرواح إخواننا المتنصرين الجدد الذين اعتنقوا ديننا الكاثوليكي الذي أصبح دينهم أيضا.

(1) الأرشيف العام بسيمنكاس، الكتاب رقم 76، ص. 101.

وفقنا الرب جميعا لرضاه. طليطلة 26 دجنبر 1528. خادمكم، أسقف إشبيلية»[1].

رغم أننا لا نستطيع الوقوف عند موقف الوزراء أمام كل هذه الإعلانات والقرارات والرسائل، إلا أننا نتوفر على بعض المقاطع من وثيقة مراسلة غير مؤرخة لكن وجد بها تاريخ سنة 1524،الأرشيف العام بشانت مانكش جاء فيما يلي: « يجب تضمين التقرير الموجه إلى الملك الاقتراحات التي أوردها أمين سر الدولة حول ما أورده المتنصرون الجدد في مملكتي طليطلة ومورسية الذين اقترحوا تقدير 100.000 دوقية على غرار ماكان في عهد الملك الكاثوليكي[2].

هل كانت هذه العروض المالية وهذه الممارسات تدل على عجز ميزانية المملكة في تلك الآونة؟ هل كانت تلك مطالب الوزراء المحيطين بالملك؟ لقد وصف لنا عدد من المؤرخين مثل بيدرو مارتين دي أنغليريا تفشي الرشوة والفساد في تلك الحقبة ؛ لكن لعدم توفر الوثائق التاريخية يصعب علينا الحسم في هذه الفترة وهذه الوقائع، إلا أن هذا لا يمنعنا من استخلاص بعض الاستنتاجات من بعض الأحداث التي سردناها سابقا وتطرقنا لها. يمكننا أن نقول بأن نية الملك لم تكن في الحقيقة تسعى إلى التنصير المباغت والكلي للموريسكين، لأنه كان يعلم جيدا بأن الزمن كفيل بإقناعهم وتمكينهم من اكتساب كل عاداتنا ومعتقداتنا. وكان الهدف من اتخاذ تلك التدابير مرة تخويف الموريسكيين وتهدديدهم، ومرة تنصيرهم، وأخرى الرفع من مستوى خزينة الدولة. لم يكن طبيعيا ولا معقولا أن يتصرف الملك كما ورد في الاتفاق، ذلك الرجل الذي كان يسعى لسحق كل سلوك إسلامي فوق تراب المملكة لا يمكن أن يسمح للموريسكيين بممارسة معتقداتهم لمدة 40سنة دون أن تتم متابعتهم والتربص بهم. إلا أنه لم يكن يمكن المتنصرين الجدد من التجرؤ على الدين أو اللهو والاستخفاف بالمقدسات المسيحية. كان الملك كارلوس الأول يعتبر في الحقيقة قيصر زمانه، وقد قال في حقه الدكتور هيبلير:

(1) نفسه، ص. 126.

(2) كتابة الدولة، الكتاب رقم 12، ص. 3.

«ماكان يتميز به الملك كارلوس الأول خلال فترة حكم هو إخلاصه وبره بوعده وقسمه[1].

كانت وضعية مملكتنا الاقتصادية متدهورة بينما الموريسكيون يتوفرون على أموال طائلة وكانوا يساهمون في إغناء وإثراء تجارة ومصالح أسيادهم الذين يوفرون لهم الحماية؛ الأمر الذي لم يكن الملك يغفله بمعية مستشاريه خلال تسطيره لذلك «الاتفاق الغريب» إلا أنه لم يسمح قط بالاستهزاء بالمقدسات والدين من طرف هؤلاء المورو أو المتنصرين الجدد. تعالت الأصوات المنادية بمحاربة الإسلام وسحقه، تلك الأصوات التي لم تكن لتخمدها أو تسكتها الأموال أو المصالح أو سلطة النبلاء والأسياد أوحتى القصر نفسه. كان الشعب الإسباني مستعدا لأخد الثأر بنفسه وسحق الموريسكيين وعصيان أوامر الملك في هذا الشأن.

قبل بعضهم التنصر حتى لا يواجهوا المصير نفسه الذي واجهه أبناء دينهم وجلدتهم، وهم يرحلون إلى الشواطئ ويضطرون للتخلي عن أطفالهم ورضعهم، إلا أن كل هذه الأمور ساهمت في تعقيد المسألة الموريسكية، كما وضح القسيس باييث حينما قال عنهم: «خافوا من الموت فقبلوا الدخول في المسيحية». الأمر نفسه أورده أنطونيو دي غيفارا «هكذا وضح وهو يفتخر في رسالة بعثها إلى غارسيا سانشيس دي لابيغا بأنه نصر في مملكة بلنسية أكثر من 27 ألف حالة» وأضاف لاحقا في الوثيقة المذكورة التي رفعها إلى فيليبي الثاني بأن هناك ثلاثة أصناف من المتنصرين: «القسم الأول تنصر قسرا وجرى ذلك على يد مجموعة من الثوار البلنسيين يدعون خرمانوس؛ النوع الثاني ثوار إسباذان الذين تم العفو عنهم ودخلوا في المسيحية، والقسم الثالث هم الذين فضلوا البقاء في إسبانيا وقبلوا بالدين الكاثوليكي. ويمكننا أن نتصور أنه قد استعمل عنف شديد في هذه الحالات ولم يعلم بها الملك لأن ذلك تم بالعنف أكثر منه بالرضا والطواعية. كما تم ذلك في بعض الأحيان دون توجيهات الكنيسة إذ لم يكونوا يتلقون أي مبادئ ولا يلقنون

(1) الدكتور كونراد هايبلير، الرخاء والأزمة الاقتصادية في إسبانيا خلال القرن السادس عشر، ص. 159.

أي تعاليم تخصهم وتعني أبناؤهم وذويهم...».

ومن هنا استخلص خوان باوتيستا بيريث بأن العنف والقسوة كانا شرطين أساسيين وعاملين مهمين في كل هذه العملية. كان الشعب على علم بهذه المعطيات ولم يكونوا ليسمحوا بما جاء في الاتفاق الذي أسلفنا ذكره، لكن المسيحيين القدامى كانوا يستمدون مجدهم من حفظ تعاليم دينهم، وسحق الممارسات المحمدية فوق تراب مملكتهم، وممارسات أولئك الكلاب المورو.

كان الشعب يعرفهم جيدا لأنهم كانوا يعيشون معهم عن قرب ويطلعون على ممارساتهم وسلوكهم وحقدهم ومقتهم للدين المسيحي، ولو لم تمسك محاكم التفتيش بزمام الأمر وتنتهج عملياتها بصرامة لما كان ذلك الجنس ليقهر فوق تراب إسبانيا المسيحية. وقد عبر الشعب عن رأيه بصراحة اتجاههم واستعمل كل مافي وسعه لتحقيق ما يمليه عليه واجبه الديني والوطني.

بقي قسم أخر، «قسم رابع من المتنصرين الجدد قال عنهم بيريث سنة 1597 بأنهم هم الذين كانوا قد تنصروا في سن مبكرة وهم أطفال، تعلموا وتشبعوا بمبادئ الدين الجديد، كما أنهم شهدوا التعذيب والعقاب الذي طال الرافضين والكاذبين المرتدين منهم، الذين فروا لكي لا يسمعوا تعاليم الكنيسة[1].

تستحق هذه الفترة التاريخية كل اهتمام من طرف الدارسين والناقدين للأوضاع الاجتماعية لهذا الجنس البئيس المتشبث بعقيدته حتى النخاع وبتعاليم القرآن. على المؤرخين أن يستحضروا الخطر الذي كانوا يشكلونه على أمن وأمان البلاد. لكن قد استمر مع ذلك تواجدهم في إسبانيا وكان ارتفاع عددهم يهدد أكثر المسيحيين الإسبان فوق ترابهم[2].

(1) الأسقف بيريث، سبق ذكره، الإحالة رقم 535 في الفصل الخامس.

(2) الوثيقة 6 من وثائق دبلوماسية.

الفصل السابع

الإصلاح الديني البروتستانتي في إسبانيا والمسألة الموريسكية/ المصاعب التي خلقها المتنصرون الجدد للنظام الملكي / تدابير لتسهيل عملية تنصرهم والأسباب التي تعرقلها / وضعية الموريسكيين.



بعد ما تم إخضاع الجنس المسلم والسيطرة عليه وتحقيق الوحدة السياسية لإسبانيا، أضحى من الطبيعي بالنسبة لشعب مسيحي أن يعدل عاداته وقوانينه وطبقاته الاجتماعية خصوصا فيما يتعلق بالكنيسة ودورها .لقد تم التفكير في استغلال الثروات والمواد الأولية التي تزخر بها بلادنا خصوصا فيما يتعلق بالخشب والخمور والحديد[1].

ساهم اكتشاف القارة الأمريكية بدوره في ازدهار صادراتنا الفلاحية والمنتوجات الحيوانية . لقد كانت كل أوروبا تنظر بإعجاب إلى النظام الاقتصادي الإسباني الذي ينتهجه الملوك الكاثوليكيون الذين لم ينسوا كذلك التركيز على الجانب الفكري والثقافي للملكة. أرتفعت أبواق الإصلاح والتعديل تنادي بحدة ، وبقي تاريخ تلك الحقبة شاهد عصر على العدد المرتفع والمهم للمؤلفين والمبدعين في جميع الميادين ، خصوصا في المجال الديني اذ عرفت الكنيسة أوجها وقمة تأثيرها .

ماتت إيسابيل وواصل الشعب المطالبة بالإصلاح والتعديل خصوصا حينما شاهدوا ثمرة مجهودهم يقطفها الكاردينال تسنيروس. دقت ساعة الإصلاح في ألمانيا و ارتفع صوت مارتين لوثيرو أمام شعب وصل إلى درجة ربط الموت والكراهية برجال الدين (الكليروس) مطالبا بالإصلاحات العميقة والجذرية ، وتعالت الأصوات مرتفعة بضرورة مواجهة ليس ليون العاشر فحسب ،بل أعلى رجل في سلم الكنيسة.

لا أحد يجهل المراحل التي قطعتها أوروبا لإدخال التعديلات البروتستانتية على أنظمتها الدينية والممارسات والمشاهد الدموية التي رافقت ذلك ، لم تقف إسبانيا موقف المتفرج من تلك الأحداث. لم تنخرط فقط في التعاليم التي من خلالها أنتفض ليون العاشر في 15يونيو 1520، بل استقبلت بحفاوة بالغة الرسالتين البابويتين التي أصدرهما البابا في 21 مارس سنة 1521 إلى قائد ورئيس البحرية يأمرهم فيها بمراقبة

(1) الرخاء والأزمة الاقتصادية في إسبانيا، سبق ذكره.

دخول وتداول كتب الأسقف الألماني[1]، كما وجه المجلس الأعلى لمحاكم التفتيش خطابا للملك يحثه فيها على معاقبة كل من يتبع أخطاء لوثيرو[2]. لكن لم تفلح لا رسائل هذا ولا طلب أولئك في أخماد صوت المطالبين بالتغيير والإصلاح خصوصا في صفوف المثقفين والمتعلمين[3].

أدانت محكمة التفتيش ببلنسية سنة 1524الألماني المبجل بلاي إستيبي[4]. مدة قليلة بعد ذلك، بدأت مبادئ لوثيرو تنتشر في جميع تراب إسبانيا . لاقى ذلك صدى عند بعض الموريسكيين، إلا أننا لا نؤيد بالفعل ما قاله بعض المؤرخين الذين وجدوا تقاربا بين مبادئ دين محمد و لوثيرو، لكن المغلوبين كانوا يتحينون الفرصة للانتقام من الغالب والتحالف مع أعدائه وخصومه من أجل إضعافه.

كانت المتابعة الدينية ضد الموريسكيين شرسة ودون هوادة إلا أن الأوضاع السياسية كانت مزرية، وكان العرش منذ القرن السادس عشر إلى بداية القرن السابع عشر على وشك الانهيار. في سنة 1525 اتخذ الملك تدابير لتطبيق قرارات «مجلس مدريد» وطلب الملك من دوق كلبرية مد يد العون للأسقف برطلومي دي لوس آنخيليس في التعامل مع قضية الموريسكيين وإقرار الدين المسيحي وتقويته[5]. شكل ذلك نقطة أخرى في سجل سياسة الدولة فيما يتعلق بحل هذه المعضلة. جاءت في السياق نفسه رسالة من الملك إلى القائمين بالشأن الديني في بلسنية تحثهم على تفعيل اندماج الموريسكيين مع المسيحيين القدامى ، لكن ذلك لا يعني أنها ليست هناك أحياء خاصة بأتباع محمد. بدوره وجه المفتش العام ببلنسية رسالة إلى باقي المحققين في المدينة يحثهم على حسن تدبير

(1) أدولفو دي كاسترو، تاريخ البروتيستانت الإسبان ومطاردتهم من طرف فيليبي الثاني، ج. 1، ص. 460، طبعة قادس. أرشيف سيمنكاس، كتابة الدولة، الوثيقة رقم 9، ص. 1.

(2) نسخة من قرار المجلس، مؤرخة ببرقش يوم 13 أبريل 1521.

(3) غنثالو إليسكاس، التاريخ الكنسي، ، ج. 2.

(4) دنبيلا، ص. 87 من محاضراته.

(5) الأرشيف العام لسيمنكاس، الكتاب رقم 6، ص. 270.

مسألة الموريسكيين دون إلحاق أضرار باقتصاد البلاد[1]. ومرة أخرى حاولوا الجمع وإدماج الغالب والمغلوب، لكن للأسف لم ترق تلك الحلول والتدابير السلمية لاهؤلاء ولا أولئك، كانت هناك حلقة مفقودة، وأسس يرتكز عليها الطرفان للتعايش .

لقد بدا جليا فشل تلك التشريعات والقوانين. وصلت أصداء ذلك إلى المفتش العام ببلنسية فبعث من طليطلة رسالة في فاتح فبراير سنة 1529 يطلب منهم تعيين مصلحين جدد كحل لموقف الراهب برطلومي دي لوس آنخيليس[2]. الى جانب كل هذا واصل القراصنة الأفارقة هجومهم على شواطئنا في ليبانتي.

سنة 1528 أُسِرَ تسعة وأربعون إسبانيا مسيحيا من طرف المورو في ميورقة[3]، كما أن القراصنة عملوا على تخليص أزيد من مائتي موريسكي كانوا سيرحلون انطلاقا من أليفا إلى الجزائر، وقتلوا القائد المسيحي المشرف على العملية بطعنه في صدره[4]، تم أيضا تمزيق جثث الأسرى المسيحيين بالسكاكين[5]. ونظرا للتنسيق بين القراصنة والموريسكيين أصدر دوق كلبرية ببلنسة في 11 من يناير 1530 قانونا يمنع الموريسكيين من مغادرة منازلهم أو التنقل داخل بولوب، كليوسا، فنيستراط، أرشيطا، سيليا وريليو[6]. كان حاكم الجزائر يعتمد على الجواسيس من بين الموريسكيين للقيام بحملاته على الشواطئ الإسبانية ، لكن نتأسف فعلا للتدابير التي كانت تؤخر عقاب بعض الخونة المتآمرين[7].

كانت القرصنة الخارجية والمؤامرات الداخلية هو السلاح الذي يستعمله المورسيكيون ضد المسيحيين في بلادنا . لكن حماية النبلاء لهم عرقلت في مواضع عدة عملية الانتقام

(1) الأرشيف المركزي، الوثيقة رقم 445، القرار الصادر بتاريخ 12 فبراير 1529.
(2) نسخة من الرسالة التي بعثها المحقق العام إلى محققي بلنسية، طليطلة فاتح فبراير 1529.
(3) وثائق تاريخية عن مايورقة.
(4) الراهب دييغو دي أييدو، تاريخ الجزائر...، ص. 56.
(5) نفسه، ص. 56.
(6) دنبيلا، سلسلة المحاضرات، ص. 109 – 112.
(7) نفسه، رقم 543.

منهم، ولم يكن الملك مستعدا للدخول في صراع معهم نظرا لوضعهم الاقتصادي المتميز ولسيطرتهم على أتباعهم وخدمهم[1] . أصدر المجلس المقدس سنة 1531 قرارا يدعو موريسكيي مملكة أراغون بأداء ضريبة لأسيادهم من المسيحيين القدامى[2]. لا نلوم في الحقيقية أحدا فيما يتعلق بتواجد الموريسكيين بيننا، إلا أن الناقد يعرف كيف يفرق بين الفعل والحق.

بعث كلمينتي السابع إلى المحقق العام خطابا بتاريخ 2 أكتوبر 1530 يطلب منه العفو عن الموريسكيين الذين تراجعوا عن موقفهم في أراغون، بلنسية وقتلونية [3]. تكررت مثل تلك المعاملة في مواقف متعددة، تم نشر مراسم تدعو للتسامح والعفو عن الموريسكيين الذين رفضوا علانية اعتناق الدين المسيحي. وهكذا عرفت المسألة تأرجحا بين العقاب والعفو. لكنهم واصلوا تعنتهم ورفضهم للعقيدة التي تفرض عليهم، أين يكمن سبب ذلك؟ هل التطرف الأعمى هو الذي يفرض على الموريسكيين اعتناق الدين الذي يدعو إليه الإسبان؟ فقد اعتمدوا كذلك على حماية الأسياد النبلاء الذين كانوا يِؤدون لهم قدرا ماليا مقابل حريتهم.

أمر كذلك الملك كارلوس الأول باتخاذ التدابير الآتية: «تحويل كل المساجد إلى كنائس مسيحية وأن يعطى إلى جانب العشر الذي يمنح إلى الأسياد قسط آخر إلى الكنيسة وأن يتم استغلال المراكز الاقتصادية المحيطة بالمساجد[4]. تعقدت المسألة الموريسكية مع مرور الزمن، أثبت القراصنة تفوقهم على قوة بعض الفرسان الإسبان الشجعان المشهود لهم بالبسالة مثل أندريس دوريا الذي حاول مواجهة تلك المعضلة وذلك الخطر[5].

(1) انظر وثيقة النبلاء ودورهم في حماية الموريسكيين، الأرشيف العام لسيمنكاس، رقم 72.

(2) الأكاديمية الملكية للتاريخ.

(3) الحالة الاجتماعية للموريسكيين، ص. 51، يؤكد هذه المعلومات السيد خانير في كتاب دون مانويل كلميرو، حول التشريع والحكم في مملكتي قشتالة وليون.

(4) نفسه.

(5) هلييدو، سبق ذكره، ص. 57.

تكلف دون أنطونيو راميريث دي هارو، أسقف سيغوبيا بالتدابير الخورنية للموريسكيين، فأصدر أمرا يقضي بالانتباه والاحتياط من المورو المتنصرين الذين يسهلون هجوم وتسلل القراصنة عبر شواطئنا[1]. وقد أبلغت سلطات مونثون سنة 1533 عن بعض الجرائم التي ارتكبها الموريسكيون وعن الحماية التي يوفرها لهم النبلاء وتشبثهم الشديد بهم نظرا للمصالح المادية التي تربطهم بينهم[2].

بدوره بعث أنطونيو راميريث دي هارو، رئيس دير أرباسن خطابا للملك يطلب منه عدم السماح بتواجد المورو في مملكته وأن يخلي بلنسية وأراغون من الذين لم يتنصروا إذ يوجد أيضا بين الموريسكيين خونة كثر يتسترون ليمارسوا شعائرهم الدينية، رغم أننا أوضحنا كما جاء على لسان السيد دنبيلا بأنه أقيمت كنائس على أنقاض مساجدهم، إذ بلغت مائة وثلاث عشرة كنيسة في بلنسية، 14 في طرطوشة ، 10 في سيغوربي و14 في أريولة [3].

كتب الملك في 3 من مايو 1540 إلى دون فرناندو دي أراغون، نائب الملك في بلنسية، يكلفه بالسهر على تكوين الموريسكيين المتنصرين في مجال دينهم الجديد وتلقينهم كل مبادئ الكنيسة. لقد عمل على تطبيق تلك التعاليم بمعية مجموعة من المحققين والقساوسة إلى أن تم طرد الموريسكيين [4]. استعملوا من أجل تعليمهم وتلقينهم الدين الجديد كل الطرق والسبل من محاضرات، دورات تكوينية ولقاءات فردية وجماعية، لكن هؤلاء كانوا دائما يردون على كل تلك المجهودات بالجحود والخيانة.

ازدهرت عمليات القراصنة في تلك الآونة على شواطئنا، كبدتنا خسائر فادحة وقضت مضجع أمننا، خصوصا بعد تحالف الأتراك والفرنسيين ضد بلدنا. وقد تم

(1) مملكتي قشتالة وليون، ج. 4، ص. 76-78.

(2) وثائق بلاط منثون، 1533.

(3) سلسلة محاضرات، ص. 116.

(4) الأسقف مارتين دي أيالا، توجد نسخة من الوثائق في مكتبة جامعة بلنسية، رقم 53-1-42.

اجتماع في بيادوليد ومنثون سنة 1537 لإيجاد حلول لهذه الكارثة المحدقة ببلادنا[1].

لم يكن الموريسكييون غرباء عن هذه التحركات ولا كانوا أبرياء من تسللهم وهجومهم، كما أثبت ذلك بعض المؤرخين[2]. لقد كان ذلك خرقا للتعاليم الملكية الصادرة في هذا الشأن[3]. لقد أمر الملك بإنزال العقاب بالمتآمرين المتعاونين مع القراصنة ولكن يبقى السؤال المطروح هو:هل استطاع الملك تطبيقه؟ لا أظن. كانت حماية النبلاء والوجهاء تقف حائلا أمام ذلك رغم صدور أحكام ضدهم مثلما حصل في 1540 ضد دون سانشو دي كاردونا، الحامي والمدافع الأكبر عن موريسكيي غواداليطي ونواحيها[4].

«حينما تتقلد شخصية ما منصبا ساميا داخل أجهزة الدولة، أي ما يقابله حاليا منصب القائد العام أو قائد الأسطول البحري آنذاك، يتعرض للإعدام أو السجن المؤبد إن ثبت تعامله أو حمايته لأحد الموريسكيين في بلنسية، ويعتبر خارجا عن القانون». لكن حينما كان يحصل هذا، لم يكن ممكنا تطبيق القانون في عدة حالات، نظرا للسلطة والنفوذ الذي كان يتمتع به هؤلاء الأسياد والنبلاء الذين كانوا يدافعون عن مبدإ التعامل الأخوي وسياسة التسامح التي بقيت سائدة، إلى غاية نهاية حكم كارلوس الخامس»[5]. وبدون هذه الحماية فكيف يمكن تفسير سلوك عدد من الموريسكيين الذين ارتكبوا جرائم كبيرة وفادحة مثل غاسبار الفريكس وآخرين، الذين فروا من أراغون إلى مملكة بلنسية حيث كانوا ينعمون بالحرية ويفلتون من العقاب[6] . كيف يمكنهم الاعتداء على بعض المحققين في محاكم التفتيش ويفرون أحيانا من بين أيديهم لو لم تتوفر تلك الحماية والحظوة

(1) وثائق مملكة بيادوليد 1537.
(2) ص. 119-125.
(3) دون خايمي، وثائق غير منشورة، ج. 18، ص. 152.
(4) وثائق دبلوماسية، ص. 126.
(5) مانويل دنبيلا، ص. 127.
(6) النسخة الأصلية من سلسلة محاضرات دنبيلا، 16 غشت 1538.

لدى الأسياد النبلاء؟»[1].

وفي هجوم قاده القراصنة على شواطئ إسبانيا من جهة المتوسط لاقى حتفه أزيد من أربعين ألف إسباني[2]. أدى هذا بالملك إلى تصعيد وتيرة التهديد وتشديد التدابير الأمنية على الشواطئ تحسبا لكل هجوم أو تسلل، وأمر كذلك الموريسكيين بألا يحملوا أي نوع من السلاح للدفاع عن أنفسهم أو للهجوم[3]. فلم يأبهوا بكل هاته الأوامر وواصلوا أنشطتهم مما دفع محاكم التفتيش بتحريك آلياتها من جديد ولو ضد النبلاء الذين يوفرون لهم ولمصالحهم الحماية والأمن مثل دون ردريغو بومونت[4].

المهم، هوماذا كان سيحصل لوجمع كارلوس الخامس كل قواده ليعاقب قراصنة الجزائر[5]، ويطلب مجددا من برطلومي دي لوس آنخيليس بأن يثبت العقيدة عند الموريسكيين، إذ كان موقف هؤلاء يعارض كلا من رغبة الملك البابا ومحققي محاكم التفتيش، والرأي العام والتعاليم التي كانت تدعو لتنصر حقيقي لذلك الجنس؟

صدر مرسوم 1543 الذي يقضي بالعفو عن التائبين من المتنصرين الجدد في ألميدو وأريبولا؛ لكن كل تلك التدابير كانت تتحطم على صخور المصلحة المادية التي كان يشكلها الموريسكيون بالنسبة لأسيادهم. لذا لا يمكننا أن نصف الملك بالبلادة أو الغباء حينما عين الراهب برطلومي دي لوس آنخليس والدكتور أنطونيو راميريث دي هارو من أجل تكوين وتقوية وتصحيح العقيدة لدى الموريسكيين البلنسيين[6]. كان

---

(1) الحراس الذين كانوا يرافقون ألفريكس إلى بلنسية في 6 مايو 1538، تم اغتيالهم في طريق سرقسطة، وهم كالآتي: بدرو مليانو، وزير محكمة التفتيش بسرقسطة، و بلتاسار دي طوريس، قاضي المحكمة. فر الجناة ورحلوا إلى الجزائر.

(2) هاييدو، سبق ذكره، ص. 60.

(3) نشر نسخة من هذا القرار دنبيلا، سلسلة المحاضرات، ص. 127–129، النسخة الكاملة للنص من وثائق تاريخية، رقم 8.

(4) وثائق دبلوماسية، رقم 9.

(5) هاييدو، سبق ذكره، ص. 62.

(6) فلورينثيو خانير، وقع الملك رسالته يوم 28 فبراير 1543.

لابد من إسكات احتجاج الرأي العام الذي ينادي بحل للمسألة الموريسكية. ومن جديد تمت المناداة على المفتشين المعنيين بالأمر للقيام بواجبهم مع اتخاذ الحذر والحيطة «إذ كان على كل واحد منهم أن ينشد ارتياح الأسياد الذين يحمون الموريسكيين التابعين لهم، وأن ينظروا بعين الرضى إلى التدابير التي ستتخذ»[1]. لم تكن تلك الوسائل لتصل إلى النتائج المتوخاة، ووضعت العراقيل أمام برطلومي دي لوس آنخليس لكي يبلغ الغاية المنشودة التي كان يحققها في مواقف وأماكن أخرى[2]. وبمناسبة تعيينه، وجه الملك خطابا إلى موريسكيي بلنسية يطلب منهم الإصغاء للراهب برطلومي بكل حب واستسلام وخضوع[3]. كما طلب منهم الأمر نفسه دون أنطونيو راميريث دي هارو[4] وقد مكن نائب ملكة بلنسية برطلومي من تتبع مراحل تنصيرهم[5]. لكن كان ينقص الأهم: موافقة الأسياد على تحركات ومواقف رجال الدين، فكتب نائب الملك في بلنسية إلى النبلاء في مملكته مخاطبا: «ننتظر من هذه المسألة رضاكم ودعمكم من أجل تثبيت روح ديننا المقدس، لذا يجب علينا أن نسهل مأمورية المكلفين بذلك في الكنيسة من أجل السير العادي والمرن للعملية»[6].

توصل الأسياد بالطلب لكنهم لم ينفذوه، بل تجرؤوا على أن طلبوا من الملك تبرئة أتباعهم الموريسكيين من الأحكام التي أصدرتها ضدهم محكمة التفتيش. أحس الملك ووزراؤه بالحرج والتلعثم لكنهم لم يلبثوا أن استسلموا وأصدروا أوامر تقتضي المرونة في التعامل معهم أمام تفشي أسياد لا يحيدون ولا يتنازلون عن رأيهم»[7].

(1) نشره السيد خانير، سبق ذكره، ص. 231.

(2) وثيقة الأماكن التي يحدد من خلالها الأب برطلومي دي لوس آنخليس مواقع المتنصرين الجدد الذين يجب تلقينهم تعاليم دينهم الجديد بمملكة بلنسية، أصدرها السيد خانير، سبق ذكره، ص. 233-432.

(3) نفسه، ص. 235.

(4) نفسه، ص. 236.

(5) نفسه، ص. 238.

(6) الوثائق الدبلوماسية، رقم 11.

(7) نفسه.

أمام هذه الأحداث والمواقف دعا الملك إلى عقد دورة للمجلس في مجريط حضرها كل من راميريث دي هارو ، دون خوان سيليثيو ، أسقف طليطلة و الراهب بيدرو دي سوطو وبعض المحققين الآخرين، الذين أمهلوا الموريسكيين مدة 26 سنة لتعلم مبادئ الدين الجديد دون أية ملاحقة أو مضايقة من طرف محاكم التفتيش. كما نرى، عادت سياسة التسامح من جديد لتحل بدل الشدة وذلك لضغط الأسياد وقوتهم. ومنذ ذلك الحين عاد الموريسكيون إلى ممارسة شعائرهم الإسلامية على مرأى ومسمع من الجميع وعادوا لحياة المورو، يصومون رمضان، ولا يذهبون للكنيسة ويعملون خلال الأعياد، ويتعللون بأنه يمكن العيش على هذه الحال كما يحلو لهم لمدة ثلاثين سنة[1].

تلك السياسة التي حتمتها الظروف لم تتأخر في أن أصبحت عامة ونشطت عمليات القرصنة، وارتفعت أصواتهم بسبب رجال الدين وشن حملة كذلك ضد محققي محاكم التفتيش إلى أن كتب قداسة باولو الثالث إلى أسقف شقوبية يدعوه لمتابعة المجرمين المنحرفين[2]، كما أن الملك وجد نفسه مضطرا لإصدار مذكرة في الشأن يوم 22 شتنبر 1545[3].

لقد ساهمت التدابير الملكية في إضعاف دور محاكم التفتيش حينما سمحت للمورو المتنصرين بتعلم مبادئ الدين الجديد بمحض إرادتهم؛ الأمر الذي أدى إلى تكثيف اللقاءات والتكوينات لصالح أبناء الموريسكيين، لكنهم لم يكونوا ليتحولوا عن دينهم، وواصلوا تربية أبنائهم على مبادئ دين محمد وانتبهوا بأن طريقة التعليم التي تلقن عن طريق التخويف والتهديد لم تكن لتِأثر فيهم أو تجعلهم يتزحزحون قيد أنملة عن معتقداتهم الإسلامية الراسخة. تنبه الملك ورجال الكنيسة إلى ان كل التدابير، لا العقاب ولا الرحمة والتسامح، كان يجدي مع هذا الجنس وأن التمازج بين الجنسين كان

(1) سلسلة محاضرات، ص. 131-132.

(2) وثائق دبلوماسية، رقم 12.

(3) نسخة كاملة ضمن الوثائق الدبلوماسية، رقم 31، ص. 132-133.

مستحيلا استحالة كلية، كما أن القوانين لم تكن تراعي أي جانب يسهل تمازجها. كانوا يقيمون في بلد تعتبرهم تشريعاتهم مهزومين مغلوبين، وأن الحل الوحيد والخيار الأوحد أمامهم إما الخضوع والاستسلام وإما الهجرة والجلاء. كان هذا الوضع هو السائد لمدة طويلة في حياة الجنس الموريسكي بمملكة أراغون[1] .

لم يكن ممكنا أن يخصص النظام الموريسكين بتعامل خاص مادام الصراع قائما ضد المتمردين، أتباع لوثيرو في ألمانيا[2] ، الأمر الذي كان يضعف موقف الملك الذي حقق أزيد من مائة انتصار. من هنا جاء قرار حجز كل ممتلكات ذلك الجنس[3] .

كان لابد من اتخاذ تدابير أكثر صرامة ونجاعة وذلك تطبيقا للسلطة الملكية وإرضاء للرأي العام، وطمأنة المسيحيين القدامى الذين كانوا يشعرون بالهلع أمام إفلات المتمردين من العقاب وعمليات القرصنة المتسارعة. يبقى السؤال المطروح هل أثبتت كل تلك التدابير نجاعتها في استئصال العقيدة الإسلامية من نفوس جنس يعيش وسط شعب مسيحي؟.

(1) محاضرات، ص. 134-135.

(2) عدد كبير من المؤرخين تطرق لأحداث ذلك النصر في 24 أبريل 1547. لويس دي ثونييغا: تحليل وقائع الحرب بين الملك كارلوس الخامس ضد أتباع لوثيرو سنتي 1546-1547، وثيقة ضمن مكتبة المركيزة أرملة كروييس. ج. 4، صفحات بدون ترقيم، حصل على هذه الوثيقة دون أغوستين ساليس، مؤرخ بلنسية.

(3) الوثيقة رقم 14، من الوثائق الدبلوماسية.

الفصل الثامن

حقيقة طباع الجنس الموريسكي / القديس طوماس دي فيلا نويبا / مجلس بايادوليد سنة 1548 من أجل تعديل قانون التعامل مع الموريسكيين / مطران بلنسية يؤكد على ضرورة قمع جسارة هؤلاء / اجتماع مجلس غرناطة / جهود دون فرانسيسكو دي نافارا من أجل تنصير موريسكيي نافارا.



من أصعب المتاعب التي تواجه المؤرخ، هو تحديد المعالم أو الطباع الحقيقية للموريسكيين بإسبانيا. هناك من ينظر إليهم بأنهم شعب مثقف، مجتهد، مسلم، ويستحق حظا أحسن وأوفر. كما أننا لا نعجب من الصورة التي رسمها لهم بيدرو أثنار دي كاردونا[1]، كوادالاخارا بليدا، إسكولانو ومؤرخون آخرون، شهدوا عملية طردهم وأطلعونا على تلك الوقائع خلال بداية القرن 17.

لن نقول بأنها غير صحيحة وغير مضبوطة تلك الوثائق التاريخية التي خلفوها لنا، لكنه يجب أن نأخذ بعين الاعتبار الخوف والرعب اللذين كانا يواجهانهم من طرف الكنيسة والنبلاء دون إغفال الملك ومحيطه أيضا. قد يتعرضون للاتهام بالتعاون مع أعداء إسبانيا.

عن المورسكيين وصورتهم وطباعهم يقول لنا المؤرخ: «كانوا أناسا جميلي الوجه والطلعة، متقاعسين، أعداء للعلم والتجربة، أخلاقهم فاضلة وطيبين بعيدين عن كل سلوك مدني أو سياسي عقلاني، لا يراعون المبادئ الصحية في سلوكهم إلا التي يضطرون إليها» وقال عنهم أيضا: «كانوا يحبون السخرية، يعشقون الغناء والرقص ويفضلون نفخ المزمار والدف، يربون المواشي والحيوانات التي يعتمدون عليها في عملياتهم الحربية ويستمتعون بالسير والتسكع في الطرقات».

لن نستمر في الأوصاف التي جاء بها المؤرخ، ولكنه يمكننا أن نجمل: «بأنهم كانوا يتعاطون للأنشطة الفلاحية، ويأكلون ليعيشوا ويدخروا المال وينمونه، ينتقمون ممن يؤذيهم ويترصدونه، متطرفين ولا يصفحون.

لقد تركوا بصمات خالدة وعميقة في المناطق التي عاشوا فيها ومروا منها، في طريقة عملهم بالحقول، لباسهم و أغانيهم، شكل حرثهم وصناعتهم، عاداتهم وشعوذتهم،

(1) الطرد المبرر للموريسكيين الاسبان، ج. 8، طبع في ويشكة، سنة 1612.

حفلاتهم والبذخ الذي ورثوه عن بني جلدتهم في المشرق و طريقة ركوبهم الخيل.

حينما نتذكر هذا نتخيل أن كل هذه الأحداث جرت البارحة فقط بكل ملايين التفاصيل. فإلى غاية أواسط القرن التاسع عشر نجد ممارساتهم وعاداتهم حاضرة بإلحاح في المناطق والمدن والقرى التي عمروها وأقاموا بها. ولازالت أكواخ وملابس سكان بلنسية تحمل بصماتهم، كما نجد عندهم أيضا صنع الحرير وزراعة السكر والقنب. واستمر هذا الجيل المهجن لأزيد من ثلاثة قرون وهو يمارس كل عاداته وسلوكه.

لا يمكننا أن نغفل دأبهم على العمل والاجتهاد إلا أن هذا العمل لم يكن له أثر وتأثير في إصلاح، وتقدم عدة قرى ومدن مسيحية قديمة، وهذا يعود أيضا إلى أن الربح المادي كان يستفيد منه الأسياد. لم يواز التقدم المادي عندهم والتقدم الفكري والثقافي. ولا يمكننا أن ننفي بروز شخصيات هامة بين الموريسكيين ولكن دون أن يشكل ذلك القاعدة العامة.

لكننا نقف مشدوهين أمام إنجازاتهم في المجال الزراعي والفلاحي، كما أنه لا يمكننا إلا التصفيق لقناعات ذلك الجنس العنيد الذي لم يتنازل عن دينه وعن معتقداته رغم كل التهديد والعقاب. ولم يكونوا يتعاطون للفنون الميكانيكية، فالثلة القليلة التي مارست ذلك منهم إنما كان فرارا كي لا تحتك بالمسيحيين القدامى وليس من أجل تطويرها وتنمية محيطها[1]. لكن طابعهم الحقيقي ومميزاتهم الواضحة يمكن البحث فيها في حياتهم الدينية وممارسة عقائدهم وحفلاتهم: «وكان الموريسكييون مسلمين حتى النخاع في جميع مناحي عيشهم، عاداتهم ولغتهم، يطبقون تعاليم القرآن في حياتهم اليومية ويقدسون موروث أجدادهم، والمتنصرون منهم لم يتركوا ممارستها واعتقادها، وكانوا يعتبرون أنفسهم اعداء للمسيح حتى داخل الدين الجديد. وقد أثبتت وثائق تاريخية هامة ومتعددة تشبثهم بتعاليم محمد وممارستها رغم كل المحن والظروف، فرغم اختلاطهم بالمسيحيين القدامى لم يتأثروا بهم ولا بطريقة عيشهم أو دينهم. وبقيت آثار

(1) وثائق كربوس كريستي ببلنسية.

عديدة شاهدة على وجودهم، تجسدت في الكم الهائل من المساجد التي شيدوها و الكتب العربية التي تركوها وتداولوها في سرية تامة بين أسرهم[1].

اشتهروا كذلك بنقل البضائع، حتى المتنصرين الجدد منهم[2]، وكان ذلك الأمر يمكنهم من الاتصال فيما بينهم، وتناقل أخبار المسيحيين القدامى وكل القضايا التي تتربص بهم. كانوا بهذا الأمر على علم بكل ما يجري في محيطهم والمناطق المجاورة لهم. تجسد كرههم الشديد للمسيحيين القدامى في ممارساتهم المحمدية الإسلامية وطريقة ملبسهم وكلامهم[3] .

سنمر الآن لدراسة وضعية مملكة بلنسية خلال أواسط القرن 16 لأنها كانت تشكل نواة وموطن الساكنة الموريسكية حيث وقعت أهم الأحداث المتعلقة بهذا الجنس. للأسف نعترف بأن الأصوات المعادية و المعارضة التي انتفضت خلال حكم إسابيلاَّ وفرناندو كانت على صواب إذ كان رجال الكنيسة يتعاطون لأنشطة لا تمت لمجالهم واختصاصهم بصلة. كانت ممارستهم لا روح فيها ونساؤهم ضحايا البذخ والأسواق . ويمكننا أن نتصور الحالة الحالكة التي كان عليها المجتمع في القرن الرابع عشر [4]. فكانت بلنسية معروفة بأكبر نسب الرشوة والارتشاء.

عن تلك الأوضاع قال لنا الكاتب والشاعر المرموق خوان باوتيستا أنييس في رسالته التي وجهها من كفرينتيس بتاريخ 15 يناير 1533 إلى نائب الأسقف العام ببلنسية دون خوان غيس، يتأسف على الوضع المزري لتفشي الرشوة والفساد في جميع الممارسات والمظاهر خصوصا بين الموريسكيين، ويطلب بإرسال معلمين من الكنيسة، على وجه السرعة، ليحدثوهم عن الإيمان ويعلموا هؤلاء المتنصرين الجدد تعاليم ديننا حتى

(1) خانير، سبق ذكره، ص. 46.

(2) نفسه، ص. 47.

(3) نفسه، رقم 15، وثائق دبلوماسية.

(4) قسم سان بيثينتي فرير في كنيسة بلنسي، الأرشيف الملكي لكربوس كريستي.

يصلحوا حالهم وسلوكهم[1].

خلال فترة وجوده القصيرة، وعد دون خورخي دي أوستريا بتحسين أوضاع الموريسكين في بلنسية، الأمر نفسه كان متوقعا في أراغون؛ إلا أن امتناع المتنصرين الجدد ومقاومتهم بلغت إلى درجة أن قال عنهم دون خورخي: «من ترك هذه المسؤولية لأسباب متعددة، من بينها أن المجهود الجبار الذي بذل ولم يف بالأمل المنشود، كانت الحصيلة هزيلة جدا، كأننا نحرث كلمة الرب في أرض لا تنتج، أرض فاسدة عقيمة[2].

لقد حاول رجال أكفاء متعلقون بالدين المسيحي وبتطبيق تعاليمه السمحة من أجل زرع الإيمان في قلوب هؤلاء الموريسكيين، لكنهم فشلوا في أكثر من محاولة. كما أن صراع رجال الكنيسة[3] في هذا المجال أدى إلى ضعف المردودية والتأثير في الموريسكيين.

بدورهم، كان النبلاء يتوسطون لدى بعض الشخصيات، مثل دوق قلبرية لإيقاف حملتهم ضد الموريسكيين والمتنصرين الجدد؛ إذ كان الأسقف تورينتو يتصور بأن مهمته في المملكة هي مراقبة المتنصرين الجدد عن كثب، والإطلاع على مسار حياتهم وأمور دنياهم وشرائهم وبيعهم وكل ما يتعلق بهم[4].

وفي المقابل نورد رسالة أخرى بعثها إلى الملك يقول فيها: «سيدي المتعالي القوي المبجل، أخبرني أسقف ويشقة حيث يوجد تكليفي بالمهمة، أنني متهم بالثورة والتمرد لعدم حضوري القداس، وأنتم تعلمون جيدا أنني دائما رهن إشارتكم وفي متناول يدكم، وهدفنا الأسمى خدمة معاليكم. بعد ذهاب أسقف سيغوبيا بقي هؤلاء المتنصرون الجدد دون رقيب أو حسيب ويتجاسرون يوميا باتباع ونهج شعائرهم ومعتقداتهم الموريسكية.

(1) الطرد المبرر للموريسكيين...، ص. 25.

(2) نفسه.

(3) خوسي بيثينتي، حياة فضائل ومعجزات ومراسم احتفال سانطو طوماس دي فليانوبيا، اسقف بلنسية. ج. 1، ص. 400، طبعه غنثاليث خوان، بلنسية، 1731، ص. 128.

(4) الوضع العسكري بالمملكة، رقم 2، الكتاب يتضمن وثائق عن الأوضاع السائدة بين 1542- 1560.

نحن نجد أيدينا مقيدة من أجل عقابهم وتصحيح مسار حياتهم. لذا نلتمس من جلالتكم بعث من تثقون فيه للقيام بهذه العملية كي تستقيم الأمور، وتشفي الغليل، وتقوم المعوج ويعتنقون الدين الجديد في كل ممارساته ولا يعيشون حياتهم كمورو. كما أخبر جلالتكم أنه خلال الشهر المنصرم قد قدمت ثلاث أو أربع فرق قراصنة وفد أفرادها من الجزائر وأسروا في هذه الشواطئ أزيد من 100 شخصا. وهذا يعتبر إهانة لبلد مثل وطننا إسبانيا؛ إلا أننا لا نشك في الموريسكيين الذين يسهلون لهم أمور الهجوم ويدلونهم على أخبارنا وخبايانا. إذ يعتبر تواجدهم بهذا الشكل إهانة لنا وللرب وللدين. أطال الرب عمركم يا صاحب الجلالة. بلنسية 12 أبريل 1547. الراهب طوماس، كنيسة بلنسية[1].

من خلال كل ما ذكرناه وأسلفناه نستنتج أن الموريسكيين استمروا في حياتهم كمورو، لم تنفع معهم قبضة النار والحديد، ولا سياسة التسامح والرحمة. لقد شغلت القضية الموريسكية أعلى سلاليم وهياكل الكنيسة كما ورد وبقي في مراسلات ووثائق الكنيسة التي مازال جلها محفوظا إلى يومنا هذا في أرشيف شانت مانكش[2]. فمن خلالها نعرف أن الكنيسة والقائمين بالشأن قد بذلوا كل ما في وسعهم لكي يصدق إيمان الموريسكيين بدينهم الجديد، لكن دون جدوى. هيأوا كتبا ووثائق لأبنائهم، ولهم ليتعلموا مبادئ الدين المسيحي وركائزه، وتعددت اللقاءات التعليمية حيث يتم شرح روح الدين الكاثوليكي وسماحته، إلا أنهم كانوا يواجهون كل ذلك بالتجاهل والاعتراض. وكانوا يفضلون إعطاء المال وأداء الضريبة مهما بلغت على ألا يدخلوا في الدين الجديد. كان يتم تتبعهم وترصدهم حتى داخل بيوتهم للتطلع عن كثب هل حسن تنصيرهم، وكانوا يتعرضون لكل أنواع العذاب لثنيهم عن دينهم. لم يكن ممكنا اندماجهم بمفهوم انصهارهم ليكونوا مجتمعا متحدا واحدا ومتجانسا. كان الجدار الذي يضربونه بينهم وبين الدين الجديد والمسيحيين القدامى عميقا وسميكا يصعب بل يستحيل تجاوزه. وفي

(1) الأرشيف العام لسيمنكاس، كتابة الدولة، رقم 300، مجموعة وثائق غير منشورة، ج. 5، ص. 100.

(2) نشر تلك الوثائق أيضا دنبيلا، ص. 136-139 من محاضراته.

بعض الفترات طلب منهم التظاهر على الأقل في الخارج بممارسة شعائر الدين الجديد والعقيدة المسيحية.

كان كل رجال الدين المتعاقبين في بلنسية يتصورون أنه لا يمكنهم تخليص روحهم من النار والعذاب إن لم يستطيعوا تنصير الموريسكيين[1]. كتب بعضهم للملك يحدثه عن السلوك القويم لرجال الدين وكيف أنهم يقبلون الأموال التي يمدهم بها الموريسكيون حتى يستطيعوا الحفاظ على ممتلكات الكنيسة ويساعدوا الفقراء، ويعطوا الصدقات، وكل هذا بفضل ما يأخدونه من أموال الموريسكيين. هل كانوا سيقبلون بهذا لو كان هدفهم الحقيقي هو إعلاء روح ودين المسيح؟[2].

أشار القديس طوماس فيليانويبا بكل وضوح إلى العوامل الأساسية التي كانت تعرقل حل المعضلة الموريسكية وتسهل عصيانهم وتمردهم، «علاقتهم بقراصنة الجزائر وحماية النبلاء لهم». تجسد هذا بكل وضوح في تدخلهم لصالح الموريسكيين ثوار بيرنية وإسباذان[3]. لازال أرشيف شانت مانكش يحتفظ بوثاق تتعلق بالاتفاقيات المتعلقة بالمسألة الموريسكية في مملكة بلنسية ونواحيها خلال المجلس المنعقد سنة 1548 [4].

تعرضت شواطئ أليكانتي لهجوم شرس من طرف القراصنة وأسر عدد كبير من الرجال، من أجل تهدئة الأوضاع واستتباب الأمن، وتم السماح للموريسكيين بممارسة شعائرهم الدينية الإسلامية بكل حرية. واتفقت سلطات منثون على تدابير أخرى[5]، لكن الأمن بقي مهددا ليس في الخارج فقط بل في الداخل أيضا. وتواصلت عمليات القراصنة التي كانت تكلف البلاد أموالا كثيرة من أجل افتداء أسراها[6] ، شكل ذلك أيضا عاملا من بين الأسباب التي أدت إلى ركود اقتصاد إسبانيا وتبادلها التجاري عبر

(1) فنسكا، الطرد الصائب والعادل للموريسكيين...، ص. 26.

(2) نفسه.

(3) بلاط مانثون 1547.

(4) الوثيقة رقم 3، ضمن الوثائق الدبلوماسية.

(5) نفسه.

(6) سلسلة المحاضرات، ص. 140.

البحر حتى لا تتعرض بواخرها لهجوم الأتراك والجزائريين. بالإضافة إلى هذا كان الموريسكيون يفلتون بجلدتهم ولا يتعرضون للمساءلة أو العقاب، الأمر الذي كان يشجعهم على التمادي في خيانتهم وتمردهم وعصيانهم، فرغم أن القانون والأوامر والتعليمات الملكية كانت تجرم التستر عن القراصنة أو مساعدتهم إلى غاية أن وصل الملك فيليبي الخامس إلى سدة الملك سنة 1707 وألغى ذلك القانون القديم من مملكة بلنسية.

أهم السبل لحل المشكلة الموريسكية يمكن أن يتجسد في الآتي:

«إغلاق الأبواب والحدود أمام قراصنة الجزائر وفك علاقاتهم بالموريسكيين في بلنسية وأراغون، وتجريدهم من الأسلحة، وإجبارهم على تطبيق التعاليم والقوانين المسيحية على الأقل في الخارج والأوساط العامة، وتلقينهم العقيدة المسيحية وتعليمهم أصول الدين وتوفير المدارس والمعاهد لهم من أجل ذلك ومراقبتهم باستمرار. كان ذلك رأي وبرنامج الراهب طزماس دي فليا نويبا إلا أن الأمر لم يتم تحقيقه لعدم توفر الإرادة السياسية وذلك للأسباب التي ذكرناها آنفا.

في 13 من غشت 1552 وصل خطاب مشابه إلى ابن كارلوس الأول يخبره بالخطر الذي يهدد مملكة بلنسية[1] وضرورة بعث تعزيزات من أجل مواجهة القراصنة الأتراك و ردع المورو ونزع سلاحهم[2].

وفي 10 أكتوبر 1553 صدر من جديد القانون الذي يمنع الموريسكيين من الهجرة إلى الجزائر[3]، إلا أنه كذلك يمكننا أن نعاتب بعض القساوسة الذين لم يقوموا بدورهم اتجاه الموريسكيين وتركوهم مثل القطيع دون راع[4].

واصل الموريسكيون حياتهم كالمورو في ملبسهم وكلامهم، لم يكونوا مسيحيين

(1) الأرشيف العام لسيمنكاس، كتابة الدولة، عدد 306، ضمن وثائق غير منشورة، ج. 5، ص. 107.

(2) نشر الكتاب السيد خانير، ص. 244-245، سبق ذكره.

(3) وثائق دبلوماسية، رقم 16.

(4) دوق ماكيدا، نائب ملك بلنسية، 27 أكتوبر 1553، وثيقة غير منشورة، ص. 2، ضمن وثائق خزانة السيد غروييس، رقم 74.

صالحين. عملت السلطات والمسؤولون على محاربتهم في طقوسهم، وعاداتهم وفي حمامتهم، كانوا يتركون أبوابهم مفتوحة يوم الأعياد وأيام الجمعة، منعوا نساءهم من طلاء أيديهم وأرجلهم وشعرهم بالحناء، ومن الزواج على طريقة المورو وألا يضع أطفالهم القبعات فوق رؤوسهم[1] .

لم يهتم الموريسكييون بكل هذه الأوامر الملكية وقد تم التراجع عنها لاحقا قبل أن يغادر الملك غرناطة[2]. وتوفي القديس طوماس دي فيليا نويبا في 8 شتنبر سنة 1555[3]، وخلفه في بلنسية فرانسيسكو دي نافارا، إلا أن المسيحيين عبروا عن صدمتهم حينما رأوا بأن الموريسكيين مازالوا يمارسون كل شعائر دينهم المحمدي من صلاة، ووضوء وصوم، واحتفال بعيد الأضحى.

لقد تطرقنا سابقا إلى الأسباب التي أدت إلى هذه النتائج الضئيلة، كما أننا نعترف بفشل إسبانيا في حل المعضلة الموريسكية، ولم تطبق القوانين المتعلقة بالموريسكيين للأسباب التي ذكرناها أيضا. كم مرة تم منعهم من استعمال اللغة العربية، والذهاب إلى حماماتهم العمومية، والعدول عن الزواج بطريقتهم ودفن موتاهم على الطريقة المحمدية وطريقة تحضيرهم لأكلهم وطعامهم. بقيت كل هذه الممارسات قائمة وربما أقوى مما كانت عليه في عهد كارلوس الأول وبداية القرن السابع عشر.

تعالت الأصوات في النهاية بطرد الموريسكيين بعد استنفاذ جميع الطرق من أجل الوحدة الوطنية، لأنهم كانوا يشكلون خطرا حقيقيا على كل هذا. إلا أن العناية الإلهية وقوة عجيبة خارقة عملت على دحض خطرهم. قد يقبل البعض بهذا التعليل وقد يرفضه إلا أنه مُعطًى لا يمكن قطعا تجاهله.

---

(1) تاريخ إسبانيا، ج. 2، ص. 626.

(2) سبق ذكره، ج. ص. 133.

(3) أسقف بلنسية، الكتاب الثامن، ص. 4، ليس للوثيقة عنوان أو تاريخ نشر وطبع.

الفصل التاسع

فيليبي الثاني / المسألة الموريسكية في غرناطة وبلنسية / مناسبات، ممارسات، عادات ولغة الموريسكيين / تقرير دون غريغوريو دي ميراندا / تجريد الموريسكيين البلنسيين من السلاح سنة 1563 / اجتماع مجلس مدريد المنعقد سنة 1564 / قلق واضطراب موريسكيي غرناطة.



لم يكن للملوك الإسبان مهتمون بتتبع حياتهم ومدونون لبيوغرافياتهم مثلما حظي بذلك فيليبي الثاني، كما أنه لا أحد مثله كثر الجدل حوله وتم مدحه، بل المبالغة في إطرائه. ربما يعود ذلك، كما قال بعض المؤرخين إلى طباعه المرنة اتجاه الأحداث التي كانت إسبانيا مسرحا لها خلال فترة ملكه والإزدهار الذي عرفته الفنون والآداب في عهده وحربه الشرسة دون هوادة ضد الإسلام مدافعا بذلك عن الإسبان والحضارة الأوربية ضد الأجناس المنحطة[1].

كان في أنجلترا الشاب الملك رفقة والدته ملك إنجلترا حينما طلب منه والده الحضور لبلجيكا كي ينصب بعد ذلك ملكا على بلاد الأراضي المنخفضة. حصل ذلك الأمر في 25 من أكتوبر سنة 1555 [2] وفي 16 من يناير من السنة الموالية تنازل الملك كارلوس الأول لابنه عن عرش قشتالة وأراغون[3]. وأصبحت المملكة بعد ذلك الحين شاسعة الأطراف ممتدة الراضي يصعب السيطرة عليها خصوصا من طرف ملك لا تجتمع فيه خصال وأوصاف فيليبي الثاني. كما أن ذلك لم يكن ليساعده على حل المشكل المطروح في غرناطة والأحداث الدامية في بلنسية التي تأزمت جراء التدابير التي اتخذها كارلوس الأول حينما أمر بتطبيق قرارات مجلس مجريط، غرناطة و بيادوليد.

ساهمت العوامل التالية: معاهدة السلم لمدة خمس سنوات بين كارلوس الأول وإنركي الثاني ملك فرنسا، حقد باولو الرابع وكراهيته للنيل من عرش نابولي، وإفراط وشطط دون ألبا باستيلائه على كل مجالات الكنيسة، والخدمة التي عرضها ملك فرنسا على البابا[4]، والدعم الذي وفرته انجلترا إلى فيليبي ضد فرنسا، ومعركة سان كنتين، وموت

(1) فرنيرون، ص. 110، السلسلة الأولى من حياة فيليبي الثاني، طبعة برشلونة، حققها مونتانير وسيمون، 1884، ج.1، ص. 470.

(2) سلسلة الوثائق غير المنشورة، ج. 7، ص. 524.

(3) سغوينثا، تاريخ الرهبنة لسان خرونيمو، الفصل الثالث، الكتاب الأول، ص. 188.

(4) كتب إنريكي الثاني إلى باولو الرابع بسبب خلافه مع فيليبي الثاني. فرنيرون، سبق ذكرهن ص. 29، السلسلة الثانية.

الملك في دير ياستي، والملكة ماريا بعد ذلك في انجلترا، امتصت كل مجهود وأنشطة فيليبي الثاني ومستشاريه في بداية حكمه. إلا أن بعض نواب الملك ورجال الدين مثل فرانسيسكو دي نافارا اجتهدوا في تنصير مورو غرناطة وبلنسية وأراغون وتم إصدار في 10 من أبريل 1558 وثيقة ملكية تقضي بالعفو الشامل عن موريسكي سيغوبيا، آبيلا، ليثيا، بيادوليد، مدينة دي الكامبو، أريبولا وحجرة الحيط ، الذين اعترفوا بأخطائهم وتابوا عنها وطلبوا العفو والصفح[1] . كما صدر قرار آخر في 20 من الشهر نفسه والسنة نفسها موجه لموريسكيي غرناطة من أجل تدارس مسائل لها علاقة وصلة بمواقف جلالة الملك ومحاكم التفتيش، كما كتبت الأميرة رسالة تعتذر فيها باسم محققي التفتيش وذلك لما وجد في إسبانيا من تجاوزات وانتشار للشعوذة والمروق عن الدين والممارسات غير اللائقة التي تم اكتشافها في المملكة، إلا أن كل تلك التدابير التي لم تكن لتحل المسألة الموريسكية لكنها أخرت انفجارها إلى حين. ساهمت العلاقة المتوترة والعدائية بين فرنسا وإسبانيا في تعقيد حل تلك القضية، وتم اتخاذ تدابير من شأنها أن تلطف الجو والعلاقات بين الموريسكيين وبين المسيحيين القدامى.

استمر الموريسكييون في مجاهرتهم بالعداء للمسيحية في احتقارهم للكنيسة وإدانتهم لمحاكم التفتيش، ورفضهم التنصر. إلا أن سياسة الحذر والتسامح والعفو أملتها المصلحة العليا للبلاد رغم القلق السائد بين أفراد الشعب، إذ كانوا يرون عن كثب عدة تجاوزات من طرف الملك الذي كان يمليها عليه الفرنسيون بانتهاج سياسة غض الطرف، وترك الأمور تسير وعدم التصدي للقراصنة.

كانت تدور معارك طاحنة تدور بين جيشي فيليبي وإنريكي فوق التراب الفرنسي، ومبادئ لوثيرو تنشر كالهشيم في البرانس خصوصا. رجح الملكان العقل والحكمة واحتكما إلى التبصر وقررا إيقاف الصراع بينهما ومواجهة التحدي والخطر الذي يواجههما معا وعقدا صلحا بينهما في قصر كمبريريس.

(1) الأرشيف العام لسيمنكاس، رقم 8.

ارتبط فيليبي وإسابيل ابنة إنريكي الثاني. كانت لا تفارق أسماع الملك الإسباني عبارات أبيه وهو على فراش الموت يحثه على الانتقام ومتابعة المرتدين السحرة والمشعوذين[1]، لذلك لم يتأخر في العودة لإسبانيا من أجل إخماد أنفاس من يعارض الدين الكاثوليكي. «قبل أن يرحل عن الأراضي المنخفضة، كتب إلى أخته خوانا لكي تدل محققي التفتيش على الإسبان المشتبه فيهم ومعاقبة المذنبين منهم بكل قسوة وصرامة في كل المدن[2] .

وعلى وجه السرعة وصل إلى بيادوليد وحضر مراسيم إحراق المرتدين والملحدين، التي عقدت أمام كنيسة سان مارتين يوم 8 أكتوبر 1559 حيث قال العبارات التالية: «سأحمل الحطب بنفسي من أجل إحراق ابني إذا كان مرتدا ومشاغبا مثلكم». مراسيم إحراق أخرى كانت أقيمت قبل ذلك في بيادوليد يوم 20 مايو، وسرقسطة و إشبيلية في 24 شتنبر، وفي مرسية وبلنسية ومدن أخرى. كانت لهذه المؤسسة الصلاحية المطلقة لمتابعة أتباع لوثيرو والمهرطقين المشعوذين الآخرين على مختلف مشاربهم. وقد اقترح بعض المسؤولين في بلاط طليطلة اقتراح أي تعاقد أو ميثاق لحل المشكلة[3] .

أصدر الملك عدة أوامر صارمة من أجل قمع وإخماد المتمردين في غرناطة، إلا أن هؤلاء لجؤوا لطلب حماية الكونت تنديا ، القائد العام للمملكة، الذي وعدهم «ببذل كل جهوده من أجل إيجاد حل للمشكل، وهكذا فعل دائما.. إلا أن بعضهم لاحظ عدم وفائه بها وعدهم فبدأوا يبحثون عن شخص آخر يلجؤون إليه وعرضوا أداء ألفي دوقية لكل قائد على الشواطئ لحمايتها وذلك بصفة سنوية منتظمة. وبدوره أظهر الكونت تنديا استياء[4] لعدم تشاورهم معهم، ورأى بأنهم قد أخجلوه بسلوكهم وأقنع الملك فيليبي الثاني بإصدار قرار سنة 1553 : «يمنع بموجبه كل الموريسكيين بمملكة غرناطة وغيرها من حمل السلاح، وإن حمله بعضهم لابد من لجوئه للمصلحة المختصة بذلك

(1) دنبيلا، ص. 145.

(2) فرنيرون، سبق ذكره، ص. 59، المجموعة الثانية.

(3) دنبيلا، ص. 154.

(4) مارمول، سبق ذكره.

لتسجيلها والحصول على الرخصة من طرف القبطان العام الذي يؤشر، ولا يمكنهم بأي حال من الأحوال حمل السلاح إلا باتباع هذه التعليمات والتدابير»[1].

وورد قرار آخر تضمن ما يلي: «لا يمكن للمتشردين والصعاليك من الموريسكيين دخول أماكن يردها الأسياد ولا يستفيدون من حماية الكنيسة لأكثر من ثلاثة أيام».

وبعد إصدار هذه القرارات في حق موريسكيي غرناطة وصل إلى الملك تقريردقيق ومفصل حول العادات والممارسات التي كان يتداولها الموريسكيون في أراغون، قتلونية وبلنسية على وجه التحديد، وهذا نص التقرير: «أثبت شهود عيان بأن المتنصرين الجدد مازالوا يمارسون عاداتهم وحفلاتهم وطقوسهم المحمدية داخل مملكة بلنسية. أخبرنا بذلك أشخاص غيورون على دينهم، وثقاتٌ، نثق بهم وحزت في نفوسهم الممارسات المخزية للمورسكيين من أجل تتبعهم، لذا أوصيناهم بتتبعهم حتى لا يغيبوا عن أنظارنا ساعة من الوقت».

- أولا وصلنا عن طريق مسؤولي الأديرة والأعوان والقضاة بأن الوريسكيين مازالوا يخضعون أطفالهم للختان وأن المتنصرين الجدد بدورهم يمارسون هذه العادة اتجاه أولادهم ويتوضأون ويطلقون عليهم أسماء المورو.

- أخبرنا شهود عيان بأن الموريسكيين يحيون شعائرهم ويحتفلون بأعيادهم الإسلامية ومناسباتهم المحمدية.

- علمنا بأن الموريسكيين يتزوجون على طريقتهم ولا يذهبون إلى الكنيسة ولا يحضرون مراسيم القداس في أي وقت من الأوقات، وإن اضطروا لذلك يديرون رؤوسهم إلى الخلف أو ينظرون إلى الأرض ولا يرفعونها نحو الرب.

- أطلعنا شهود بعدة أماكن، بأن الموريسكيين يصومون من طلوع الفجر إلى غروب الشمس خلال رمضان، يزاولون أعمالهم كاملة خلال أيام أعيادنا وعطلنا ولا يعظمون

(1) نفسه، ص. 137-138.

قداستها.

- علمنا كذلك بأنهم يصلون في قرى متعددة بطريقة خفية مخافة العقاب.

- يعاملون أيضا معاملة سيئة الذين صح تنصرهم ومكثوا بينهم ويجبرونهم على الاحتفال بأعيادهم ومناسباتهم، كما حصل في وادي آبو.

- إذا علموا بأن أحدا بينهم لم يخضع إبنه للختان، يمسكون به ويبيعونه وقد خلص بعضهم أتباعنا، هذا بالإضافة إلى ممارساتهم البشعة التي يتداولونها بينهم يوميا، وقد وصلتنا تقارير كثيرة عن ذلك.

- أطلعنا مخبرونا أيضا بأنهم يذبحون ماشيتهم وطيورهم في اتجاه القبلة بمجزرة بلنسية وأماكن أخرى.

- يدفنون موتاهم على طريقتهم و يسيئون معاملة الملقن أو الراهب الذي يريد أن يسهل موتهم وقت الاحتضار ويرفضون أن يدفنوهم على الطريقة المسيحية.

- يؤكد هذا الجنس الملعون أنه في دينهم وعقيدتهم يستطيع كل واحد منهم تخليص نفسه من النار والعذاب إن اتبع تعاليم دينه ولا يحتاجون لتلقين أي راهب أو قسيس ساعة احتضارهم.

- علمنا أيضا أنهم مازالوا يمارسون ويعلمون كل ماكانوا يتداولونه وهو مورو.

- يحتفلون أيضا بالعقيقة ويقيمون طقوسها على طريقتهم، حتى وإن حملوا أبناءهم للكنيسة ليغسلوهم لاحقا في بيوتهم من تأثير ذلك ويطلقون عليهم أسماء المورو.

- أخبرنا أشخاص نثق فيهم بأن موريسكيي هذه المملكة ربما يكونوا مسلمين أكثر مما كان عليه محمد وأتباعه آنذاك ويسبون ديننا وإلهنا والعذراء القديسة ويهزأون من شعائرنا.

كما أنهم حاولوا البحث عن سبل تمكنهم من العيش مثل المسيحيين لكن الكهول

والشيوخ منهم قساة ولا يحضرون إلى الكنيسة يوم الأحد، ينتسبون لجنس سيء ويمنعون الشباب والصغار من حضور القداس حتى لا يتنصروا ويتركوا دين محمد.

– ونعرف أيضا بوجود الموريسكيين الأحرار في 400 منزلا أما الباقي منهم فهم خدم لأسياد ونبلاء يحموتهم ضد رجال الدين، وتدخل القضاة والمعلمون ليحتفظوا بهم في خدمتهم ولا تنتقل ملكيتهم لأسياد آخرين.

– ونعرف جيدا أن كثيرا من الأسياد والنبلاء لا يُمانعون في أن يتنصر الموريسكييون الا الذين يعملون في خدمتهم فهم يخافون من ترحيلهم عند المورو وترك العمل لديهم.

– يمتنع هؤلاء الموريسكييون عن تعلم مبادئ ديننا ويجهلون لغتنا كلية لأن جلهم يسكن في مناطق وعرة وجبال عالية وخطيرة ولا يوجد بينهم أي مسيحي إذ يخافون من أسرهم وترحيلهم نحو الجزائر، حتى القضاة والمعلمون يرهبون الاقتراب من تلك المناطق الخطيرة التي يقطنها الموريسكييون.

– لذا نرى أنه من المناسب أن يرسل صاحب الجلالة إلى أسياد هؤلاء الموريسكيين الجبناء أمرا يمنعهم من الاحتفال بمناسباتهم وممارسة طقوسهم على طريقتهم والتنقل من سيد إلى آخر[1].

بممارستهم لمراسيمهم وحفلاتهم وطقوسهم كان الموريسكييون يسيئون للمسيحية وللوحدة الدينية، قاعدة الملك آنذاك ويهددون استقرار الوشائج الوطنية.

رغم المعاهدات المتكررة معهم في مختلف أرجاء المملكة مثل غرناطة، بيادوليد وبلنسية، فقد استمروا في تداولهم للغتهم العربية. وقد ورد في اتفاق بين دون فرانسيسكو دي نابارا والمجلس حول عملية تنصير الموريسكيين مايلي: «يمنع الموريسكييون من قراءة وكتابة أي عمل باللغة العربية ويتعلمون قسرا العامية المتداولة في المملكة». لا

(1) الأرشيف العام لسيمنكاسن، رقم 640، وثيقة بدون تاريخ، ضمن أوراق 1569، الوثيقة 15 ضمن الوثائق الدبلوماسية.

تبدو لنا واقعية ومجدية هذه الطريقة، منع شعب من لغته يعني دفعه أمام خيار العنف والتمرد ويعتبر ذلك رد فعل طبيعي. في نظري المتواضع كان على رجال الدين والمحققين والمعلمين أن يتعلموا لغتهم ليحببوا إليهم تعاليم ديننا ويظهروا لهم القبيح في ممارستهم ليعدلوا عنها ويدخلوا طواعية في سماحة الدين الكاثوليكي.

فكانوا بذلك سيتغلغلون في سويداء قلوبهم، وعلى أي حال كان يصعب ان تطلب من أي جنس التخلي عن لغة آبائه وأجداده ونحن أنفسنا ما كنا لنقبل أن نترك لغة أبائنا التي نعتبرها أعظم لغة في العالم[1].

فحرية اللغة لا تعني استحالة تحقيق التمازج بعد عملية التنصير. وإذا نظرنا إلى أدب ولغة الخميادو التي تركها الموريسكيون سنرى بأنه لم يكن في استطاعتهم تشكيل شعب أو مجموعة قوية داخل الشعب المسيحي الكاثوليكي المهيكل ذي الاستقلالية الإدارية والسياسية. إلا أن الدولة ماكانت لتسمح بانتشار واكتساح لغة العدو الذي وفد لزعزعة الاستقرار والدفاع عن مبادئه ووجوده والسلاح بيده لمدة قرون عدة.

هكذا فهم الوضع الذين كانوا يقودون سياسة البلاد آنذاك وكما ورد في الوثائق الدبلوماسية لتلك الحقبة التاريخية.

لم تكن كل تلك التقارير لتؤثر في قرار الملك ولا الأخبار الواردة عن قراصنة الجزائر[2]، كان كل اهتمامه ومحيطه ورجال الدين منكبون على الخطر البروتيستانتي[3]؛ إلا أن جسارة القراصنة أجبرت فيليبي على إصدار أوامر بتجهيز 24 بارجة في برشلونة وطلب نصح ورأي العارفين بخبايا هذا الجنس وطباعه.

وقد بعث المفتش ميراندا ، الذي كان في السابق من موريسكيي بلنسية تقريرا مفصلا

(1) أريغيتا، سبق ذكره، ص. 297-298.

(2) دنبيلا، ص. 160- 161.

(3) تاريخ الملاحدة الإسبان، ج. 2، حيث ذكر المؤلف معلومات هامة جدا عن المذهب البروتستانتي وتسربه إلى إسبانيا خلال القرن. 16. انظر كذلك أدولفو كاسترو، تاريخ البروتيستانت الإسبان.

إلى الملك، ويعتبر مرجعا هاما لكل الدارسين والنقاد لتلك الفترة التاريخية : «نطلعكم على ما يبدو لنا بصفتنا المحقق ميراندا، حول وضع المتنصرين الجدد في مملكة بلنسية :

1. يعيش هذا الجنس الفاسق مثلما يعيش المورو في الجزائر ويمارسون علانية شعائرهم وطقوسهم البئيسة.
2. لديهم في كل الأماكن رباط ومساجد يتخذون منها مجالس لتدارس أوضاعهم وقضاياهم، فإلى جانب وظيفتها الدينية يعتبرون مثل ما يمكن أن يصطلح عليه «بمجلس البلدية»حيث يدبرون هناك كل قضاياهم، وهذا يتنافى وتعاليم ديننا وهيبة وسلطة الملك وعدم احترام مملكتنا.
3. إنهم خونة ولا يسعون إلا للإذاية، ولهم أفكار وتصورات بئيسة عن المسيحيين ويتحينون الفرصة للنيل منهم مقابل أي ثمن.
4. يأسرون المسيحيين الذين يسقطون في أيد المورو ويخبئونهم في مساكنهم ويخبرون الأتراك بكل التحركات.

يجب إيجاد حل لهذا الوضع لأنه يعتبر إهانة لجلالتكم وكل شعبكم . لقد تكفلنا نحن وراهب بلنسية القديس طوماس، وأسقف طرطوشة الذي يعمل حاليا في طرغونة بحماية بني جلدتنا وإقرار الأمن في مجال ترابنا من أجل إيجاد حل لهذه المشكلة. وكبديل أيضا، نقترح نزع أسلحتهم رغم صعوبة تحقيق هذا الأمر، إذ سيخلف ذلك بالتأكيد تمردا داخل المملكة وثانيا سيعلمون على إخفائها عند أسيادهم الذين يوفرون لهم الحماية لأن كل هذه الإجراءات تتخذ ضد إرادتهم..

الاقتراح الآخر والذي يعتبر مريحا إلى حد ما، هو أن يبعث جلالتكم إلى الأسياد يمنحهم أجلا محددا لتجريد خدمهم وتابعيهم الموريسكيين من الأسلحة وإلا سيتعرضون لعقوبات صارمة طبقا للقانون الذي أصدرته الملكة خرمانا سنة 1525.

يمكن أن يعارض هؤلاء الأسياد تطبيق القرار إلا أنه يمكن إقناعهم وتحفيزهم

وضمان مصالحهم عبر طرق متعددة ومتنوعة، وإذا احتجوا بعدم قدرتهم على ذلك، يمكنكم اقتراح من يعمل على مساعدتهم لتحقيق تلك الغاية إلى جانب الأساقفة والرهبان الذين يعملون تحت قيادتكم. وبهذا يدرك جيدا هؤلاء الأسياد أنهم لم يساهموا بأنفسهم في تجريد الموريسكيين من السلاح لأنكم ستقومون بذلك بأنفسكم يا صاحب الجلالة، وسيعرضون أنفسهم لأقسى العقوبات وأنهم سيؤدون تبعات كل تمرد لتابعيهم يستعملون فيه الأسلحة للهجوم أو الدفاع عن أنفسهم. يجب على هؤلاء الأسياد أن يدركوا أنهم إذا لم يعملوا على تحقيق هذا الأمر طواعية سيضطرون للتنفيذ[1] مرغمين ومكرهين.

ويعتبر المفتاح الأساسي لحل هذا المشكل موقف دوق سيغوربي، القبطان العام للمملكة، الذي يجب عليه أن يجرد هو الأول الموريسكيين التابعين لنفوذه من سلاحهم ويكون قدوة للآخرين. وإذا رأى باقي الحكام أن جلالتكم أول من جرد التابعين له سيعملون كلهم على تطبيق الأوامر واتباع التعليمات.

ثم يتم جرد كل الأسلحة المنزوعة وتسليمها إلى الولاة التابعين لنفوذكم وتخزينها في أماكن آمنة حتى لا يستولوا عليها لاحقا.

ويجب معاقبة الموريسكيين الذين يعترضون على ذلك والأسياد الذين يساعدونهم على العصيان أيضا. ولا يقبل أي تدخل من الأسياد لإيقاف هذا الأمر . يجب أن يتم التعجيل بهذا الشأن وأن ينفذ حالا في فصل الشتاء وألاَّ يمهلوا إلى الربيع أوالصيف حيث يساعد الجو القراصنة على استعادة نشاطهم الكامل الذي قد يعرقل عمليتنا وتحل مصيبة بمملكتنا.

وسنعمل أيضا على دعوتهم للانخراط الصادق في ديننا الكاثوليكي وبذلك يصبحون مثل باقي رعايانا يتمتعون بالحماية التامة والرعاية الكاملة والحقوق الثابتة. كما سيتم

(1) الأرشيف العام لسيمنكاس، الوثيقة المعنية لا تحمل تاريخا، وجدت بين أوراق أخرى مؤرخة سنة 1561.

العفو عن كل أخطائهم وهفواتهم والتجاوز عن سيئاتهم.

ولكي نحافظ على أمن وأمان هذه المملكة لابد للملك أن يشدد الخناق ضد القراصنة ويطرد الموريسكيين الذين ثبت أنهم ساعدوهم أو مدوا لهم يد العون.

هذا تصوري وتجربتي في التعامل مع هذا الجنس خلال أزيد من خمس عشرة سنة قضيتها بينهم في هذا المجال الترابي خلال زيارتي لهم ومشاركتي لهم بعض شؤونهم. وقد بعثت لكم بهذا التقرير المفصل الذي ضمنته كل ملاحظاتي، محاولة مني الإسهام في حل هذه المشكلة بكل تواضع وتلخيص»[1].

طلب النواب البلنسيون من فيليبي الثاني مراجعة الأمر الذي أصدره أسقف بلنسية إذ بدونه لن يحرز أي تقدم بالنسبة لذلك التعديل وتلك الإصلاحات[2]. صدر في 23 من مايو 1561 قرار جديد ينص على العفو عن الموريسكيين الذين رفضوا الاعتراف بأخطائهم وخطاياهم وذلك بإمهالهم سنتين للقيام بذلك، كما صدرت عن البابا ﭙيو الثالث وثيقة موجهة للمحقق العام تقضي باستقطاب المسلمين والمورو الذين خضعوا لعملية التنصير وأخطأوا وأذنبوا من جديد، إذ لابد من التسامح معهم رغم أنهم لا يستحقون كل هذا الكرم وهذا التساهل[3]. وقد أصدر دوق سيغوربي، نائب مملكة بلنسية، بلاغا في 11 من مارس 1562 بشأن الموريسكيين المنحرفين الذين يجب أن يتعرضوا للعقاب جراء ما اقترفوه. وبهذا تكون المسألة الموريسكية قد دخلت منعطفا جديدا، منعطف المتابعة والعقاب.

هل كان ذلك مبررا لكل تلك الممارسات؟ لقد دفعت الأحداث الدامية في ضواحي سيغوربي ووادي القصر والهجوم المتكرر للقراصنة الملك إلى التفكير في إيجاد حل لهذه الممارسات.

---

(1) نفسه.

(2) نسخة أصلية من الرسالة التي بعثها نواب بلنسية إلى صاحب الجلالة، من ألمينو نفسها بتاريخ 12 غشت 1561.

(3) دنبيلا، ص. 164.

تم تسطير برنامج تجريد الموريسكيين من الأسلحة في 8 فبراير 1563 [1] وجمع أكثر من 25 ألف قطعة سلاح، لكن رغم كل ذلك لم تتوقف المؤامرات والمماحكات ضد المسيحيين القدامى ومصالحهم وهجومات القراصنة مما جعل تفعيل آلية محاكم التفتيش ضرورة حتمية، إذ في السنة نفسها تم تنظيم عمليتين لإعدام المرتدين بالحرب هلك خلالها تسعة موريسكيين من شيا وبعض الأجانب الآخرين. لم تجد كل هذه التدابير لإخمادهم والقضاء عليهم إذ بحثوا عن أسلحة جديدة منتظرين ساعة الحسم لبيع أرواحهم مهما أريق من دماء. ألم تكن هناك وسيلة تمنع تسرب الأسلحة من الخارج؟ الجواب يكمن في صعوبة التغلب على عمليات القراصنة. وفي الداخل من كان يبيع لهم الأسلحة؟ هل كان ذلك يتم بدون مباركة ودعم الأسياد؟ نستطيع بكل أسف أن نقول بتورط هؤلاء، لكن الغريب هو عدم تراجع وتنازل الموريسكيين رغم التدابير القاسية التي انتهجتها محاكم التفتيش. وقد أصدر المجلس سنة 1564 قرارا يقضي بحضور المتنصرين الجدد في كل مراسيم القداس، والذهاب إلى الكنيسة مرفوقين بذويهم وأفراد عائلاتهم من أجل ممارسة شعائر الدين الكاثوليكي[2] .

لن نناقش نجاعة هذا القرار لأن العقيدة والإيمان أمر اختياري لا يمكن فرضه بالقوة. في الحقيقة لم تبارك الكنيسة قط كل هذه التدابير من أجل إعلاء كلمة الرب المسيح، لذلك كانت كنيستنا المقدسة تنبه الملوك إلى خطر سيطرة هؤلاء و توجيههم لشؤونها وتسيير أمورها. تاريخ الكنيسة الكاثوليكية زاخر بصفحاتها المشرقة في نشر العقيدة الكاثوليكية فوق ترابنا الطاهرة. لا أظن أن أي ناقد عادل وموضوعي يمكنه أن يدين بعض التجاوزات التي مارستها محكمة التفتيش والكنيسة من أجل القيام بمهمتها. قبل بعض الموريسكيين التنصر للحفاظ على مصالحهم وممتلكاتهم. مرت أربعون سنة على ذلك الحال واضطر بلاط وسلطات منثون أن تطلب من الملك اتخاذ التدابير اللازمة

---

(1) الأرشيف العام لمملكة بلنسية.

(2) نسخة من الدورية، الأرشيف العام لسيمنكاس، رقم 963، ص. 235.

بعد تمرد البلنسيين في أحوازها ضده وضد سياسته[1] . عقد المجلس اجتماعا آخر في 12 دجنبر 1564 بشأن القضية الموريسكية وإيجاد حل نهائي كان يجب أن يتخذ من عدة سنوات خلت[2].

أصدرت السلطات سنة 1564 احتجاجات ضد الفقهاء الذين كانوا يحافظون ويرعون الفكر المتطرف لدى الموريسكيين ويحفزونهم على الصمود أمام عمليات التنصير وساهموا بسلوكاتهم تلك في تأجيج مواقف محاكم التفتيش[3].

بدوره أصدر فيليبي الثالث قرار طرد الموريسكيين لكي يثبت للمؤرخين بأن سياسة اللين والتسامح التي انتهجها ابن كارلوس الأول كانت وخيمة وجاءت بنتائج عكسية. بدورها تدابير 1564 التي سعت لتطبيق البنود المتفق عليها، ووجهت بالمعارضة والمقاومة لنفس الأسباب السالفة الذكر منذ سنة 1525 . عقد اجتماع موسع ساهمت فيه كل الأطراف الفاعلة بالمملكة من أجل تدارس المشكل الموريسكي[4]، كما تم بعث بعض المعلمين و المؤطرين إلى القرى التي دخلت مؤخرا في الدين الجديد من أجل تقوية عقيدتهم وسلامة روحهم. فشلت مرة أخرى كل المحاولات وكانت النتائج سلبية ومنعدمة الجدوى، ولم يفلح دون مارتين دي أيالا الذي خلف دون فرناندو دي لواثيس في مهمته[5] .

عمل عدة مسؤولين وأساقفة إلى جانب لواثيس وحرروا أوامر وتدابير جديدة سنة 1568 أعلنوا عنها نهاية اجتماعهم[6]. في كل مناسبة، كان الموريسكيون يوجهون صفعة

---

(1) انظر الفصول 11–27 من هذه المجموعة، طبعة بلنسية من طرف الأب بوربو، سنة 1565، نقله دنبيلا، ص. 167–169.

(2) الوثائق الدبلوماسية، رقم 18.

(3) الأرشيف العام لسيمنكاس، الكتاب رقم 80، ص. 224، بدون تاريخ، وجدت الوثيقة ضمن أوراق مؤرخة سنة 1565.

(4) **الطرد الصائب...**، ص. 29.

(5) الأرشيف العام...، الكتاب رقم 6.

(6) فنيسكا، سبق ذكره، ص. 32.

قوية لكل الفاعلين والمسؤولين معبرين عن رفضهم لكل تلك التدابير، لسياسة التسامح اتجاههم وتشبثهم بعقيدتهم وعاداتهم.

كانوا دائما يردون على تلك التدابير بالتمرد كما ورد في رسائل بعثها ابن الفرج وداوود إلى اللصوص الموريسكيبن الغرناطيين[1]، الأمر الذي استدعى الملك لتوجيه اهتمام خاص اتجاه غرناطة التي قال عنها المؤرخون: «كانت تلك المنطقة الأندلسية تعج بالموريسكيين؛ يتاجرون في الحرير ويشترون التنانير والفساتين الفاخرة والمعاطف والعباءات لزوجاتهم. كان الفقهاء وقواد اللصوص يقومون بحملات واسعة لصالح قضيتهم، الأمر الذي استدعى التدخل العاجل وتطبيق الوسائل الضرورية لامتصاص ذلك الغضب. ومرة أخرى أثبتت التجارب والنتائج فشل سياسة المرونة والتسامح. لكن رغم كل ذلك كان الملك فيليبي الثاني ينتهج سياسة الحذر اتجاه ذلك المشكل وتلك القضية[2]. لقد أثرت كل تلك الأحداث بشكل سلبي على اقتصاد المملكة كما وضح ذلك الدكتور هايبلير في كتابه الذي سبقت الإشارة إليه.

---

(1) مارمول، سبق ذكره، ج. 1، ص. 228-231.

(2) مرجع سابق، ج. 1، ص. 231.



الفصل العاشر

تمرد الموريسكيين في البشارات / التمرد المستمر لذلك الجنس وعدم خضوعه / قلق فيليبي الثاني / تعيين قسيس بداخوث في في مركز الأسقفية ببلنسية / ملاحظات.



بدأ موريسكيو غرناطة يشعرون بالقلق حينما علموا بحرمانهم من بعض الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها، مثل عدم متابعتهم من طرف الكنيسة، وعدم اعتبارهم كمجرمين وصعاليك من طرف وزير العدل، وفي حالة تغيير السيد. فر عدد كبير منهم إلى الجبال وانتشرت الجريمة بينهم، وانخرطت مجموعة كبيرة منهم في فرق مسلحة، اتخذت شعارها القتل والسلب والنهب، ولم يعمل المسؤولون على محاصرتهم وملاحقتهم تلافيا لحرب أهلية وحقنا للدماء[1]. كما أن ماركيز مونديخار دون إنييغو لو يث دي مندوثا، القبطان العام لغرناطة، لم يكن يتوفر على القوات الكافية للحد من بأسهم وردع شرهم، وقد رفع هذه الصعوبات والنقص في العدة والعتاد والإمكانيات البشرية للملك نفسه[2]. وقد قال أحد المؤرخين القدامى عن هذه الأحداث: «كانت قلة العدة وعدم تجربة وخبرة المسؤولين عن تدبير الحرب من بين الأسباب الأساسية في نشاط حركة اللصوص الموريسكيين وتكاثرهم[3]. إلا أن الملك كان يتحفظ على اتخاذ أي موقف صارم اتجاه القضية، فسافر إلى روما لحضور مجلس الأساقفة «التريدينتيني» وتدارس الوضع مع پاولو الثالث. استغل حذر وتحفظ غرِّيرو وكتب إلى فيليبي الثاني، وطلب منه أن يجد حلا وسطا تلافيا لقتل الأرواح وهدر الدماء. عقد اجتماع بطلب من البابا، الملك والكاثوليكيين الإسبان وتم اقتراح تفعيل الفصول الصادرة عن اجتماع مجريط. بعث الملك التقرير إلى المجلس الذي ترأسه دون دييغو إسبينوسا، المحقق العام وأسقف غرناطة وزملاؤه في باقي أراضي أندلسيا، تم الإتفاق على عقد اجتماع آخر في مجريط سنة 1566 [4]. وقد أمر الملك بإصدار أوامره العليا في 17 من نونبر 1566 [5]، فأحس

(1) مارمول، سبق ذكره، ج.1، ص. 139.

(2) مذكرات ماركيز مونديخار، الملحق رقم 1، وضحه ألفريدو موريل فاتيو في كتابه إسبانيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر، طبعة 1878.

(3) دون دييغو هورتادو دي مندوثا، حرب غرناطة بقيادة الملك دون فيليبي الثاني، طبعة بلنسية، 1795، ص. 73.

(4) تدخل في هذه الجلسة دون دييغو دي إسبينوسا بصفته رئيسا، دوق آلبه، دون أنطونيو من طليطلة، غريغوريو غايو، أسقف أريولة، دون بيدرو دي ديثا، من المجلس العام لمحكمة التفتيش، مارمول، سبق ذكره، ج. 1، ص. 142، كابريرا، فيليبي الثاني، ج. 1، ص. 470، برموديث دي بيدراثا، التاريخ الكنسي لغرناطة، ص. 238.

(5) لم تنشر في غرناطة إلا في فاتح يناير 1567.

الموريسكيون بالخطر الكبير يهددهم ويتوعد طريقة لباسهم ولغتهم وحماماتهم العمومية، ويفرض على نسائهم الخروج كاشفات الوجوه وأن يفتحوا أبواب منازلهم لمدة ثلاثة أيام في الاسبوع[1]. تم بذلك تجديد بنود اجتماع مجريط لسنة 1525، إلا أن تلك الصرامة دفعت الموريسكيين للتمرد مجددا[2]، ومقاومة الحكم الملكي رغم أنهم لم يوقفوا قط تعاونهم مع القراصنة الأتراك والبربر[3]. لم تجد كل تلك المحاولات نظرا لدعوة تفعيل مقتضيات اجتماع 1566 الذي تعهد باستئصالهم. لقد كانت كل تلك الممارسات مبررة، لكن هل كان ناجعا تطبيقها؟ صراحة، نجيب بلا وخصوصا إذا أخذنا بعين الاعتبار موقف الملك فيليبي الثاني الذي رفض إمداد مركيز مونديخار بتعزيزات لقمع تحركات الموريسكيين، اللصوص والصعاليك منهم. ولم تساهم تلك التدابير إلا في تأجيج الحقد بداخلهم بسبب حرمانهم من ممارسة لغتهم ولباسهم وعاداتهم وكذا أسمائهم العربية، وإجبارهم على تعلم القشتالية في غضون ثلاث سنوات. لم تنفع هذه التدابير، فتمرد الموريسكيون من جديد وهددوا أمن الملكية الإسبانية وهيبتها[4]. وقد أطلعنا مركيز مونديخار على فشل تطبيق تلك التدابير، إلا أن فيليبي الثاني صمم على تنفيذ خطته ولم يتنازل أمام توسلات الموريسكيين الذين وفدوا على بلاطه ووسطوا فرانسيسكو نونييث مولاي لإثناء دون بيدرو دياث عن تفعيل وتطبيق تلك الأوامر. وبقي أمامهم خيار واحد، هو حمل السلاح لحماية أرواحهم وعقيدتهم.

لقد كانت ضربة الحمراء في 16 من أبريل 1568 موجعة ومؤشرا قويا على الهلع والقلق المخيم على النصارى القدامى والجدد. ماركيز مونديخار نفسه، الذي وصل لتوه من البلاط أحس بالخطر يهدد مملكته، فسقطت في يده مراسلات من داوود، الذي يطلب حماية المورو وعدم إذايتهم بالاضافة لموقف ابن جهور (Fernando de valor, el

(1) مذكرات مركيز مونديخار، ص. 17.

(2) هورتادو دي مندوثا، مصدر سابق، ص. 75.

(3) نفسه.

(4) تاريخ الاسبان، ج. 2، ص. 626.

(zaguer، الذي قاد موريسكيي البيازين[1]. لم يتأخر هؤلاء في إشهار سلاحهم يوم 23 دجنبر بأقاليم أرجيفي والبشارات، وانتشر التمرد كالهشيم خلال أيام قليلة ليشمل أكثر من 180 موقعا بذلك المكان ومناطق أخرى مثل مارشينا، بلودي، واد المرايا، المنكب، سلوبرينا، مارتيله والحامة بقيادة فرناندو دي بالور في 24 من الشهر نفسه بغرناطة. كان رجلا سيئا، عاداته بئيسة، لا يتفاهم مع أحد ولا يقدر أحدا، رغم أنه تجري في عروقه دماء طيبة وكانوا يلقبونه بالملك[2]. وقد ترك لنا مؤرخون مثل هورتادو دي مندوثا، وثائق هامة عن وحشية هذه المواجهات والمعارك[3] وركز على كل الجهود التي بذلها دون خوان دي أوستريا من أجل اقرار السلام[4]. هزمت السيوف البتارة للقبطان أولئك

(1) هورتادو دي مندوثا، سبق ذكره، ص. 84 وما يليها.

(2) مذكرات، سيق ذكره، مرجع سابق، ص. 19.

(3) بفضل السيدة دوقة ألبه، وجدنا ضمن أرشيف بيتها رؤوس الأقلام البيبليوغرافية الآتية: - عثرنا في أرشيف كاسا دي ألبا بين بعض الوثائق التي سلمت من الألسنة النار، وثيقة تتكون من 23 صفحة بدون مقدمة أو خاتمة، وضعها سيىء من جراء النار «يتعلق الأمر بجرد وسرد بعض المعلومات عن الموريسكيين، عن قولهم وتصرفهم خلال التمرد، أسبابه والخسائر التي أحدثت. بعد ذلك وردت أسماء القرى والأحداث التي وقعت مفصلة في كل منها يوم 23 دجنبر 1568. (البشارات)».

(4) منوغرافية لورينثو فانديرهامن إي ليون تحت عنوان دون خوان دي آوستريا، مجلد تبلغ عدد صفحاته أزيد من 650 صفحة، طبعه لويس سانشيس، مدريد، 1627.

يبدو مثيرا في الواقع النص الذي بعثه دون خوان دي آوستريا يشرح فيه السبل التي ستمكنه من التعامل مع الموريسكيين بالبشارات سنورد بعض الفقرات منه: « دون خوان دي آوستريا قبطان عام للبحرية بالمملكة الكاثوليكية المقدسة. «فر الموريسكيون إلى البشارات مذعورين كالحيوانات المتوحشة. لقد تعرضت نساؤهم للسبي والاغتصاب، وسفكت دماء أبنائهم وشبابهم وشيوخهم. وقد منحت في شهر أبريل الحالي رخصة التعامل مع النصارى الجدد بالرحمة والصفح باسم صاحب الجلالة. وقد تعاملنا باللين والعفو عن كل من جاء تائبا وعاد إلى رشده وتمسك بالدين المسيحي، وإن كان لأحدهم بعض أفراد العائلة مثل الابن أو الزوجة أو الأخ أم الأب ضمن عبيد الأسياد، فإنه يتم تحريرهم إكراما لدخولهم في الدين الجديد. وقد أمهلوا مدة أربعة عشر سنة لاعتناق الدين الكاثوليكي والتعاليم السمحة. ومن لم يخضع خلال هذه الآجال فلن يقبل في أي مكان ولن يستفيد من أي عفو لاحق وسيودع في مكان بعيد إلى أن يهلك و يموت. ونعطي الأمان لكل النصارى الجدد إذ يمكنهم أن يلجوا كل الأماكن العامة ويحضون بالاحترام والتقدير ولا يتعرضون لأي أذى، ويعاملون كما يعامل باقي أفراد الشعب، وذلك في المدن الآتية: غرناطة، بسطة، وادي آش، ألمرية، برشانة، البشارات وفي أماكن أخرى يحددها دوق سياسة، ولم نذكرها في هذا الموضع. وكل من يتعرض منهم لأي اعتداء أو ظلم من طرف جنودنا فليتقدم لديوان جلالة الملك كما نعلنه اليوم بسانتا في، في الثالث والعشرين من شهر أبريل 1570. يوقعه دون خوان دي آوستريا، بتفويض من السيد دون خوان دي سوطو. وقد كان في تلك الآونة بالمدينة نفسها فرانسيسكو لوبيث وهرنانديث دي إسترادو». الوثيقة الأصلية رقم 762، ضمن مجموعة السيد دنبيلا، ووجدنا في النص الأصلي بعض الأحرف والأسطر غير واضحة المعالم نظرا للحالة

المتمردين في البشارات، إلا أنه لم يستطع إذلالهم وإخضاعهم، لم يتراجعوا ولا ندموا على ما فعلوه ولا دخلوا في الدين الجديد، كانوا مستعدين على توقيع بقائهم ومقاومتهم ببصمات الدم.

ضاق الملك ذرعا بكل تلك الممارسات والأوضاع البئيسة السيئة فأصدر أوامر بإخراج وطرد كل الموريسكيين من مملكة غرناطة، فر من فر منهم ورحل الكثير والقليل الباقي ضاع وتاه بين سلاسل الجبال[1].

وقد عرفت حركت التمرد نهايتها حينما اغتيل ابن عبو على يد أحد أتباعه سنة 1571. عمل الملك على إعمار المملكة من جديد بعدما خلصها من الصعاليك الموريسكيين الذين لم يكونوا يتوانون عن زرع البلبلة والفتنة، وكانت في الواقع حرب بقاء من أجل الدين والعقيدة، ولم تعرف تلك المملكة أمنها واستقرارها إلا بجلاء ذلك الجنس عنها[2]. لكن ذلك لا يعني انقضاءهم نهائيا، إذ بقيت بذرة منهم تنمو وتؤجج النعرات بالبشارات وتهدد من بعيد سلام وراحة المسيحيين القدامى والاستقرارالسياسي والديني للمملكة. وقد كان لنا في محاكم التفتيش ببلنسية[3] أسوة حسنة لتتبع وإخماد هذه النعرات والثورات، خصوصا العقاب والزجر الذي تعرض له الموريسكي النبيل السيد قاسم بن الأمير[4]. يمكننا أن نقول بأن نشاط محاكم التفتيش في بلنسية لم يتوقف منذ إصدار كارلوس الأول أوامره بتفعيل نشاطها واستمرت إلى غاية صدور قرار 1609 الداعي بطردهم وإخراجهم نهائيا من تراب المملكة. في الحقيقة يبدو لنا عدم خضوع واستسلام الشعب الموريسكي في إسبانيا أمرا واقعيا لا يمكن تجاهله، وشيئا بديهيا كنتيجة ضرورية، لأنه لولا تمردهم وتعنتهم لأدنا القوانين التي أصدرتها إسبانيا في القرن السادس عشر

السيئة التي كانت عليها النسخة الأصلية.

(1) مارمول، ج. 2، سبق ذكره، ص. 437.

(2) نفسه، ص. 456.

(3) تاريخ منزل مونديخار، الفصل 27، الخزانة الوطنية بمدريد، تحت رقم ك. 100، عدد 32.

(4) نظرا لأهمية الشخصية، سنقدم عنها نظرة مفصلة في قسم الوثائق الدبلوماسية، رقم 19.

ولاعتبرنا الحكام والمسؤولين طغاة معتدين. لكن كل تلك التدابير كانت ضرورية لقطع دابر ذلك الجنس البئيس، الناكر للجميل الذي كان يريد تقمص دور «الضحية الشهيد» ويستغل الشعور الإنساني لكي يظهربصورة الشعب البطل الذي قاوم من أجل البقاء. إلا أن كتابات النقد التاريخي أثبتت لنا عدم وفائهم وخيانتهم المستمرة لمبادئ الدين المسيحي وبالتالي للملكية. من ذلك المنطلق كان لا يهدأ لهم ولا يغمض لهم طرف، يتحينون كل الفرص والمناسبات للثورة والتمرد من أجل حريتهم واستقلالهم[1].

في أبريل من سنة 1565 نظم اجتماع حاشد في بلنسية من أجل تعديل القوانين الصادرة في حق الموريسكيين وفي 25 من غشت للسنة نفسها، صدر عفو عن الموريسكيين الذين لم ينقطعوا عن ممارسات شعائرهم الدينية وعقيدتهم الاسلامية رغم انقضاء مدة السنة التي ضربت كأجل لإيقاف ذلك، وأمهلوا سنة أخرى من أجل تنصرهم، لكن كل تلك التدابير باءت بالفشل الذريع ولم يكن لها أي جدوى. استمر نشاط الجواسيس منهم حتى بعدما شهدوا بأم أعينهم العقاب الذي لحق ببعض المورو في لقيش[2]. كانت الساحات تغص بالموريسكيين الذين ينتظرون دورهم لإحراقهم من طرف محاكم التفتيش ويكونون عبرة لمن يعتبر، لكن ممارساتهم لم تختف ولم تتوقف. يبقى السؤال المطروح: ماهي الطرق الناجعة لتحقيق السلم والأمن، إذ لم تجد معهم كل تدابير العنف واللين؟ حينما كان الملك يصدر أوامره بالعفو وبإمهالهم فرصا أخرى إنما كان في الواقع يعترف بعجزه وفشل سياسة الحديد والنار التي كان ينتهجها من حين لآخر للقضاء عليهم. لكنه كذلك لم يكن من التعقل والحكمة إعطاء الاستقلال لذلك الجنس؟ لكن ما العمل؟ إلى أي حلول ووسائل نحتكم؟ انصرمت سنوات وفيليبي الثاني ينصت للجميع ويتدارس الأمر مع الجميع عله يجد حلا شافيا ونهائيا لمعضلة الموريسكيين[3].

---

(1) سيجد القارئ معلومات مستفيضة عن هذه الأحداث في قسم الوثائق الدبلوماسية.

(2) دانبيلا، ص. 172.

(3) الرسالة الأصلية مؤرخة ببلنسية في 14 غشت 1567، وتوجد محفوظة في أرشيف المتحف البريطاني، مسجلة تحت رقم 1510، انظر الجزء الجزء الثاني من الوثائق الدبلوماسية.

اكتشف عدم جدوى المواثيق والقرارات والقوانين والاجتماعات، وتأسف على عدم عقاب موريسكيي غرناطة في بداية تحركهم، الأمر الذي دفعهم للإنتشار بين أهالي قشتالة والإجتماع في أراغون وبلنسية. أشرف بنفسه على تجريدهم من السلاح سنة 1563، تدخل بعد أحداث البشارات الدامية التي وقعت سنة 1568، ودفع بالأب ‌ يو الخامس أن يصدر مهلة ثلاث سنوات لموريسكيي بلنسية لكي يتمكنوا من التنصر رغم اعتراض المحقق العام على تلك المهلة. أخبر المحقق ميراندا من بلنسية عن خطورة ذلك القرار وما يمكن أن يحدثه من اضطراب، وبعث برسالة إلى المحقق العام[1]. ساهم في تعطيل الأمر كذلك موت أسقف بلنسية دون مارتين دي أيالا، الذي ما فتئ يتنافس في تنصير الموريسكيين وكذلك دون فرناندو دي لواثيس. كان بعضهم أيضا يخبر الموريسكيين بالنتائج السرية للإجتماعات التي تدور بينهم للبحث عن حلول وبدائل للتدابير المتخذة خلالها[2]. كل هذه العوامل، بالاضافة إلى طباعهم وصلابة أحاسيسهم وقوة عقيدتهم الدينية، جعلتهم يستميتون في مقاومة التنصير والدخول في الدين الجديد.

بلغت المسألة الموريسكية شأوا بعيدا وعرفت منعطفا خطيرا خلال تلك الفترة من

---

(1) «أسقف طرطوشة يعلن أمرا مخجلا، لقد تم تنصير المورو قسرا ودون إرادتهم، لأنهم فقدوا كل امتيازاتهم وممتلكاتهم. يعيشون حالة ترقب ليعرفوا ماذا سيحصل للسجناء منهم في انتظار تنفيذ حكم محكمة التفتيش. إنهم يفضلون حياة المورو ويكرهون التنصر. كان الحرق آخر الحلول بعد استعمال كثير من العفو والرحمة...ليحفظ الرب صاحب الجلالة ملكنا المقدس ويعز به الدين الكاثوليكي، شأن كل العباد مثلي الذين يسعون لرضاه وتطبيق تعاليمه. بلنسة في 12 مايو 1568. خادمكم الذي يقبل يديكم، غريغوريو ميراندا». وثيقة ضمن مجموعة السيد دنب يلا.

(2) تقدم في بلنسية بتاريخ الثلاثين من شهر مارس لسنة 1568، الراهب جوزيبي بولي بدير ريميديو إلى المحقق العام لمحكمة التفتيش حيث أقسم أن يقول الحق ولا شيء غير الحق في ابلاغ الموريسكيين نتائج الاجتماع المنعقد بشأنهم، ويرضي ضميره: « لقد تم امهال الموريسكيين مدة تتراوح بين 30 و 40 سنة من أجل الدخول في الدين الجديد وتعلم مبادئه والتشبع بسماحته، يؤدون صدقة مقابل ذلك خلال الفترة المحددة. – إلا أن الغريب في الأمر هو كيف يمكن تحرير ذلك الشأن باللغة العربية– وتم لاحقا اكتشاف أن الموريسكيين يؤدون تلك الصدقات دون أن يتنصروا أو يهتموا بالدين الجديد وواصلوا حياتهم بطريقتهم السابقة. لقد اتخذت هذه التدابير في الواقع لطمأنتهم وفرض الصدقة عليهم. يعتقد أن هدف الراهب أيضا كان هو جمع الأموال من الموريسكيين فتمت معاقبته بحرمانه من الخروج من بلنسية وفرض عقوبات أخرى عليه من طرف الكنيسة.» الأرشيف المركزي، محاكم التفتيش في بلنسية، الوثيقة 675.

تاريخ المملكة، فاضطر الملك فيليبي الثاني لاتخاذ تدابير مستعجلة من أجل محاولة إيجاد حلول لها وانتهج في بعض الأحايين سياسة «دع الأمور تسير». لكن رغم كل التدابير الصارمة التي أصدرها وإعادة تطبيق الأوامر التي عرفت على عهد أبيه لم تعرف تفعيلها الصحيح على أرض الواقع، وترك بعضها للإهمال والضياع نتيجة الظروف التي كان يفرضها الواقع.

عاش الملك فيليبي الثاني تناقضات داخلية حادة، كان يدعو للقسوة والصرامة ويحث محاكم التفتيش على تطبيق قراراتها الصارمة الكافية وهو يدين بداخله سلوك بعض الأسياد والنبلاء اتجاه تابعيهم من الموريسكيين. كان يتأرجح بين اللين والقسوة، بين ما تمليه عليه مصلحة المملكة ووحدتها الدينية والسياسية، وبين الإحساس الإنساني بالرحمة اتجاه شعب يدافع عن تصوراته من أجل البقاء. كان كذلك يخاف على شعبه من الدخول في حرب تأتي على الأخضر واليابس وتزهق الارواح البريئة وتريق أودية دماء متدفقة. كانت رغبته حثيثة في تطهير تراب مملكته من تعاليم القرآن المنتشرة في مختلف أرجائها، لكنه أيضا كان ينظر للحل الناجع الذي يمكنه من تحقيق ذلك، لذا كان يؤيد طردهم وإخراجهم كحل نهائي حقنا للدماء، بعد فشل تنصيرهم وجعلهم يعتنقون الكاثوليكية كخلاص لأرواحهم.

استمر التمرد في البُشَارات وانخرط عدد كبير من الموريسكيين في المجموعات التي كان يرأسها لصوص، صعاليك مشاغبون، إلا أن مجموعة كذلك من نبلاء بلنسية كانت تداري وتتغاضى عن هذه الخروقات وتوفر الحماية لعائلة الموريسكيين مثل دون لويس اياس[1]. استمرت بدورها عمليات الحرق الجماعي في حق المتمردين المتعنتين كما تم العفو أيضا عن التائبين منهم وغير المتطرفين[2]، بينما استمرت مجموعة منهم تدعو

(1) سبق ذكره، رقم 20 ضمن تصنيف الوثائق الدبلوماسية.

(2) خلال مراسيم الإعدام حرقا في حق الموريسكيين الذين لم يدخلوا في الدين الجديد ببلنسية سنة 1568-1570، صدر قرار عفو في شأن بعضهم كان يتظاهر بالتنصر ثم تاب وعدل عن ذلك لاحقا: « بدأت الاعترافات الجديدة وعملية التنصير في بلنسية سنة 1568 بعد اصدار مرسوم العفو، وكان عدد المقبلين على ذلك كبيرا لأن

الهدف الرئيسي للكنيسة هو نشر الطمأنينة وحفظ الأرواح وزرع الأمن والأمان. أصدر الملك فيليبي الثاني قرار العفو هذا بمدريد في 10 مايو سنة 1568. نقحه بيدرو دي أويا والمفتش العام دون دييغو دي إسبينوسا، أسقف سغوينثا. نقحه بدوره أيضا ماتييو باثكيث، ككاتب للمجلس في 13 من الشهر نفسه للسنة نفسها». الأرشيف المركزي، محاكم التفتيش في بلنسية، وثيقة 56.

«بدأت عملية التنصير والإعتراف في شهر غشت من سنة 1568 في فيلا الباشي بحضور الشخصية المرموقة اللامعة السيد المفتش ميراندا، و يرافقه كل من السيد أسقف مييديس و السيد أسقف سرقسطة. وقد بلغ عدد المعترفين الذين تابوا ودخلوا في الدين الكاثوليكي الأرقام التالية في الأماكن الآتية:

في الباشي	320
الكدية	200
بني غفول	83
سينسيا	98
زناتة	196
بني زعت	294
بني غزلون	68
الخندقية	117
كاسترو وبني زيدور	144
بارونيا دي نوليس	146
فيلا نويبا	44
تاليس	223
أرطيسا	167
بني تندوث	185
بوريول	160
شيفرت	120
كاستيون دي لابلانا	124
المجموع	2689

وبقي دون اعتراف العدد الآتي في كل من:

تاليس	23
أرطيسا	60
بني تندوث	10
المجموع	39

وبعد انتهاء مراسيم كل يوم كان المعترفون يقسمون أمام المحقق العام بأن يكونوا أوفياء للدين الكاثوليكي وللملك: «كانوا يقسمون جماعة باتباعهم للتعاليم السمحة لديننا المسيحي انطلاقا من تلك اللحظة إلى غاية مماتهم وألا يعودوا أبدا إلى دين محمد، وأنهم نادمون على ما فعلوه وعن الوقت الذي أضاعوه خارج ذلك الإطار». الأمر نفسه تم اتباعه في مناطق أخرى. ورغم قسمهم وأيمانهم المغلظة فقد واصل الموريسكيون حياتهم مثل المورو كما كانوا عليه من قبل، ويبقى السؤال المطروح: «هل كان منطقيا ومعقولا إرهابهم وإجبارهم على القسم مقابل التنصر الصحيح والصادق؟».

للتشبث بالعقيدة الاسلامية[1]. لقد كان تسيير أسقفية بلنسية يطرح عقبات عدة نظرا لتأزم وضع القضية الموريسكية بها وتعقيدها، وفي 22 من شتنبر 1569 كتب الأسقف بيو الخامس إلى بعض رجال الدين والقساوسة يذكرهم بمسؤوليتهم الدينية أمام الرب ويحثهم على القيام بالمهمة التي كلفهم بها[2]. كانت هذه الأوضاع تقلق البطريرك ريبيرا وتدفعه للاجتهاد للبث في هذه القضية خصوصا أمام تعنت الموريسكيين الذين واصلوا عيشهم بتحد مثل المورو، وكانت كل عمليات وطرق تنصيرهم عقيمة، ولم تجد لا الشدة ولا اللين، بكل بساطة وتعقيد وأيضا كان مستحيلا تمازج ذلك الجنس رغم كل محاولات دمجهما. دقت ساعة التهجير والترحيل في غرناطة، فماذا بقي في وسع ريبيرا فعله ببلنسية؟ لم يكن في وسعه إلا الانسياق لرأي رجال الدين الذين كانوا ينادون إما بالتنصير أو الطرد والتهجير للذين لم يخضعوا للشروط والضوابط المسطرة للمهزومين،

الأرقام التي أوردناها استقيناها من الأرشيف العام المركزي، محاكم التفتيش ببلنسية، الوثيقة رقم 302.

(1) يوجد في الأرشيف المركزي مجموعة من الوثائق الهامة التي تطرقت لنشاط محكمة التفتيش و للأسباب التي عرضت بعض الموريسكيين للإعدام حرقا:

– ألونسو منطيرو، قرب سهلة بني رزين، أحرق سنة 1536 لأنه كان يمارس بعض الطقوس العربية.

– الشرقي، جاء من المدجر، أعدم سنة 1567 للسبب نفسه ولاستحضاره الأرواح والشساطين.

– بيرتي بانيثا، أخ فرانسيسكو بانيثا، قاضي ربض شلف، أحرق سنة 1568 لتواطئه مع بعض المتمردين، وذلك 31 غشت حينما واجه الموريسكيون المسيحيين وتحدوهم. وكان يؤيد ممارسة الموريسكيين لشعائرهم وعاداتهم.

– ميغيل موسى، قدم من شيفا، أحرق سنة 1573، لأسباب اثبتها في حقه كثير من الشهود: «أولا، رمى بالصليب على الأرض، ثانيا، لم يتكلم قط ولا كتب بغير العربية، ثالثا، عند حلول رمضان كان يبعث الرسائل والمراسيل للمناطق المجاورة لإخبارهم بذلك يحثها على الصيام، رابعا، كان يمنع بعض الصبية من الذهاب إلى المدرسة حيث يتعلمون القشتالية وتعاليم الدين المسيحي ويعطيهم دروسا في بيته لتلقينهم الصلاة والقرآن والشعائر الإسلامية. خامسا، كان يجمع الشباب والشيوخ في بيته ويتدارسون القرآن، وكتابا آخر كان يتحدث عن مناظرة بين المسيح ومحمد تغلب فيها هذا الأخير. سادسا، حسب القانون المطبق على المورو كان يحدد المهور التي تحصل عليها النساء خلال زواجهن حسب ما جاء في الشريعة الاسلامية، ويمكنهم أيضا للرجال أن يتزوجوا لأكثر من مرة. سابعا، كان يذهب كل جمعة إلى ساقية زاكور حيث يتوضأ ويصلي. ثامنا، في العيد الأضحى، كان يذبح ذبيحة ويوزعها على الجيران والمحتاجين من ذويه سرا بواسطة أحد الخدم، إذ كان يحتفظ دائما ضمن قطيعه بذبيحة سمينة لذلك الغرض، وقد قتل أحد خدمه حينما علم بأنه أخبر محقق التفتيش بما يمارسه من شعائر وعادات محمدية».

عن هذه الأحداث وغيرها، نجد مقتطفات في أرشيف كوربوس كريستي وكتابا هاما تحت عنوان: وثائق تتعلق المورو، المدجنين والموريسكيين. وفيما يتعلق بانتفاضة موريسكيي سهلة بني رزين، يمكن مراجعة المجلد بأكمله، 1833، المتحف البريطاني.

(2) انظر رسالة بيو الخامس في خيمينيث، مرجع سابق، ص. 50.

الذين ما فتئوا يستغلون الفرص لزرع البلبلة وإثارة هلع وغضب الرأي العام[1]. لم يدخر البطريرك ريبيرا جهدا للبحث في كل السبل لحل المشكل الموريسكي منذ 1569 إلى غاية 1610، فعمل كل ما بوسعه للجمع والمزج بين الجنسين عن طريق الدعوة والترغيب والترهيب في حالات أخرى. ولا يمكن للتاريخ أن يتجاهل المجهودات والسبل التي بذلها ذلك الرجل العظيم لحل تلك المعضلة، وبقيت مراسلاته التي وجهها لفيليبي الثاني والثالث شاهدة عصر عن تلك المرحلة في أسقفية بلنسية[2].

لا ننكر أنه ساهم بدوره في طرد الموريسكيين إلا أنه يجب علينا أن نذكر أيضا بكل المراحل والمحاولات التي قام بها إلى أن وصل إلى ذلك النفق المسدود. هذا لا يعني أيضا أننا في حاجة إلى مدح وتبييض وجه تلك الشخصية الفريدة التي كانت تجسد فكرنا وروحنا خلال القرن السادس عشر[3]. لكننا لن ننهي هذا الفصل دون أن نعترف بأن هناك اعداء للكاثوليكية، كبعض الوزراء والعاملين في الحقل الديني الذين استغلوا الوضع السائد في مملكة إسبانيا خلال القرن السادس عشر ونصحوا وأشاروا على فيليبي الثالث بطرد الموريسكيين، إلا أن هذا لا يعني أيضا أن هؤلاء كانوا أبرياء طيبين، بل كانوا في أغلب الأحيان يتعنتون ويعاندون ويصرون على تطبيق كل تعاليم شريعتهم وممارسات عقيدتهم الاسلامية[4]، بالإضافة للهلع والرعب الذي نشروه بين ساكنتنا نظرا لعلاقتهم بالقراصنة الأتراك والفرنسيين البروتستانتيين. كانت كراهية كل ما له علاقة بالمورو وبالإسلام متجذرة في كيان شعبنا، لأن ذلك كان مرادفا للخطر والخوف. فهل كان هذا الشعور جزافيا لا يرتكز على أسس؟ هل كان المسيحيون القدامى مصيبون في التبليغ عن الموريسكيين المتشبثين بتعاليم القرآن والممارسات المحمدية وكرههم لكل

(1) اعترافات، ص. 182.

(2) **اعترافات**، 152.

(3) حوليات، المجلد الثامن، ص. 74.

(4) مجلد رقم 25، الفصل الرابع ضمن مجموعة خزانة السيد كرويليس يتكلم عن دور القصر اتجاه المسألة الموريسكية وعن الحقائق التي تبرر دوافع القصر وتدابيره اتجاههم في بلنسية خلال 1626 و 1645.

ما هو اسباني؟ كان بعض رجال الدين يدينون ممارسات الموريسكيين حتى وإن كانت «عادية»[1]. لكن ما كان يؤجج غضب وسخط الرأي العام هو دعمهم المستمر للقراصنة وتحينهم الفرصة للأذان بالصلاة من جديد فوق تراب مملكتنا[2]، إلا أننا لا نسيئ الظن في كل الأحوال بالمتنصرين الجدد[3]، إذ عمد جلهم إلى حماية الأسياد والنبلاء. كانت سلوكاتهم المشينة تؤجج غضب الرأي العام ضدهم، ويمارسون شعائرهم علانية ويتآمرون على مصلحة وطننا. فكانت إسبانيا آنذاك للإسبان وما كان يجب أن تكون إلا ذلك.

(1) الوثائق الدبلوماسية، عدد 14، يتضمن بعض المعطيات عن فيليبي الثاني وابنه، وعن الحجج التي كانت تقدم كتبرير لعقاب الموريسكيين جراء سلوكهم وعنادهم والأذى الذي كانوا يلحقونه بالمسيحيين القدامى والحقد الذي يكنونه لهم.

(2) أرشيف لاكاسا ألبا، حسب ما أورد دون باث إي ميليا: «بعض الرسائل أحرق التوقيع بها، بمثابة إجابة عن بعض المسائل التي كان يريد الملك بحثا وتقريرا بشأنها، مثل تمرد الموريسكيين في أراغون سنة 1575، مرسية والبشارات... وعن الموريسكيين وهم يحاولون الحصول على استقلالهم، حيث كتب المحقق العام إلى رجاله في بلنسية يقول لهم: «ليعاقب بصرامة كل الموريسكيين المتمردين في بارباروخا»، الأرشيف العام بشانت مانكش، وثائق حول محاكم التفتيش، رقم 78، ص. 34 و 152، ب.

(3) رغم قرار العفو الذي أصدره بيو الخامس في حق الموريسكيين يوم 6 شتنبر سنة 1567 لم يستفد منه إلا القليل لتشبثهم بوضعهم وبتعاليم دينهم وكذلك نظرا لتحفظ الحبر الأعظم الذي كتب رسالة بتاريخ 6 غشت سنة 1574 «يخبر فيها دون غاسبار دي كيروغا والمحقق العام بعدم تمكن كل المحققين والفاعلين التنسيق من أجل امتصاص غضب المورو الذين يعيشون في مملكة أراغون وبلنسية، والذين لم يتفاعلوا مع هذه الأحكام رغم المحاولات المتكررة معهم». الأرشيف العام سانت مانكش (سيمنكاس)، مجلس محاكم التفتيش، وثيقة رقم 6.



الفهرس

تم بحمد الله



مركز العمودي للترجمة
ونشر التراث المخطوط